الجزء الأول

ذكريات خاصة

الفصل الأول

نشأة المؤلف ومحيطه

ولدت ليلة النصف من شهر شعبان ١٣٢١ . وقد عثرت بعد جهد كبير على ما يقابل ذلك التاريخ في حساب الاشهر والسنين الشمسية وهو ٦ تشرين الثاني ١٩٠٣ . وروت لي المربية الزنجية التي اولتها والدتي امر العناية بي واسمها منكشة (ام سميح) ان مدينة دمشق كانت تلك الليلة مزهزهة بالانوار — انوار القناديل الصغيرة ذات العلب المعدنية المملوءة بزيت الزيتون وبوسطها خيط من القطن يضيء ويرسل في الجو نورا ضئيلا اصفر . وكانت المئات من هذه القناديل تعلق على الجدران وعلى اقواس النصر المكسوة بالسجاد وباغصان الحور والصفصاف . وكانت الجماهير تسير بـ « عراضات » تحمل الاعلام المزخرفة بالالوان المتعددة يقودها شخص يصرخ بملء صوته قائلا : مثلا : « يا فوتني عالصرايا . . . » فيردد الناس قوله : ثم يبتكر جملا اخرى : مثل : « يا مرحبا باللي جاي . . » الى آخر ما هنالك مما يسمونه في الانكليزية Slogan فيثير الحماس وهو محمول على الاكتاف يتهادى وسيفه يلعلع في الفضاء .

وكانت فرحة والدي بالمولود الجديد تفوق ، بالطبع ، فرحته بعيد ذكرى ولادة السلطان . ولكن حدوث العيدين في ليلة واحدة زاد القوم بهجة وسرورا ، كيف لا وقد مضى على زواج والدي خمسة وعشرون عاما انجبت فيها بنتا واحدة وغلامين ماتا قبل ان يبلغا الثالثة من عمريهما . وكانت امي سافرت الى حمص والتجأت الى جامع سيدنا خالد بن الوليد ، حيث صلت وابتهلت الى الله ان يهبها غلاما . ونذرت ان تسميه خالدا تبركا باسم الصحابي الجليل . وهكذا اسميت باسمه واضيف اليه اسم « سليم » نزولا عنه رغبة احد اصدقاء والدي ، هو الشيخ تقي الدين ، نقيب الاشراف . وقد روى

له انه راى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : « بشر محمد فوزي باشا بسليم » فتلقى والدي ــ وكان على درجة كبيرة من التقى وحب الرسول ــ هذه الرواية بانشراح وتفاؤل واصبح اسمي « خالد سليم » مما دعا الشيخ مصطفى نجا من علماء بيروت وادبائها ، صديق والدي الحميم والشاعر الرقيق ، الى نظم قصيدة كذكرى لمولدي هذه هي : ــ

بدا من كريم للوجود كريم
محياه كالبدر المنير سليم
تجلى بافلاك السعادة مشرفا
وعن مثله هذا الزمان عقيم
هو ابن الذي قد فاز بالمجد والعلى
محمد فوزي العظم وهو عظيم
همام وفيّ بالعهود مهذب
تقي سخي الراحتين حليم
عفيف شريف النفس اوصاف ذاته
قد استلهمتها في السماء نجوم
على الصدق مطبوع وبالنفع يعتني
وبالخير يسعى دائما ويقوم
حباه بشعبان المعظم ربه
غلاما به عقد السرور نظيم
فاهديه من حسن الثناء مع الهنا
به وله مني الدعاء يدوم
ولادته قل يا مؤرخه بها
اتى خالد بالعز وهو سليم
١٤٠ ١٧ ١١٠ ٦٣٥ ١١٤
١٣٢١ هجرية

كانت ولادتي في دارنا القديمة الكائنة بحي سوق ساروجه في احدى الغرف العادية التي احترقت فيما احترق من الدار في ١٩٥٦ .

والحادث الذي اذكره وانا بين الثانية والثالثة من عمري هو رجل ملقى على الارض ، يخبط براسه ويديه ورجليه . وقد قيل لي عندئذ انه مصاب بالصرعة . فخفت كثيرا ولجات الى حضن مربيتي .. وكان هذا الخوف سبب انطباع هذه الصورة في مخيلتي وبقائها حتى الآن .

واما الذكرى الثانية في مخيلتي فهي اصوات المدافع التي اطلقت في دمشق يوم الانقلاب التركي في ١٩٠٨ . وقيل لي : « اعلنت الحرية . . » وطبعا لم اكن انا مدركا ما هي الحرية ولا اهلي كانوا مهتمين بافهامي كنهها . وقد تعرفت بها فيما بعد ؛ ولمست كم من المظالم ترتكب في سبيلها .

بداية سلسلة الاضطرابات في الشرق الادنى

واجزم بان هذا الانقلاب الذي حصل في الدولة العثمانية كان بداءة الهزات التي استمرت منذ ١٩٠٨ ولا تزال تحول دون الاستقرار في الشرق الادنى . فلا تكاد تمضي سنة دون ان يحدث في جزء من هذا الشرق ما يبعث الارتجاج في المجموع : ففي ١٩٠٩ خلع السلطان عبد الحميد وتولى الاتحاديون الحكم ، وفي ١٩١١ استولت ايطاليا على طرابلس الغرب ، وفي ١٩١٢ نشبت حرب البلقان ، وفي ١٩١٤ انفجرت الحرب العالمية الكبرى ودامت حتى آخر عام ١٩١٨ ، وفي ١٩١٩ بدأت مناوشات حربية بين الافرنسيين والوطنيين السوريين استمرت حتى موقعة ميسلون ، بتموز ١٩٢٠ ، حينما تغلب جيش الجنرال غورو ودخل دمشق. ولم تهدأ سورية خمسة وعشرين عاما قضتها تحت الانتداب الافرنسي . فكانت اولى المظاهرات ضده في ١٩٢٢ حينما جاء مستر كراين الاميركي ، فاحتشدت الجماهير والقيت الخطب ضد فرانسا واوقف المرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ورفاقه . وكانت هذه اولى التفاعلات الشعبية ضد الاستعمار .

وقامت الثورة السورية ضد فرنسا في ١٩٢٥ وظلت تشغل الافرنسيين حتى ١٩٢٦ ، ثم اثيرت المظاهرات على اثر فشل دور تجربة الحكم الوطني الذي اقامه الافرنسيون في ١٩٢٨ . وظلت البلاد تتمخض بالمظاهرات والمناوشات حتى ١٩٣٢ ، حين اقام الافرنسيون شبه حكم وطني لم يلبث ان واجه المظاهرات واقفال المخازن والدكاكين في ١٩٣٣ . ثم نشبت الثورة في فلسطين ضد الانكليز واليهود في ١٩٣٥ ، وتجددت في ١٩٣٨ بينما كانت القلاقل تملأ الجو ارهابا في سورية حتى انفجرت الحرب العالمية الثانية وانقسم الافرنسيون قسمين ، الواحد بقي مخلصا لحكومته المركزية في فيشي والآخر اشترك مع الانكليز بمحاربة قوى الجنرال دانتز ، الذي دخل دمشق واستولى على سورية ولبنان . ثم انتهى الامر الى قيام الحكم الوطني في سورية في ١٩٤٣ . الا ان الافرنسيين لم يراعوا وعودهم باحترام استقلال سورية فكانت حوادث العدوان في ١٩٤٥ .

ولم يمض على العهد الوطني الذي قام في سورية ولبنان اكثر من عامين حتى دخلت قضية فلسطين في دورها الحاد ، فقررت بريطانيا الغاء انتدابها وسحب جيوشها من تلك الربوع. وتدخلت الامم المتحدة باقرار تقسيم البلاد الى جزئين خصت اليهود بالجزء الاكبر الغني والعرب بالجزء الآخر . واعترض العرب شعوبا وحكومات ودخلت القوى العربية الى الاراضي الفلسطينية ودارت بينها وبين اليهود معارك عديدة ، فلم تنجح قوانا ـ لاسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن ـ في طرد اليهود . وتدخلت الدول الكبرى التي اتفقت كلمتها هذه المرة واجبرت الدول العربية على قبول ايقاف القتال ، ثم على توقيع اتفاقات الهدنة .

وفي ١٩٤٩ قام بسورية انقلاب عسكري تزعمه حسني الزعيم بناء على تشجيع الافرنسيين والامريكيين ، ثم قام انقلاب معاكس دعمه الانكليز كاد يلقي بسورية في احضان العراق لولا قيام اديب الشيشكلي بقلب الحكم القائم وتسلم قيادة الامور . لكنه لم يلبث ان اضطر الى الهروب من دمشق في ١٩٥٤ ، فقام الحكم المدني الديمقراطي حتى اواخر ١٩٥٧ . غير انه انهار بدوره بتاثير عوامل عديدة لا تبرىء الامريكيين من التدخل بها . ثم كانت الانتفاضة العسكرية ضد الوحدة في ٢٨ ايلول ١٩٦١ .

وما حدث في سورية رافقته في بقية البلاد العربية حوادث لا تقل اهمية وتاثيرا على مجرى التاريخ ، لا سيما في مصر حيث قام سعد زغلول بثورته التي استمرت حتى نوال الاستقلال . ثم لجأ عبد الناصر ورفاقه الضباط الى قلب نظام الحكم بمعاونة الامريكيين المعنوية . ثم كانت حوادث الهجوم على قناة السويس في ١٩٥٦ وما عقب ذلك من حوادث هامة .

واما في الجزيرة العربية فكانت حرب الهاشميين والسعوديين انتهت باحتلال عبد العزيز بن سعود الحجاز والحاقها بمملكته . وكذلك نشبت في العراق ثورات وانقلابات عديدة بدات بالثورة الوطنية ضد الانكليز ثم توالت الانقلابات العسكرية الواحدة تلو الاخرى : بكر صدقي ، حكمت سليمان ، ياسين الهاشمي ، العقداء الاربعة (الصباغ ورفاقه) ، نوري السعيد، الكيلاني، الوصي عبد الاله . وهؤلاء كلهم قاموا ، واحدهم ضد الآخر ، فقتل اكثرهم وسجن الباقون، الى ان انتهى الامر بقلب النظام الملكي كله على يد عبد الكريم قاسم ورفاقه ، فابيدت العائلة المالكة وسجن من بقي حيا من الزعماء السياسيين . ثم عقب ذلك ما حصل في الموصل من ثورة عسكرية ،

تلتها محاولة قتل عبد الكريم قاسم نفسه . وهـذا كله لم يضمن للعراق استقرارا مستمرا منذ قيام دولة العراق حتى الآن .

ولئن نعم لبنان بهدوء نسبي فان الثورة التي قامت في ١٩٥٨ واستمرت طويلا خدشت سمعة ذلك البلد الذي سعى ابناؤه لاشاعة الهدوء والسكينة في ربوعه . وهكذا ابتلي لبنان بالانقسام الداخلي ومساوئه .

ولم ينج لبنان من ويلات الانقلابات العسكرية اذ حدثت محاولة لقلب نظام الحكم في ١٩٦١/١٢/٣١ ولكنها باءت بالفشل .

واما الاردن فقد نعم بقسط من الاستقرار النسبي مدة اطول من جيرانه ، الا انه منذ حوادث فلسطين وانضمام المنطقة الغربية اليه بدات مظاهر عدم الاستقرار تتجدد عاما فعاما . فقتل الملك عبد الله ، ثم تنازل ابنه الملك طلال عن العرش . لكن حفيده الملك الحسين ظل عرضة لتيارات سياسية متضاربة جعلت بلاده غير هادئة من حيث الامن والاستقرار السياسي . فهناك انتخابات ١٩٥٥ ، وقيام حكومة النابلسي وسيرها الى جانب سورية ومصر والسعودية ، ثم ردة فعل الملك حسين بحل البرلمان واسناد الحكم الى سمير الرفاعي وهزاع المجالي ، وسجن العقائديين ، وتعثر الامور بين المملكة الاردنية والجمهورية العربية المتحدة ، واضطراب الحال حتى اغتيال المجالي. والحقيقة ان وضع الاردن بهذا الشكل غير مضمون العاقبة ، ولا بد من انضمام الاردن مع سورية والعراق وتاليف دولة عربية قوية على طريقة الاتحاد الفدرالي ، وهكذا تكون الامور عادت الى نصابها الطبيعي .

ولم تنج بلاد فارس من هزات عنيفة بدات في العصر الحاضر بثورة القائد بهلوي وفوزه بعرش ايران ، ثم صدامه مع الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، مما ادى الى خلعه ونفيه الى افريقيا حيث توفي . ثم قام مصدق بحركته الشهيرة التي بذل الاميركيون والبريطانيون جهدهم لقلب نظامه فنجحوا وتنفسوا الصعداء . ثم قامت مظاهرات جديدة وهرب الشاه ثم عاد ، ولكنه لا يزال هو ونظام حكمه معرضين للانهيار . وفي افغانستان قامت حركة معادية للاجانب على يد عاهلها امان الله لم تلبث الدول الكبرى ان قضت عليها بواسطة باجا سقا . لكنه قتل وعادت الامور لسيرها الطبيعي.

وباكستان ، بعد استقلالها في ١٩٤٧ ، لم تستقر فيها الامور . فقامت ثورة تولاها قائد الجيش الذي سمى نفسه رئيسا للجمهورية. وتركيا كذلك ، بعد ان حاربت اليونان وظفرت باستقلالها وسادت

الطمانينة فيها وسارت في طريق التقدم والرقي ، انقسمت الى فئتين : فئة برئاسة عصمت اينونو وفئة برئاسة عدنان مندريس الذي فاز بانتخابات ١٩٥٠ النيابية وتسلم الحكم . لكنه اساء التصرف فانهارت اقتصاديات تركيا انهيارا خطرا . فقـام الضباط عليه واعتقلوه وتسلموا زمام الامر ثم اعدموه .

والسودان ايضا لم تحرم من انقلاب تولى العسكريون بنتيجته شؤون الحكم برئاسة الفريق عبود ، في ١٩٥٨ .

فاذا التفتنا حولنا في بلاد الشرق الادنى ، بحـالته الحاضرة ، راينا حكومـات عسكرية مستبدة تسيطر على اجزائـه : تركيا ورئيسها الجنـرال غـورسيل ، ولبنان ورئيسه فـؤاد شهاب ، والجمهورية العربية المتحدة ورئيسها البكباشي جمال عبد الناصر ، والعراق ورئيسه اللواء عبد الكريم قاسم ، والباكستان وعلى راسه الجنرال ايوب خان . اما الدول الاخرى فتحكم بطريقة لا تختلف عن الطرق المتبعة في البلاد المذكورة من حيث النظام الرئاسي الاستبدادي وهي لم تنج من عدم الاستقرار ، رغم ان الحكم فيها حكم عسكري غير شوري باستثناء اسبانيا والبورتغال . والفضل في هذين البلدين يرجع الى عقلية فرانكو وسالازار وطبيعة الشعبـين الاسبانـي والبورتغالي .

ويبدو ان داء الحكم العسكري الذي استشرى في الشرق الادنى انتقلت عدواه من امريكا الجنوبية ، حيث لا يستقيم الحـكم لجنرال او قائد حتى يقلبه زميل له ، وهكذا دواليك .

ولعل للغيرة والحسد اثرهما في اندفاع القواد العسكريين الى الطموح للقبض على زمام الامور واغتصاب السلطة ، سواء مـن الحكام المدنيين او من زملائهم العسكريين الذين سبقوهم في هـذا المضمار .

وباكثر الحـالات ، يسبق الانقلاب العسكري تردي الامور الداخلية في البلاد ، نتيجة لتزاحم المدنيين على الحكم ولجوئهم الـى اساءة استعمال صلاحياتهم ، حرصا منهم على استبقاء دفة الامور في ايديهم . فتنتشر الفوضى ويعم التبرم والاستياء ، فيهرع ضابـط مهووس او جماعة من صغار الضباط الى عزل السلطة المدنية عن الحكم والحلول محلها ، حاسبين انهم باسلوبهم الحـديدي ، وبمـا اعتادوا عليه مـن اصدار الاوامر التي لا مرد عليهـا لجنودهـم يستطيعون املاء ارادتهم على مجموع الشعب . وهم يعتقدون ان ادارة سياسة الدولة ، داخليا وخارجيا واقتصاديا وعلميا، امر سهل

كادارة حسابات فرقة عسكرية او تمرين كتيبة على السير واخـــذ التحية او اطلاق الرصاص . واولئك الضباط ــ خصوصا في بلدنا ــ الذين هربوا من المدارس الرسميـــة لعجزهم عن الحصول علـــى شهاداتها والتجـاوا الى المدرسة العســكرية حيث لا تزيد مدة الدراسة فيها عن سنتين ، ثم بداوا يعلقون النجوم والنسور على اكتافهم بسرعة خاطفة ، ظنوا انهم يخدمون بلدهم باستيلائهم عـــلى قيادة البلاد وبابعاد المجربين من المدنيين الذين مـــارسوا صناعـــة الحكم طويلا وكانوا على علاتهم اكثر خبرة ودراية من هذه الطبقة اليـــافعة .

وفي جملة الاسبـــاب الاســـاسية التي ادت الى الانقـــلابات العسكرية كان ابتعاد الشعب وزعماؤه عن الرضوخ لمطالب الدول الاستعمارية وقبول اقتراحاتها المؤدية الى ربط مصير الامة الصغيرة بالدولة الكبيرة . فعندما يعجز عملاء تلك الدولة عن تسيير سيـــاسة البلد في مثل هذا الاتجاه يعمدون الى اغـــراء بعض الضباط للقيام بانقلاب عسكري يوقف ، على الاقل ، الاتجاه المعاكس لرغبة تلك الدولة ، اذا هو لم يوجه الامور في مصلحتها .

طبيعي ان جميع الضباط المشتركين في الانقلابات ليسوا عملاء للاجانب ولكنهم يخدعون بمظاهر الامور ، وبما ينفخه فيهم بعـــض رفاقهم من روح الحماس الوطني فيصبحون آلة تلعب بهم الايـــدي الملوثة ، ثم لا يلبث اكثرهم ان يفهم الحقيقة ولكن بعد فوات الاوان .

اراني ابتعدت كثيرا عن نطاق البحث الذي حددته لنفسي في هذه الذكريات التي نويت فيها الابتعاد عن ذكر ما له صلة بالسياسة . ولكن هل بقدرة اي رجل سياسي ان يكتب صفحة دون ان ينساق قلمه انسياقا آليا الى الجانب السياسي ؟

اول مدرسة انتسبت اليها مدرسة خاصة كانت تديرها سيدات افرنسيات ، وهي قريبة من دارنا بسوق ساروجة . واذكر انني كنت اخـــاف من الذهاب لوحدي ، مما حمل مربيتي « منكشة » على مرافقتي ، لا الى باب المدرسة فحسب ، بـــل ايضا الى الجلوس بجانبي على المقعد ، كأنها طالبة تتلقى الدروس . والغرابة هي انها لم تضع وقتهـــا سدى ، اذ انتهى بهـــا الامر الى ان تعلمت بعض الكلمات الافرنسيـــة وتركيب بعض الجمل . ثم دخلت المدرسة الابتدائية التي كان يديرها الشيخ كامل القصـــاب . ولكن المقام لم يطل بي هناك اكثر من يوم واحد لانني كنت اجـــد نفسي وحيـــدا بين طائفة من اولاد لا اعرفهم ، فينتابني نوع من الوجل بسبب عدم

اعتيادي مخالطة النـاس . ذلك ان اهـلي كانوا يمنعون علي معاشرة من كان في سني ، فربيت في البيت معزولا عن الناس . وجاءني ابي باستاذ يعلمني القرآن ومبـادىء القراءة ، فراح يقضي الساعات العديدة بين التعليم وبين اوقات كنت افترضها استراحة لنفسي ، فانفقها في النوم او اللعب او اكل الشوكولاته والسكاكر . وكان الاستاذ ينتظر بكل صبر عودتي الى الدرس معه . على انه كان يشهد باني ، على الرغم من طيشي وقصر وقت دراستي، كنت احفظ جيدا وارضيه في ما يطلبه مني من جهد دراسي .

ولما وجد والدي صعوبة في ارغامي على ارتياد المدرسة اضطر لاستحضار مربية اجنبية تعنى بتثقيفي وتربيتي ، فكان لها وللمربيتين اللتين توالتا علـى هذه المهمـة الفضل في حسن معرفتي باللغة الافرنسية . وهكذا تلقيت دراستي الابتدائية في الدار مدة ثلاث سنين « ١٩١٠ — ١٩١٢ » . واذكر ان احدى هؤلاء المربيات كانت افرنسية وكانت تروي لي قصصا عديدة جرت معها في بطرسبورغ عاصمة الامبراطورية الروسية اذ ذاك ، حيث كانت تقيم مع احدى العائلات المالكة لتربية اولادها . اما الثالثة فكانت سويسرية .

وكانت تسود عادة الاحتفال بختان الاولاد في حفلة تتناسب روعة مع مقام العائلة. وانا اذكر يوم الاحتفال بختاني في١٩١٠. ففي هذا اليوم دعي الى تناول طعام الغداء ما لا يقل عن خمسمائة مدعو تناثروا في باحة دارنا الواسعة وغرفها وقاعاتها يستمعون لجوق من العازفين والمطربين ويتناولون القهوة والمشروبات — غير الروحية طبعا — ويتوازعون علب الملبس . وكنت اجول بين المدعوين ممسكا بيد والدي ، مزهوا بالقنباز الحريري الذي كنت ارتديه ، وبالطاقية البيضاء التي علق عليها الكثير من المجوهـرات الماسية ، كانني عروس ليلة زفافها . لكن سرعان ما انتهى سروري وابتهاجي بهذه الحفلة عندما قادني والدي الى الغرفة المعدة لاجراء عملية الختان وسلمني بيده الى الاخصائي السيد الساطي . فامسك هذا بي وراح يقوم بمهمته . فاخذت اصـيح وابكي مستنجدا بوالدي وبوالدتي اللذين راحا يبكيان خارج الغرفة منتظرين انتهاء العملية . امـا انا ، فبقيت بحضن مربيتي « منكشـه » يحوطني جم غفير من الاقارب واصدقاء والدي الخلص . وكانت الغرفة تعج بهم . وبعد ان انهى الدكتور الساطي عمله حملوني الى السرير العالي المنصوب بصدر الغرفة تعلوه « ناموسية » من التول الرفيع ، وقد زينت بالزهور الاصطناعية .

وجاء والدي ووالدتي ، والدموع تمـلا اعينهما ، وعانقاني بعاطفة عميقة وصارا يأتيان الي بالهدايـا التي قدمت لي بهذه المناسبة السعيدة . وقد بلغت الهدايا قدرا لم اعد اذكره ، ولكنها على كل حال كانت تملأ سطح منصات عدة . ووضعت ، الى جانب السرير ، الساعات الجيبية ، اذ لم تكن الساعات اليدوية قد ظهرت يومئذ في الاسواق . كانت سلاسلها ذهبية ، وكانت المحابر مع الاقلام ذهبية ايضا او فضية . وهذا بالاضافة الى المخمسات — وهي عملة ذهبية قيمتها خمس ليرات ذهبية — والليـرات الذهبية المفردة ، الانكليزية منها والافرنسية والعثمانية . وكنت اتلذذ بعدها وملء كفي بها واسقاطها تباعا في حضني وسماع صوت رنينها . وكان في جملة الهدايا علب مملوءة بأوراق الكتابة مع ظروفها ذات الالوان الزرقاء او البيضاء والرسوم الصغيرة لزهور ملونة ، وكـرات تمثل مصور الارض مجسما ، وغير ذلك من الاشياء . واني اقارن ما كان يهدى في تلك الايام وما يهدى الآن من الثريات الزجاجية والتماثيل الرخامية او الخزفية وآلات الراديو او التلفزيون وساعات اليـد الذهبية والزهور البديعة وعلب الشكولات والسكاكر وهي من الخـزف الصيني او الاوروبي الثمين . لكن بطلت الآن عـادة الاحتفال بالختان فزالت مناسبة جميلة يفرح بها الاولاد ولو كانت تتضمن في الوقت نفسه تجربة مؤلمة . ذلك انهم كانوا يستعيضون عن التخدير العام او الموضعي بالهتاف والصراخ : نيريا يا هيه ... صلوا على محمد ... ونور العين ... ونير وغضير ... وبيض الله وجهه ..

ومن المشاهد التي لا تزال مطبوعة في مخيلتي موكب الحج . اذ كان الحجاج يجتمعون في دمشق ويسافرون بموكب كبير الى المدينة المنورة ، ومنها الى مكة المكـرمة . وكانت الحكومة التركية توفد لحراسة الموكب قوة من الجيش مع مدفعين . لكنها لم تكن مطمئنة الى هذه القوة لحراسة العشرين الفا او اكثر من الحجاج . لذلك كانت تخصص سنويا مبلغا كبيرا من المال ، يصل الى بضع مئات الالوف من الليرات الذهبية سنويا ، ليوزع بمعرفة امير الحج ، على رؤساء القبائل التي على طول الطريق . وبذلك تحصل الحكومة على الامن . وكان يكلفها اضعاف ذلك المبلغ ، لـو هي عمدت الى استئصال داء الغزو المتفشي بين العشائر .

موكب الحج وحراسته

وقد روى لي صديق والدي المرحوم مصطفى بك سليمان انه كان يرافق ذات مرة الهيئة التي اوفدتها الحكومة لدفع الاموال الى رؤساء العشائر حتى تضمن عـدم مهاجمتها العمال الذين كانوا

يقومون ببناء السكة الحديدية بين دمشق والمدينة المنورة . وكانت مهمته ترتيب الجدول بذكر اسم رئيس العشيرة والمبلغ المدفوع له . فلما طلب من احد الرؤساء ان يدلي باسمه رفض هذا بشدة ، رغم الالحاح عليه . وحين اعيت الحيلة اعضاء اللجنة قاد مصطفى بك هذا الشيخ الى خارج الخيمة وساله عن سبب تمنعه فأجابه بأنه لا يستطيع البوح باسمه خوفا من ان يصل الى مسامع السلطان — وكان السلطان اذ ذاك عبد الحميد الثاني — فيأمر بذبحه . فازداد مصطفى بك دهشة واخذ يصر عليه لمعرفة سبب هذا الجزع . وبعد الجهد والايمان المغلظة استطاع الحصول على السر الرهيب ، وهو ان الشيخ كان اسمه « سلطان ! »

وهكذا كان ذلك البدوي المتنقل هو وعشيرته في صحارى الحجاز الشاسعة ، والذي لم تكن يد السلطان لتطاله ، بل تقدم اليه المال لتتحاشى شره ، يخشى ان يسمع السلطان ان هنالك شخصا يدعى سلطان ، قد ينازعه ملكه وسلطانه فيأمر بقتله .

والمضحك في القصة ان السلطان القابع بقصره في الاستانة ، وسلطته تمتد من جنوب الجزيرة العربية حتى نهر الدانوب ، ومن حدود ايران حتى مصر وطرابلس الغرب وما بعدهما ، كان يتبادل الخوف مع ذلك البدوي الذي لا يمتد سلطانه الى اكثر من عشرين بدويا وثلاثين جملا ومئة نعجة . فيدفع احدهما الخوة ويقبضها الاخر كحق له ، رغم خوفه الشديد منه .. وهكـذا كان في ذلك العصر من المفارقات والغرائب ما يتناسب مع سذاجة القوم وضعف الحـــاكم .

اما أمير الحج فكان مقامه عاليا. وكثيرا ما كانت تنتقل الوظيفة بالارث . وقد تعاقب على هذا المنصب ثلاثة من اجدادي ، على ما ذكر في التواريخ ، وهم اسعد باشا العظم وابنه وحفيده ، الى ان انتهت الى احد زعماء الاكراد بدمشق ، وهو المرحوم سعيد باشا شمدين . وبعد أن توفي ، ورث امارة الحج حفيده عبد الرحمن باشا اليوسـف .

وكان الركب يتوجه من دمشق في اليوم الخامس من شهر شعبان ، اي قبل يوم عرفات باكثر من شهرين . ذلك لان الموكب لم يكن يقطع اكثر من ٤٠ كيلومترا في الاربع والعشرين ساعة ، مراعاة لقدرة سير المشاة من الحجاج والعكامة الذين كانوا يرافقون الجمال ويعنون بخدمة من كان يركبها .

وعدا المشاة ، كان من الحجاج من يركب الخيل والبغال ومن

يركب الجمال منفردين او مزدوجين ، على ما يسمى «محارة» ، اي نوع من الهودج يحمل راكبا في كل من الجانبين وعليه غطاء يخفف عنه برد الليل ووهج النهـــار .

وكان السير يتم في الليل اتقاء للحر القاسي الذي حن يهدد الانسان والحيوان بالهلاك . لذلك كان « العكامة » يسبقون الركب الى «المحطة»، فيصلون قبله بساعة او ساعتين،ويهرعون الى نصب الخيـــام واشعال النار وتحضير كل ما يحتاج اليه الحجـــيج من استراحة ونوم وطعام .

وهكذا كان الحاج يعاني انواع المشاق ، على ظهر الجمل او الحصان او مشيا على الاقدام ، حتى يصل الى المدينة بثلاثين يوما ، فيرتاح مدة ثم يستأنف سيره الى مكة فيقضي بين الحرمين المقدسين اثني عشـــر يوما .

وليس غريبا ، اذن ، ما كان يردده الناس . وهو ان الذاهب الى الحج مفقود والعائد منه مولود . اما الان ، فبفضل الطائرة يستطيع الحاج ان يطير ليلة الوقفة الى عرفات ثم يعود ، بساعات اربع ، بعد اتمامه مناسك الحج ، فلا يطول غيابه اكثر من ايـــام معدودات ولا تتعرض حياته للهلاك وامواله للسلب كما كان في السابق . ولذلك توجب على كل مسلم ان لا يكتفي بالحج مرة واحدة على الاقل ، كما فرّض عليه .

واذكر مرة انني صحبت والدي في مركبتنـــا ، وكـــان يرتدي لباسه الرسمي . وهو معطف طويل الى تحت الركبة ، مزركش بالقصب ، تعلوه الاوسمة العثمانية والالمانية ، وقد رصع احدها بالماس ، وكان والدي تلقاه من امبراطور المانيا عند زيارته دمشق في عام ١٨٩٨ . وكان يتدلى من وسطه سيف معلق بالحزام المزركش ويعلو راسه طربوش غير مقشش .

وسارت بنا المركبة في طريق الميـــــدان المزدحم بمن يركب العجلات ، ومن يمتطي صهوات الخيل والحمير والبغال ، ومن يسير على قدميه . اما الارصفة فكانت تكتـــظ بالنساء المحجبات وبالاولاد . وكانت شبابيك البيوت المطلة على الطريق تغص بالمتفرجين من نساء ورجال حملهم كسلهم على القناعة بالتفرج .

وكان الذي يجلب الاهتمام موكب المحمل والسنجق . امـــا المحمل ــ وقد احسن من حفظه في المتحف الوطني كذكرى للماضي ــ فهو هيكل مغطى بقماش مخملي اخضر كتبت عليه بالقصب آيات من القرآن ، يحمله جمل مزركش بأنواع الاقمشة والجلود خيطت

عليها الاصداف الصغيرة والمرايا. اما السنجق فكان يحمله خلف المحمل جمل آخر . وهو علم ، يقال انه علم النبي صلى الله عليه وسلم ، يمسك به موظف خاص يلبس هنداما مزركشا خاصا بالمناسبة .

وكانت الجماهير تحيط بهذين الجملين . وكان بعضها يعتقد ان لمس احدهما يجلب له البركة والربح المعنوي . وكان امير الحج يتقدم الموكب راكبا على صهوة حصانه ، وهو يتهادى بين الجماهير والجنود المحيطين به . وكانت الموسيقى العسكرية تعزف الاناشيد، بينما يتلو المشايخ التراتيل الخاصة فيرددها القوم معهم بكل خشوع وابتهاج . وكانت النساء يرسلن الزغاريد بأصواتهن العالية ... وهكذا كان الموكب يسير ، تحيطه هذه الجموع المختلفة الملابس . منها الرسمية المزركشة بالقصب لاصحاب الرتب المدنية ، والعسكرية التي تشبهها من حيث السيوف وما اليها ، فضلا عن البسة المشايخ، الاسود منها والازرق والبني، بحسب رتبة اصحابها، تعلوها العمائم المزركشة بالقصب ايضا . واما الشعب فكان لباسه ، كما لا يزال حتى الآن، خليطا من اللباس الاوروبي والبلدي المؤلف من قنباز طويل او سروال ضيق الساقين ومعطف عادي او قميص من « الديما » وصدرية مزركشة وحزام من الاغباني او القماش العادي الاسود او الاحمر . واما لباس الراس فمن الطاقية الصغيرة البيضاء او الملونة الى الكوفية البيضاء او الملونة مع عقال اسود او بدونه الى الطربوش الاحمر او الابيض الى كاكولية الدراويش ذات اللفة الخضراء . ولكن لم تكن لتشاهد بين جميع هذه الجماهير احدا بدون غطاء راس الا الاطفال الصغار ، اذ كان عيبا ان تخرج الى الشارع وراسك مكشوف . واما الان فاذا لم تكن عـاري الراس فالناس تتطلع اليك بتهكم .

والفرق الكبير الظاهر بين الامس واليوم هو في لباس المراة .. فكانت المسكينة ملفوفة بملاءة سوداء لا تظهر لها جزءا من جسمها حتى ولا كسمه ... واما الوجه فمخبأ يكاد لا يخرقه النور ... حتى انني اجيز اقامة تمثال تمجيد للمراة العربية المسلمة التي كانت تستطيع السير في الشارع وتمييز طريقها خـلال هذا الحجاب الكثيف ... .

وكنا في طريقنا ضمن الموكب كاننا في بحر خضم تتجاذبه امواج ليست من الماء بل من اناس يتدافعون ويتراجعون كانهم بحر هائج . والاذن تفخت طبلتها الاصوات المتضاربة المتماسكة المؤلفة من الالات النحاسية التي يضرب عليها افراد جوقة الموسيقى العسكرية

بشدة تتناسب مع صولة الجيش وهيمنته على العباد ، ومن صريخ مشايخ الطرق الذين يظنون انهم بقـدر ما يرفعون اصواتهم بقدر ما يتقربون من اعلى العليين ، ومن زغردة النسـاء التي لا تفرق في اوجها عن الولاويل المستعملـة في الحزن ، ومن ازيز الرصاص الذي يتبارى شباب الاحياء باطلاقه فرحا وسرورا ويزيد في ضجيجه اصوات المدافع التي كانت تطلق من الثكنات . واذا اضفت الى كل ذلك صوت هدير الناس ودوي احاديثهم وعيـاطهم استطعت ان تتصور ــ بأقل من الواقع على كل حال ــ ما كانت تعانيه الآذان في الساعتين او الثلاث التي تنقضي حتى يصـل الموكب الى قرية العسالي بآخر حي الميدان .

واذا اضفنا الى هذه المزعجـات ما كان اصحاب الدكاكين يمطروننا به من انواع المياه : ماء الورد وماء الزهر والماء العادي الذي كان يقذفه البعض بدلا من الاولين توفيرا واقتصادا ، فتبتل ثيابنا كأنها في يوم ممطرير . واذا ذكرنا ما يصيب المرء من دفش ونكش ودعس على الاقدام ، ومن زلة الارجل في الجور والحفر التي كان يسترها عن الاعين الازدحام الشديد والاكتظاظ المخيف كأنه يوم الحشر ... فاننا بذلك قد نعطي صورة قريبة عما كان يجري بيوم المحمل المشـهود .

وهل اطرف من وقوف الموكب امام مقام سعد الدين الجباوي ريثما يتناول الجمل السعيد قطع السكر والملبس التي جرت العادة على تقديمها له من قبل من كان يمارس هذا الامتياز مفتخرا ؟

قلنا ان هدف القومْ كان قرية العسالي ، حيث تحتشد الجموع قرب الجامع حول الخيام المنصـوبة للمدعويين الرسميين من الباشاوات والبكوات والافندية ، مدنيين وعسكريين وعلماء ، لوداع امير الحج وامين الصرة ــ اي الاموال التي كانت ترسلها العاصمة لتوزيعها على العشائر ــ وسائر الحجاج . وكان يتصدر الجميع والي سورية والى يمينه امير الحج والى يساره المشير قائد الجيش الخامس المرابط في دمشق ، ومن حولهما سـائر المدعويين من الموظفين ووجوه المدينة وعلمائها . وبعد تسليم الصرة رمزيا الى امينها يتعانق الامير مع كبار المودعين ويمتطي صهوة جواده ويسير في مقدمة القافلة بين الزغاريـد وبكاء عائلات المسافرين وانغام الموسيقى وتهاليل المشايخ وتعاويذهم ... وتظل المناديل تلوح حتى يغيب الركب في طريقه الى الكسوة حيث يقضي بقية ساعات النهار

ثم يستأنف المسير ليلا الى المزيريب في طريقه الى المدينة ثـم الى مكـــة .

في ربيع ١٩١٤ ارادت الحكومة العثمانية ان تقوم بعمل يدعم هيبتها المتداعية على اثر الحربين اللتين خسرتهما ، وهما الحرب ضد ايطاليا حيث اضاعت طرابلس الغرب ، والحرب ضد الدول البلقانية حيث انحسر سلطانها عن بلاد البلقان كلها . وكانت المباريات بين الدول الكبرى جارية بهمة في مضمار الطـيران، اذ اجتاز الطيار الافرنسي «بله ريو» مضيق «كاليه» في بحر المانش من الاراضي الافرنسية الى الاراضي الانكليزية . ثم قام الطيار الافرنسي « فرين » برحلة جوية بين باريس والقاهرة ، في حين ان الطيران الاميركي كان من جهته يستجلب اعجاب الجماهير .

وكانت الطائرات في ذلك العهد صغيرة الحجم وذات محرك واحد لا تتجاوز قوته المائتي حصـــان . وكانت مقاعد الطيارين مكشوفة ومعرضة للبرد والرياح . اما طول الطائرة فلا يتجاوز سبعة امتار . واما طول الجناحين فكان سبعة امتار ايضا .

وبدأت الرحلة الاولى من الاستانة حيـــث تولى الطياران العسكريان فتحي وصادق قيادة الطائرة الصـــغيرة متوجهين الى القاهرة ، على عشر مراحل .

اول طائـــرة تصل الى دمشق

وفي اليوم الذي اعلن فيـــه نبأ وصـــول اول طائرة الى دمشق احتشدت جموع غفيرة يقدر عددها بمئة الف نسمة ، في الفسحة التي يشغلها الان معرض دمشق الدولي . وكان على الطائرة ان تحط على المرج الاخضر كيفما كان الامر ، حيث لا مدرج ولا برج ولا استعداد لمساعدتها على الهبوط . وكنت مع والدتي واهل بيتي قد اتخذنا من احدى المطاحن المشـــرفة على ساحة المرجة مركزا للفرجة . وقد خشينا ان ينهار بنا البناء الخشبي من كثرة المحتشدين به من المتفرجين . واما والدي فكان جالسا مع الهيئات الرسمية تحت صيوان كبير اعد لهم في منتصـــف الساحة . وبقينا ساعات طويلة ننتظر وصول الطيارة . وكان الاولاد كلما شاهدوا نسرا في الجو صاحوا : وصلت ، وصلت ، فتشرئب الاعناق الى السماء وتنطلق الضحكات . وهكذا حتى بدا في السماء جـــرم لا يشبه النسور وصار يحوم فوق الساحة ، فارتفعت اليه اصوات الزغاريد والهتاف . وما لبثت الطائرة ان حطت في اول الساحة وتدرجت على الحشيش حتى توقفت في اخر المرجة ، فهرع القوم وهجموا على الطائرة ورفعوا الطيارين على الاكتاف وقادوهما الى الصيوان ،

حيث كان الوالي والمشير وسائر المستقبلين الرسميين بانتظارهما . اما الطائرة فلو لم تسرع شرذمة من الشرطة لتحيط بها وتمنع الناس من التقرب اليها ، لما بقي منها اثر ، بسبب الاقبال على اخذ قطعة منها على سبيل الذكرى .

وبعد ان انتهى الاستقبال الرسمي سار الموكب الى دارنا بسوق ساروجه ، حيث كان مقررا نزول الطيارين ضيفين كريمين على والدي . وبهذه المناسبة ، فان من الطريف ذكر الخلاف الذي وقع بين والدي وبين عبد الرحمن باشا اليوسف على اي منهما يستضيف الضيفين . وكانت مجادلة عنيفة امام الوالي ، الذي لم يستطع حسم المشكلة الوخيمة العواقب الا بتقسيم مدة الاستضافة بين المتنازعين ، فخصصت الليلة الاولى لوالدي والليلة الثانية لجارنا عبد الرحمن باشا . وهكذا اعددنا للزائرين غرفتين مجهزتين بأفخر الرياش .

ووصل الموكب الى الدار ، فالتزم فتحي وصادق غرفتيهما للراحة حتى المساء . ثم اشتركا بالوليمة التي اقامها والدي على شرفهما وحضرها الوالي والمشير وكبار الموظفين والوجهاء .

وفي اليوم الثاني طاف الضيفان اسواق المدينة وتفرجا على مباهجها ، ثم ذهبا الى دار عبد الرحمن باشا ، فقضيا ليلتهما ، بعد وليمة اعدت لهمّا هنالك .

وفي صباح اليوم الثالث زحفت الجماهير الى المرجة لتشاهد سفر الطائرة . وكان الحفل كحفل الاستقبال . وصعدت الطائرة ببطء الى السماء وتوارت عن الانظار والناس يدعون لها بسلامة الوصول . الا ان القدرة الالهية لم تستمع الى تلك الابتهالات ، فسقطت الطائرة قرب بحيرة طبريا ومات الشهيدان في سبيل الواجب والتقدم . وانتشر الخبر بدمشق انتشار النار في الهشيم ، وتولت اسلاك البرق اذاعة الخبر الى كافة انحاء العالم . وفي اليوم الثالث من الحادث استعدت المدينة لاستقبال الطيارين جثتين هامدتين ، لا قوة لهما ولا حول ، بعد ان استقبلتهما نازلين من اوج علائهما في السماء . تبارك الله ، يعلي من يشاء ويدني من يشاء . بيده الموت ، وهو على كل شيء قدير .

احتشدت الجماهير امام محطة القنوات وانزل النعشان من القطار مكللين بالعلم التركي ، تعلوه الزهور والرياحين . وسارت الجنازة بين عشرات الالوف من الواقفين على الارصفة والمحتشدين في الشبابيك وعلى سطوح المنازل . وكانت المآقي تذرف الدموع

ـسخية والوجوه يعلوها الحزن الشديد . وكانت ولولة النساء تعلو اصوات المؤذنين وارباب الشعائر الدينية . وتوجهت الجنازة الى جامـــع التكية ، حيث اقيمت صلاة الميت . ثـم سارت نحو سوق الحميدية ومنه الى المثوى الاخير الذي اختير للشهيدين بجوار صلاح الدين الايوبي .

وبعد اسبوع وصلت الطائرة الثانية . كـــان استقبالها هذه المرة في سهل المزة ، ولـــم نقم اية حفلـــة ، حـــدادا علـــى الفاجعة السابقة . ونزل الطائران بدار عبد الرحمن باشا ، اذ ان والدي لم يسع هذه المرة لاستضافتهما ، حزنـــا منه وتألما عـــلى رفيقيهمـــا. وغادرت الطائـــرة دمشق وتوجهت الـــى مصر ، الا ان حظها وحظ قائديها لم يكن احسن ممـــا سبق ، فوقعت في البحر امام مدينة يافا ونجا احد القائدين واستشهد الآخر فحملت جثته الى دمشق ووريت بجانب الرفيقين الاولين . ونكأت هذه الفاجعة الجرح الذي لم يكن قد التأم بعد . وظلت الحادثتان مـــدار حديث الناس وسبب حزنهم مدة طويلة ، الى ان اعلنت الحرب العامـــة بصيف ذلك العام ، ثم اشتركت الدولة العثمانية بهـــا . فنسي الناس الفاجعتين وشغلتهم فواجع الحرب الكبرى ومصائبها .

وفي ربيع ١٩١٥ بعث جمال باشا قائد الجيش الرابع والحاكم بأمره في البلاد العربية (سورية ولبنان وفلسطين والحجاز) وفـــدا من المشايخ العلمـــاء الـــى المدينة المنورة لتلاوة السيرة النبوية يوم المولد الشريـــف ، والتضرع الى اللـــــه عز وجل بان ينصر جيش المسلمين . وجاء احد اقربائنا الشيخ توفيق الحسيني لدارنا واقترح على والدتي ان نذهب كلنا الى المدينـــــة المنورة بالقطار المخصص للوفد ، اذ لم تكن المواصلات في تلك السنة ميسرة بسبب اشتراك تركيا بالحرب . فاستصوبت والدتي الفكـــرة وقـــررت السفر دون استشارة والدي الذي كان حينئذ في الاستانة ، نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثان العثماني . وكانت اسرتنا مؤلفة من والدتي وعمتي الاثنتين وشقيقتي الاثنتين ومني ، فخصص لنا بالقطـــار غرفتان في كل واحدة منهمـــا سريران : الواحـــد فوق والثاني تحته . واكتظت سائر غرف القطار بالمشايخ الذين تجاوز عددهـــــم المئة . ولم يكد القطار يبرح محطة القنوات حتى تعالت اصواتهم بالاناشيد النبوية وبتلاوة الآيات الكريمة . وكانت رحلة ممتعة لولا بطء سير القطار واضطراره للوقوف مرات عديدة، وذلك بسبب نوع الوقود المستعملة في

القاطرة ، وهو الخشب والحطب بـدلا عن الفحم المفقود منذ بداية الحرب . فكان السائق يضطر لتوقيف القطار كلما نقص البخار في المرجل ، والانتظار حتى ترتفـع حرارة المـاء فيتكاثف البخار ليعيد القطار الى سـيره . اما السبب الآخر للوقـوف المتكرر فكان ورع المشايخ ، اعضاء الوفـد ، اذ انهم كانوا قـد اصدروا امرهم الى سائق القطار بايقافه عند حلول مواعيد الصلوات الخمس . وهكذا كنا نضيع اكثر من ساعة بانتظار وضوء السادة المشايخ ووقوفهم صفا واحدا خلف الامام واقامة الصلاة وارسال الدعوات الخيرات . والواقع انه كان منظرا رائعـا وقوف مئـة متعمم وسط الصحراء مبتهلين الى المولى تعالى خاشعين مؤدين واجبهم الديني بكل ايمان وخضوع ، وخاصة عند صلاة العصر ، حين كانت ظلالهم تمتد طويلا على رمال الصحراء الناعمـة ، او عند صلاة الصبـح ، حين كان صوت المؤذن الشجي يدوي في الارجاء الخالية الا ممن عبد الله .

وكنت لا افوت وقتا من اوقات الصلاة ، واقيمها مع المصلين بكل خشـوع وهيبة ، وانا البس لباسا جهز لـي قبل السفر . وهو مؤلف من قنباز حريري ابيض ، تعلوه جبة بيضاء . وقد اكتمل هذا الزي عند وصولي الى المدينة ، حيث اشتريت عمة من النوع الذي يلبسه اهل تلك البلد ، وكم اتمنى لو اخذت لي صورة فوتوغرافية ، اذن لكانت ذكرى جميلة .

واضافة الـى الشعائر الدينيـة والتلاوات والاناشيد ، كان اهتمام رفاقنـا المشايـخ مصروفا الـى تناول انواع الاطعمة التي استزادوها او راحوا يحضرونها في القطار ويتهادونها في ما بينهم . وكان مشهورا عنهم حب الطعام ، لدرجة النهم . فكان الواحد منهم يفتخر بالانواع الفاخرة من المآكل ، لا سيمـا الحلويات التي كانت الصناديق مليئة بها (الكنافة باشكالها والكول واشكر وغيرهـا من المعجنات الطيبة) .وكـان احد اعضاء الوفـد ، ، احمـد افندي الداغستاني ، رجل يتظاهر بالبله . فيطوف على وجـوه البلد ناقلا اخبار اليوم كأنه محطة اذاعة سيارة . ولم يكن مع احمد افندي من الزاد ما يهديه او ما يؤمن حاجته ، الا انه استجلب معه دزينات من اوعية الماء (المسماة شربة) وهي جرة صغيرة مصنوعة من الفخار . واقتصر عمله على املاء هذه الاوعية بالمحطـات وتعليقها بشبابيك المرات . وحينما يعمد المسافرون الى الطعام كان احمد افندي يمر بالغرف ويقدم الماء العذب البارد ، فيدعى لمشاركة الناس في طعامهم .

وكان يتظاهر بانه سبقهم . ولكنه « من شان خاطرهم » كان يتناول لقيمات معدودات . وهكذا فـــلا ينتهي به المسير حتى يكون قد ملأ بطنه واكتفى .

كانت مبارحتنـــا لمحطـــة القنوات بدمشق في الصباح . وظل القطار يسير بتمهل حتى وصل الى محطـــة عمان بعـــد الغروب . وهنالك علمنا ان احدى المركبـــات قد احتـــرق الزيت في دواليبها واوشكت اللهب ان تحرق المركبـــة بمن فيهـــا . فابعدت عن القطار ووزع ركابها على المركبات الاخـــرى . وصدف ان عمتي الصغرى كانت مستندة الى شباك غرفة المركبة فسمعت بكاء امراة واقفة على الرصيف ، فاشفقت عليها وسألتها ما بها وراحت تخرج من جيبها قطعا من النقد لتعطيها اياها ، ظانة انها متسولة. فاجابتها المراة : انى مسافرة معكم ، واحترقت المركبة فاقترحوا علي الجلوس مع طائفة من الرجال فأبيت . وها اني معرضة للبقاء بعمان ولا اعرف فيها احدا . ولم اجد في القطـــــار مكانا بين السيدات امكث فيه . واسترسلت في البكاء والنحيب حتى بلغ الحزن بعمتي حدا كبيرا . فقالت لها اصعـــدي واجلسي الـــى جانبـــي . وانتفضت شقيقتي وحذرتها من استضافة امراة لا تعرفها . فلم تكترث عمتي وتركت لها جزءا من سريرها فجلست عليه وراحت تكيل لها الشكر والمنة . ولم تمض ساعة او اقل حتى شعـــرت عمتي بضرورة الخروج الى الممر لاستنشاق الهواء النقي . ولما عادت، ما كان أشد عجبها عندما رات ضيفتها متمددة على السرير كلـــه . فقالت لهـــا : ها اني قد عدت فعـــــودي الى محـــلك . فاجابتها المـــراة بصفـــاقة : انت دفعت اجرة محلك وانا كذلك دفعت اجرته ، فاقعدي حيثمـــا كنت جالسة . « وما حدا احسن من حدا » .

وابتدا بين السيدتين خصام ونقاش لم يغيرا شيئا من الموقف . وظلت المراة الدخيلة محتلـــة السرير وبقيت عمتي حتـــى الصباح جالسة في المحل الذي تخلت عنـــــه سابقا لتلـــــك المراة الجاحدة الناكرة المعروف .وجرى ذلك بظل شماتة شقيقتي وترديدها الامثال السائرة عن عدم تقديم المعروف الا لمن يستحقه .

لم يكن بتلك الايام فندق في المدينة ياوي اليـــه المســـافرون . فكان كل واحد ينزل عند « مطوف » ، حيث ينام اعضاء الاسرة بغرفة واحدة على الفرش الممدودة عـــلى الارض . واخترنـــا نحن مضيفنا (وعلى ما اذكر كان اسمه ابن المـــدني) وذهبنا الى الجامع ساعة

وصولنا ، حيث يصلي الرجال في المسجد النبوي وتصلي النساء بعيدا عنهم ، بجزء منـــه محدود بجدران خشبية لا تخرقهـــا الانظار . ولا يزال بمخيلتي الخشوع الذي شعرت به اذ ذاك ، عندما زرنا قبـــر النبي صلى الله عليه وسلم ، وطفنا حوله ، واقمنا الصلاة بجواره ، وقعدنا على الارض ننهل مما يشع من القبر من اشعاعات لا استطيع وصفها لانها روحية غير مادية . وقيل ، فيما بعد ، ان الاتراك، قبل ان ينسحبوا من المدينة ــ حيث حاصرتهم قوى الشريف حسين بن علي ــ سلبوا ما استطاعوا من مجوهرات ومن قطع ذهبية وفضية ذات قيمة اثرية ومادية . وقد زرت المدينة المنورة والمسجد النبوي مرة ثانية بعد مرور ٣٥ عامـــا ، فلمست الفارق الكبير بين حالتيه السابقة واللاحقة . فبعد ان كانت السجف السميكة تحـــول دون دخول النور الوهاج ، فيسود على الجـــو شيء مـــن الظلام تخففه انوار الشموع ، بدا لي الحرم في المرة الثانية والنـــور يملأ اجواءه بعد ان ازيلت تلك الستائر . واني اعتقد ان العبـــادة بجو لا يشع فيه النور ، بل تملأه ظلمـــة غير كاملــــة ، تكون مقرونة بالهدوء والسكون اللذين يجعلان المرء محفوفا بشعور روحاني لا اقدر على التعبير عنه . فالانســان بصلاته اقرب ما يكون الى باريه ، فهو يتعبده ويناجيه ولا اظن ان كل ذلك يتم في جو عاصف بالنور والضجيج . فما احلى الصلاة في جو مظلم هادئ لا يسمع فيه سوى صوت الآذان الرخيم ، وصوت الامام يتلو الآيات الكريمة مع ترديد المصلين لكلمتي الله اكبر ، وسبحان ربي الاعلى ، وسبحان ربي العظيم ، وصوت هدير المصلين الى السجود . ففي هذا كله روعة لا تدانيها طقوس الصلاة عند غير المسلمين .

والفرق بين صلاتنا وصلاتهم اننا ندعو الناس بمحاجرنا وفيض روحنا . اما هم فيدعونهم بالاجراس المعدنية . واما الموسيقى التي ترافق صلاتهم والانغام التي ترتلها فرق الصغار ، فاثرهـــا لا يعادل على اي حال اثر الاصوات الرخيمة تتلو ما انزل علينا من آيات بينات تجمع الـــى سمو المعاني روعـــة الالفاظ والعبارات . وفي ركوع وسجود جماهير المصلين تتجلى مظاهر العبادة واضحة مخلصة . واما الحركات التي يقوم بها الكهان فتبدو لي اشبه بحركات الساحر منها بطقوس عبادة جدية . وعلى كل حال ، فهذه المراسيم والطقوس انما هي من اختراع الكهنة ولا تمت الى اصل الاديان بصلة ما .

وفي اثناء اقامتنا بالمدينة المنورة ، زرنا البقيع حيث مدافن اسرة

النبي (صلعم) . وقد طمسها الوهابيون فيما بعد ، ظنا منهم أن بقاءها قائمة فوق الارض تستهوي الناس لعبادة احجارها .

واذا صح ان الناس كانوا يعبدون الحجارة في الحجاز قبل ظهور الدين الاسلامي ، فلم يعد ثمة خطر من الرجوع القهقرى بعد ذلك، لا سيما ان العلم يشع على الافكار، بحيث لا يدع مجالا للتخوف من هذه الجهة .

ثم عدنا الى دمشق بالقطار .لكننا حرمنا في عودتنا هذه من رفقة السادة المشايخ. فقد استطابوا العيش في كنف الرسول و آثروا التأخر هناك قليلا .

في مستهل ربيع ١٩١١ عزم والدي على القيام برحلة الى اوروبا. كان السفر اليها نادرا وغير ميسر بسهولة لمن كان لا يتكلم احدى اللغتين الاجنبيتين السائدتين : الانكليزية والافرنسية . ولذلك عول والدي على مرافقة صديقه حسين حلمي باشا طيلة الرحلة .

قضاء الصيف في لبنان

وكانت الصداقة بين والدي وبين الباشا المشار اليه قد تطورت حينما كان هذا الاخير (مكتوبجي ولاية سورية) اي رئيس ديـوان الوالي . وهي وظيفة قد تبدو الآن غير مهمة ولكنها كانت آنذاك تعادل وزارة الداخلية الآن من حيث الصلاحيات والنفوذ ، لا سيما ان ولاية سورية في تلك العهود كانت تشمل الاقضية الاربعة التي الحقت في ١٩٢٠ بالجمهورية اللبنانية ، كما كانت ايضا تشمل بلاد المملكة الاردنية وجزءا من المملكة السعودية (معان) .

وزار والدي والباشا ايطاليا وفرنسا والمانيا والنمسا وعادا الى استنبول ، حيث ودع والدي رفيقه وعاد الى بيروت .

وعدا ان السفر الى البلاد الاجنبية كان غير مألوف ، فان سفر الزوجة والاولاد مع رب العائلة كان امرا غير وارد . ولذلك سمح لنا والدي، لقاء تركنا لوحدنا ، ان نقضي الصيف في لبنان . فاستأجرنا بيتا في بلدة سوق الغرب قرب عاليــه . ولي بتلك البلدة ذكريات مؤلمة ، اذكر منها ان الدار التي كنا نقطنها في بناية مؤلفة من عدة طوابق ، كان لها شرفة على واد سحيق فوق شرفات تابعة للطوابق السفلية. وكانت الشرفة من احجار مصفوفة صفا غير محكم، تحملها احجار مثلها بارزة عن البناء . وذات صباح كنا جالسين على ارض الشرفة، فتراءى لوالدتي ان تستحضر آلة تحميص القهوة . ورحت

ادير معها حركتها . ويظهر ان قطع الفحم المشتعلة ضمن المحمصة اثرت حرارتها على حجر الشرفة الذي كنت جالسا عليه فانشق وسقط على الشرفة التي تحته وسقطت معه .

وكان، قبل هنيهة، اولاد مستأجر الدار السفلي يلعبون على شرفتها تحتنا . الا ان مربيتهم ادخلتهم صحن الدار واغلقت الباب بينما كنت اهوي مع قطعة الحجر . فانتبهت المربيـــة واسرعت الى فتح الباب فالتقطتني من الارض وحملتني الى داخل الدار وانا فاقد الوعي . اما والدتي فلم تشاهد الحادث لانها كانت مشغولة بامر آخر . فلما سمعت صوت انفجار الحجر التفتت صوبي فلم ترني ، بل رأت فوهة مفتوحة الى جانبها ، فادركت اني وقعت منها . ونظرت الى الشرفة فلم ترني ايضا ،لان المربية كانت اخذتني الى الداخل . وهكذا تصورت والدتي ان سقطتي تجاوزت الشرفة الى الوادي السحيق ، فقامت من فورها وركضت نزولا على الدرج قفراء بدون غطاء رأس .وعندما قامت والدتي من مكانها وهرولت للتفتيش عني ، سقطت وراءها القطعة الثانية من الحجر الذي سقط من قبل . وهكذا فلو لم تأخذني المربية من مكان سقوطي لوقعت قطعة الحجر الثانية فوقي وهرستني هرسا . وبمنتصف السلم تلاقت والدتي المهرولة بالمربية المسرعة صعودا لتطمئنها على سلامتـــي . وعندمـــا اطمأنت والدتي علي ، رغم غيبوبتي ، امسكت خاتما ماسيا ثمينا كـــان باصبعها وقدمته للمربية هدية وعربونا على ديتها عليها . ولم اصح من غيبوبتي الا بفضل سائل اليود الذي مســـح به الدكتور غراهام الجرح الذي اصابني براسي وانا اسقط بين احجار الشرفة . ولما فتحت عيني شاهدت عشرات من السيدات والرجال يحيطون بالسرير الذي كنت ممددا عليه ، وفي مقدمتهم والدتي . وكانت الدموع تملأ عينيها ولون الاصفرار يصبغ وجهها .

فقالوا لي انني وقعت من الشرفة انا ووالدتي ، كأنهم بذلك يزيلون الخوف والهلـــع من قلبي . فبكيت من الم الجرح اكثر من الخوف .

كان الدكتور غراهام طبيبا بريطانيا اقام في بيروت واكتسب شهرة واسعة في لبنان وسورية . وكانت جميع الاسر المعروفة في بلادنا تهرع الى بيروت لاستشارته بامراضها . وانا اذكره جيدا وهو يبتسم ويسأل مرضاه بصوت ناعم : كيفك يا ست نظــيرة ؟ اذ انه تعلم اللغة العربية ، ولكنه لم يتمكن من التخلص من اللهجة الانكليزية

في عربيته . وكان الدكتور غراهام اول من استورد سيارة الى البلاد، فكنا نسمع صوت محركها يدوي بارجاء الجبل عندما يصعد بها من بيروت الى سوق الغرب ، حيث كان يقضي فصل الصيف .

وبهذه المناسبة ، لا باس من ذكر ما كانت عليه في مطلع العصر الحاضر وسائل النقل العامة. فلم يكن غريبا ان ترى باشا او وجيها كبيرا يركب حمارا ابيض او بغلا اشهب لزيارةصديق له في البلد. اما اغلبية الرجالات المعروفين ، فكانوا يملكون اصطبلا عامرا بالجياد العربية العريقة الاصيل ، يمتطون صهواتها بكل اعتزاز .

وكان كل مـن سعيد باشا شمـدين ، امير الحج ، والامير عبد القادر الحسيني يملك وحده عربة (كروسه) المشتقة من كلمة Carrousa الايطالية ، يجرها جوادان . ثم ازداد عدد العربات فصار عندنا عربة جميلة. الا ان استعمالنا لها كان كسوانا محصورًا بالزيارات التي يقوم بها والدي للوالي او لكبار اقرانه ، وللزيارات التي كانت والدتي وعمتي واختي يقمن بها. كان والدي يركب العربة مساء كل يوم ، من ابتداء فصل الربيع حتى اواخر الخريف ، ليذهب « لشم الهواء » في الربوة او الشادروان او دمر . وهذه كانت ابعد مرحلة يقبل بها السائق (العربجي) خوفا على الخيل من التعب ، حتى انه كان يرفض العمل بعد الظهر اذا استعملت العربة صباحا للذهاب الى القرية او البستان ، مع ان المسافة لا تتجاوز بكليهما خمسة كيلو مترات . واني اذكر الفرحة التي كنت اشعر بها عندما كان والدي يرسل الى العربجي خبرا بان « يحضر العربة » ، فكنت اركض الى الاصطبل لابلغه هذا الامر بنفسي ، فتبدأ عملية التحضير، فيأخذ العربجي والسائس بمسح الجوادين ، ثم يجران العربة من مستودعها . ويلبس السـائس الجوادين الطقم اللماع ويربطهما بالعربة ، ثم يعتلي الكرسي العالي في مقدمتها ويمسك بيده السوط (الكرباج) ويضرب به الهواء ، فيسمع صوت (القمشة) فتهب الخيل وتخرج من الاسطبل الى الشارع ، والعربجييزهو على مقعده كانه هو الباشا .

ويصل الباشا ، وانا الى جانبه ، فنركب العربة وتطق القمشة مرة ثانية . وتنطلق العربة بصوت عجلاتها الحديدية ـــ ولم يكن بعد استجلبت الاطارات المصنوعة من المطاط ـــ واصوات نعول الخيل الحديدية . وكان العربجي ينادي‌الناس بالابتعاد عن طريقه بالنداءات الآتية : «اوعى ظهرك .. اوعى بالك ... يالله ياحبيبي يالله ! »

وقلما كان يستعمل الزمور وهو طابة من المطاط يعصرها فيخرج من البوق النحاسي صوت يشبه صوت ناقلات البترول التي تجوب الآن الشوارع في المدينة ، عندما لا يكون ثمة ازمة وقود طبعا . وكان من الصعوبة بمكان ان تجتاز العربة طريقها بين قوافل المشاة الغادين والراجعين في الشارع العريض، دون التزام الارصفة، ناهيك بالباعة المتجولين ببضائعهم المتنوعة ، وهي محمولة على ظهور البغال او الحمير . فكان الشارع مكتظا بهم لدرجة الاشباع . وكانوا يقفون بوسطه ويقضون وقتهم بالمساومة على سعر رطل الكوسا مثلا ، ثم يمسكون الميزان ويزنون البضاعة ويسلمونها الى المشتري ، فيضعها هذا في سلته او كيسه، ويمضي الوقت هكذا، كأن لا قيمة له. وكانوا يستغربون لماذا يعجل العربجي بالسير فلا ينتظر انتهاء عملية المساومة على ثمن الفاكهة او الخضرة ، بينما يلمسها الشاري بيده للتحقق من نضوجها ويتذوق « كم حبة منها » قبل وزنها وتطبيش الميزان . ثم هنالك « صرافة » الربع المجيدي او « البشلك » وهكذا يقتضي للصفقة ربع ساعة على الاقل ... « وهات يا صبر ! »

وكانت العادة السيئة الثانية التي تنهك اعصاب العربجي هي ركوب الاولاد الصغار على مؤخرة العربة ومناداة الناس : « عربجي ورا ... ورا » اي ان وراءه اولادا معلقين بعربته ، فيطلق سوطه عليهم فيصيبهم به ، فيهربون . ثم يأتي غيرهم ، وهكذا ، طول الطريق .

ولم يكن مألوفا ، بل كان عيبا ، ان يركب رب الاسرة مع زوجته وشقيقاته وبناته بعربة واحدة .

وكانت السيدات اذا ركبن العربة ارخين غطاءها (الكبوت) زيادة في منع عيون الناس من رؤية وجوههن . وكان غير ذلك عيبا كذلك .

ولم يكن الرجل يمشي بصف واحد مع زوجته او شقيقته ، بل كان يمشي امامها وهي وراءه بعدة خطوات . واكثر من ذلك كانت الاسر المعروفة لا يمشي رجالها ونساؤها معا ولو على مسافة خطوات . كانوا يسيرون لوحدهم ، ثم تأتي النساء في يوم آخر ، او بعد ساعة . وكان غير ذلك عيبا من العيوب .

حتى في القطار ، لم يكن الرجال يجالسون النساء . فتفرد لهن غرف خاصة بهن .

اما الانتقال من بلدة لاخرى فكان على ظهور الخيول او بالعربات او بالقطار الذي احدث بين دمشق وبيروت في ١٨٩٢ . وكان السفر بينهما قبل ذلك بواسطة العربات الخاصة التي كانت تملكها الشركة الافرنسية ، وتسمى ديلجانس (Delegance)وهي عربة تتسع لثمانية عشر راكبا وتقطع المسافة بين تلك المدينتين بيومين . اما « الحنطور » فكان يقطعها باثنتي عشرة ساعة ، لكن عدد الركاب فيه كان محددا باربعة . وكانت على طول الطريق مراكز لتبديل الجياد او البغال ، وعدد تلك المراكز على ما اظن خمسة عشر بين كل منها عشرة او خمسة كيلومترات ، بنسبة سهولة الطريق بينها . ولم يكن لدى الشركة عربات كثيرة ولذلك لم يكن يتجاوز عدد المسافرين من دمشق يوميا ٢٢ راكبا — عدا الراكبين على الخيل — اي ما يعادل على وجه التقريب عدد المسافرين عندما تمنع الحكومة بدمشق السفر الى لبنان او تقيده على حسب اهوائها .

في تموز ١٩١٢ استقالت الوزارة التركية التي كان يراسها سعيد باشا ، المشهور بلقب « كوجوك » اي الصغير نسبة لصغر جسمه — وذلك لاختلافها مع مجلس النواب او بالاحرى للاتفاق مع الحزب الذي كان مسيطرا على شؤون الدولة منذ الانقلاب الثاني ، وهو الحزب الذي كان يدعى «الاتحاد والترقي». فاستدعى السلطان احد مشاهير قواده العسكريين وهو المشير غازي احمد مختار باشا — وكان لقب الغازي يمنح لكبار القواد الذين يبلون في الحروب . وكان الباشا المشار اليه غير منتسب لحزب الاتحاد والترقي، فشكل وزارته من كبار رجال الدولة ، اي انه لم يعطها الصفة الحزبية ولم يشترك فيها احد من اعضاء حزب الاتحاد . وتألفت الوزارة هكذا : والدي يعين وزيرا

المشير احمد مختار الغازي صدرا اعظم ، الشيخ جمال الدين شيخا للاسلام ، كامل باشا (الصدر السابق) رئيسا لمجلس الشورى ، حسين حلمي باشا (الصدر السابق) ناظرا للعدلية ، فريد باشا (الصدر السابق) ناظرا للداخلية ، الفريق ناظم باشا ناظرا للحربية (وهو الذي قتله جماعة انور باشا فيما بعد) ، الفريق محمود مختار باشا ناظرا للبحرية (وهو نجل الصدر الاعظم) ، محمد فوزي باشا العظم ناظرا للاوقاف (وهو والدي) ، نائل بك ناظرا للمالية . وغيرهم ممن نسيت اسماءهم .

واول عمل سياسي قامت به الحكومة الجديدة كان حل مجلس

النواب والدعوة لانتخابات جديدة . وثار حزب الاتحاد والترقي ضد هذا الموقف واشترك فيما بعد بالانتخابات باكثرية كبرى . وبحث مركزه الرئيسي فكرة احالة الوزارة التي حلت البارلمان الى الديوان العالي (اي المحكمة العليا) لمحاكمتها على خرق الدستور ، على حسب رأيهم . وكادت وزارة طلعت باشا ، خلال الحرب العالمية ، تباشر الاجراءات القانونية لهذه الاحالة للمحاكمة لولا انتهاء الحرب وفشل الدولة العثمانية فيها وهروب سادة الاتحاد والترقى الى خارج البلاد ، حيث تصيدهم الارمن وقتلوهم الواحد تلو الاخر .

كان المألوف في عهـــد العثمانيين ان الوزارة تبقى بالحكم مدة طويلة ، ولذلك بعث والدي يستدعينا جميعا اليه ، فجمعنا امتعتنا بكل ابتهاج وذهبنا الى بيروت حيث ركبنا باخرة نمساوية اوصلتنا الى الاسكندرية . وكانت هذه اول سفرة لي بالبحر ، لا زلت اذكرها بسرور ، اذ انى لم اشك من دوار البحر . وظللت انا وشقيقتي الصغرى نعمت ، رحمها الله ، نجوب اطراف الباخرة ونصعد سلالمها ونركض في مماشيها ، بينما كانت والدتي وعمتاي واختي الكبيرة يجلسن على ظهر الباخرة يتفرجن على البحر وهن ملتحفات بعبآت حريرية مزركشة بالقصب . وكانت رؤسهن مغطاة بمناديل حريرية ملونة تحجّب شعرهن . وكان المسافرون يمرون امامهن ويتفرجون عليهن بكل اعجاب واحترام . وكان بينهم رسام يسعى لالتقاط صورهن بريشته ، فكانت احدى عمتيّ تدير وجهها لتمنعه عن تصويره ، فكان يركض للجهة المقابلة ليحظى بغرضه ، فتدير وجهها ثانية . واخذنا جميعنا نضحك من هذه المناورات البريئة . وعندما وصلنا الى بور سعيد اقترح علينا سعيد بك الغزي ، وكان متوجها بنفس الباخرة الى استنبول لاتمام دراسته في معهد الحقوق ، ان نبارح الباخرة ونتوجه بالقطار الى القاهرة حيث نقضي ليلة ثم نذهب الى الاسكندرية فلم تقبل والدتي ، بحجة ان ابن خالتها ، رفيق بك العظم ، ينتظرنا بالاسكندرية ، وكنا اخبرناه بموعد وصول الباخرة .

وهكذا حرمنا من مشـــاهدة القاهرة بمعالمها قبل الحرب . وسارت بنا الباخرة في المساء ، ولم تكد تخرج من المرفأ حتى اخذت عاصفة هوجاء تقيمها وتقعدها وتميل بها ذات اليمين وذات اليسار ، كأنها قشرة جوز في حوض ماء . ولم يبق احد من الركاب بمنجى من دوار البحر فاستلقى جميعهم على فرشهم . واستمرت العاصفة

حتى الصباح ، عندما دخلنا مرفأ الاسكندرية . وكنا كلما ازدادت وطأة عوارض الدوار نلوم والدتي ونمزح معها قائلين لها : « انت مشتاقة لرؤية ابن خالك .. فرميتنا بهذه الورطـة .. سـامحك الله .. » فكانت تتقبل هذا المزاح بالابتسام وهي تقول: « ما عليش .. فشوا قلبكم . » ولم تذق طعم النوم الا قليلا . وهكذا دامت الحال حتى دخلت الباخرة باحة المرفأ الفسيحة ، فهدأت واستمرت في مسيرها ، حتى مربطها ، بكل تؤدة ووقار ، بعد ان كانت في الليل كالسكران الذي يتهادى بمنة ويسارا ويرتفع وينخفض بدون اتزان .

اول من شاهدناه على الرصيف كـان ابن العم رفيق بك . فتغامزنا نحن الاولاد الثلاثة وقارنا بين نحول المشار اليه وبين الصيت الواسع الذي كان يصحبه بين ابناء العرب . وفي الواقع كان المرحوم رفيق بك العظم احد الرجالات القلائل الذين كانوا يسعون لاستقلال بلادهم وتخليص اخوانهم العرب من النير التركي . بل كان من اولئك الزعماء الذين لم يهب لهم من العمر ما يساعد على التكاتف لحمل الاعباء بعد انتهاء الحرب العالمية ومجيء الامير فيصل الى سورية وبدء عهد الاستقلال .

اخذنا مع ابن العم نجوب شوارع الاسكندرية ونتفرج على معالمها وشوارعها . وقارناها بشوارع دمشق التي كانت حتى ذلك التاريخ ضيقة كما فتحها الاجداد . وبتنا ليلتنا باحد الفنادق المطلة على الساحة الكبيرة . وفي الصبح الباكر امتطينا الباخرة الرومانية فاعجبنا بنظافتها ورونقها ، وبغرفها وبهائها ، وكانت سفرة ممتعة بين الاسكندرية وميناء بيره اليوناني المجاور لمدينة آثينا عاصمة المملكة . ولم تسمح والدتي بنزولنا الى البر للتفرج على المدينة ولا على الذهاب الى آثينا ، فظللنا على ظهر الباخرة . وفي المساء عاودت السفينة السفر الى الاستانة . وصدف عندما كنا نخترق مضيق الدردنل موعد رجوع والدي على ظهر بارجة بحرية عثمانية من رحلة قام بها لزيارة مدينة تركية اصيبت في الاسبوع الماضي بزلزال شديد . وعندما تقاربت الباخرتان ـــ وكان والدي يعلم اننا على ظهر الباخرة ـــ ارسل لنا برقية لاسلكية يستطمن عن صحتنا ، فابلغني قبطـان باخرتنا هذه الاشـارة . فاجتمعنا كلنا على الظهر ورحنا نلوح بايدينا ومحارمنا الى والدي وهو على ظهر البارجة التركية . واخذ هو يلوح لنا بيده . والححت على والدتي ان تطلب اليه ايقاف الباخرتين لكي اذهب لعنده ، فضحك الجميع . وازددت عنادا ورحت

اخبط الارض برجلي ، مما ضاعف ضحكهم الهازىء الى ان توارت البارجة العسكرية عن الانظار ، معتمدة على تفوقها بالسرعة . وظللت ابكي مدة لانهم لم يسمحوا لي بالالتحاق بوالدي . ووعدتهم بالشكوى عليهم والتظلم منهم الى والدي .

وكان والدي ، بعد تسلمه مقام الوزارة ، قد استأجر دارة جميلة في احد احياء المدينة المطلة على مضيق البوسفور يسمى «اورتن كوي» ، اي القرن الوسطى . وكانت تلك الاحياء المتلاصقة، بعضها ببعض ، على طول المضيق من اجمل المصايف العالمية . والدارة كانت مؤلفة من ثلاثة طوابق ، بكل واحد منها ثماني غرف. وقد خصصت ابهاء الطابق الارضي للاستقبال والطعام ، وغرف الطابق الاول للمنامة والثالث للخدم والامتعة . وتحيط بالدارة حديقة واسعة تشرف من علو ثلاثين مترا على قسم من الحي ، ومن ورائه المضيق نفسه ، ومن بعده الاحياء المقابلة المنتشرة على الضفة الثانية ، ومن خلفها جبال تكسوها الاحراج فتكسبها لونا زمرديا بديعا . وتخترق المضيق ، بصورة مستمرة ، القوارب المندفعة بالايدي ، والزوارق الشراعية وذات المحركات ، واليخوت البيضاء البديعة ، والسفن الصغيرة التي تجوب كل حي من احياء المضيق فتنقل الساكنين والمتفرجين ، وكذلك السفن الكبرى القادمة من شواطىء البحر الاسود والذاهبة اليها . وكانت هذه كلها تمر امامنا كما تمر من شارع مدينة ما السيارات الصغيرة والاتوبوسات والدراجات والمشاة .

ولم تقع عيني في رحلاتي العديدة لاكثر البلاد الاوروبية والآسيوية والاميركية والافريقية على مناظر ابهج من مضيق البوسفور ، والبحيرات الايطالية والسويسرية ، وجداول مدينة ونيزيا (البندقية) الايطالية .

وبجانب من جوانب الحديقة انشئت بحرة تحيطها صخور ركبت على الجوانب بشكل بديع . وكان في صدر البحرة مغارة اصطناعية من تلك الصخور يندفع منها الماء بغزارة . ولهذه البحرة قصة لا انساها ، وهي انني كنت ذات يوم العب مع شقيقتي الصغيرة وابن خالتي رفيق في الحديقة . فخطر لي ان ابهر رفاقي باللعبة التي كان اهداني اياها والدي ، وهي باخرة كنا نتسلى بتسييرها على وجه ماء البحرة . ووقف كل منا بناحية من البحرة وصرنا نوجه الباخرة الى ميناء رفيقه . وصدف ان انتهى « الزمبرك » فوقفت الباخرة

قريبا من ميناء شقيقتي. فصرنا نضحك عليها ، مما استفزها لجلب قضيب جربت ان تجر به الباخرة الواقفة في عرض البحرة . وكان القضيب قصيرا ، فكانت النتيجة ان سقطت هي في الماء . وعندما رايتها غاصت ولم يعد يظهر لها اثر تولاني الخوف فقفزت هاربا الى البيت . اما ابن خالتي الذي كان يكبرني بثلاثسنين فلم يفقد اعصابه وظل واقفا حتى شاهد شعر شقيقتي يطوف على وجه الماء فمد يده والتقطه . وحاول رفع الصغيرة من الماء فلم يفلح ، فناداني بان ارجع لعونه فرجعت راكضا وتمكنا نحن الاثنان من انتشال الغريقة بكل صعوبة، غير مدركين اننا كنا نعرضحياتنا للخطر لو انزلقت ارجلنا. وما كدنا ننتهي من عملية الانتشال من الماء ومن القائها على الضفة حتى هرعت الى الدار واختبأت بغرفتي ، بينما كان ابن الخالة يسرع بطلب النجدة . وهكذا نجت شقيقتي من الغرق بفضل وعي ابن خالتها ، لا بفضل اخيها . الا انني ، فيما بعد ، كنت اسكت عن قلة شجاعتي هذه وامنن شقيقتي كلما تخانقنا بانها مدينة لي بالحياة ، وانها لولاي لكانت في خبر كان ، الى آخر ما هنالك من معزوفات التبجح والتمنين بعقلية الاولاد .

وعندما انتهى شهر رمضان وجاء العيد ، طلبت من والدي ان ارافقه في الموكب الرسمي كما كنت افعل بدمشق بمواكب الحج . فاجابني بان الامر اختلف ، واننا لسنا بالشام ، وان المراسم هنا لا تسمح لاحد ان يرافق الوزراء ولا ان يدخل الى السراي . فبكيت وانتحبت حتى تدخلت والدتي فوجدت حلا وسطا ، وهو ان اختبىء في العربة ، وكانت من نوع « الكوبيه » اي المغلقة بسقف والمحاطة بشبابيك وابواب تجعلها كالغرفة . وهكذا ابقى فيها ولا يراني احد ، بينما اتلصص من وراء ستائر الشبابيك واشاهد الموكب . وتقبل والدي هذا الحل لانه لم يكن ليستطيع مخالفة الوالدة ولا يريد زعلي . وهكذا تغلب الحب الابوي ومسايرة الزوجات على دساتير البرتوكول العثماني .

كان برنامج الاحتفال يتضمن اجتماع الوزراء بسراي « طوعه باغجة » حيث كان يقيم السلطان ، وذهابهم بمعيته الى الجامع ، ثم العودة الى السراي حيث يستقبل السلطان المهنئين . وذهبنا بالعربة المغلقة الى باحة السراي . ونزل والدي وبقيت مختفيا فيها . واحكمت الستائر حتى لا يراني احد . وبعد مدة شاهدت نزول السلطان الى باحة السراي ووراءه الوزراء ورجال القصر ، وكلهم بثياب التشريفات

الكبرى ، ذات الصدر المزركش بالقصب . وكانت الاوسمة تلمع على صدورهم والسيوف المدلاة الى جوانبهم تكاد تدخل بين ارجلهم فتوقعهم ارضا ، كلما تشابكت مع اطراف الشرائط الحريرية المعلقة بها بعض الاوسمة . وكانت هذه الشرائط تختلف الوانا بحسب الاوسمة ، اذ كان الوسام الاعلى شأنا هو وسام « خاندان آل عثمان » ولا يمنح الا لافراد الاسرة المالكة ، ولخديو مصر ، ولبعض الملوك الاجانب ، وهو مؤلف من حلقات ذهبية مرصعة بالماس تحيط بالرتبة وتتدلى حتى منتصف الصدر .

ويلي هذا الوسام وسام الامتياز ، وله وشاح اخضر واحمر ورصيعة توضع على الجانب الايسر باعلى الصدر وهي مرصعة بالماس والزمرد والياقوت واللؤلؤ . وتقدر قيمة هذه المجوهرات بخمسة الاف ليرة ذهبية . ويليه الوسام العثماني ، ووشاحه اخضر في الوسط ، وله كناران من اللون الاحمر ، وهو خمس درجات : المرصع والاول والثاني والثالث والرابع . ويأتي بعده الوسام المجيدي ، ووشاحه احمر في الوسط ، وله كناران من اللون الاخضر ، وهو ست درجات : المرصع ثم الاول حتى الخامس .

والى جانب هذه الاوسمة التي كان يفتخر بحملها اصحابها كانت ثمة اوسمة اجنبية مهداة في شتى المناسبات . وهكذا كانت صدور بعض كبار رجال الدولة مزينة بمجموع الاوسمة التي ينالها صاحبها ، بحيث تكاد تشبه لكثرتها واجهة مخزن مجوهراتي اكثر منها صدر رجل دولة مدني . وقد احصيت عدد هذه الاوسمة على صدور بعض هؤلاء الوزراء فوصلت بالعدد الى العشرين . واظنني اخطأت العد ، اذ كان في الواقع اكثر من ذلك .

وتألف الموكب من الفرسان ، حاملي الاعلام الصغيرة من مختلف القطع العسكرية . ثم تأتي عربة السلطان ويجرها اربعة جياد بيض ، ويمسك براس كل واحد منها سائس مزركش الثياب . ويحيط بالعربة بعض رجال الجيش من رتبة لواء وفريق . وكان يركب امام السلطان ، ضمن العربة المكشوفة ، احد كبار المرافقين ، على ان لا تقل رتبته عن فريق .

ويسير وراء العربة طائفة من الفرسان ايضا . ثم تأتي عربات الصدر اعظم ، وشيخ الاسلام ، والوزراء ، ورجال القصر . ويبلغ عدد هذه العربات المئة واكثر . ويسير الموكب بين صفوف المتفرجين ، وامامهم الجنود رافعين البنادق بالتحية ، فيجيبهم السلطان مسلما

بيده ، فتنطلق من الحناجر عبارة « بادشاهم جوق يشا » ، اي عش كثيرا يا مليكي ، الى ان يصل الموكب الى الجامع حيث ينزل الملك من عربته فتستقبله الهيآت الدينية . ويدخل المسجد ، ولكنه بدلا من ان يجلس بين المصلين ، كان ينزوي بمقصورة خاصة تشرف من وراء شبكة على فسحة الجامع من عل ، بحيث لا يرى المصلون سلطانهم وامير المؤمنين على الاطلاق . وقد تمكنت ، عند زيارتي للاستانة في ١٩٣٤ ، من زيارة جامع ييلديز ومشاهدة مقصورة السلطان ، فوجدتها بهوا واسعا يطل من جهة واحدة ، ومن وراء شبكة حديدية ، على الجامع . وفي هذا البهو مقاعد وثيرة ، لان السلطان كان يستدعى بعض كبار رجال الدولة والسفراء لمقصورته ويتحدث اليهم ، سواء في الاعياد او ايام الجمعة .

وقد ابتدع هذه العادة السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يخشى الاختلاط مع رعيته ، خوفا على حياته . وقد زاد تخوفه بعد محاولة اغتياله بوضع قنبلة موقوتة في احدى عربات الموكب فانفجرت قبل ان يصل السلطان الى عربته بلحظات . اذ انه بعد ان خرج من باب المسجد توقف قليلا مع شيخ الاسلام وتحادث معه بامر ما ، فانفجرت القنبلة بدوي هائل وتطايرت اشلاء القتلى في الهواء وتساقط الجرحى على الارض . ولم يفقد السلطان اعصابه بل هرول من اعلى الدرج وصعد الى مركبته الخاصة التي كان يقودها بنفسه وامسك بزمام الخيل واطلق عنانها مارا فوق الاشلاء سرعة ، ودخل سراية بيلدز وتحصن بها.ثم اثبت التحقيق ان طائفة من الارمن كانوا مدبري المؤامرة ، فالقى القبض عليهم وحوكموا وعلقت مشانقهم بساحة ذلك المسجد .

وظللت مختبئا داخل المركبة . وقد زال فرحي وانشراحي بما رواه لي السائق من حديث تلك المؤامرة وانفجار القنبلة بالمحل الذي كانت به مركبتنا . فانتقمت من السائق قائلا له : ان السائق (العربجي) طار قبل غيره . واذا حدث اليوم انفجار مماثل فمصيرك كمصيره . فضحك وقال ان سلطاننا السلطان رشاد محبوب وليس له اعداء . فلا تخف . وهكذا خف ذعري وهدات .

وبعد انتهاء فرائض الصلاة استقبل السلطان والدي بصفته وزير الاوقاف ومشرفا ، بالتالي ، على شؤون المساجد . وتلطف معه بالحديث ، ثم اخذ طريقه الى الباب حيث شيعه رجال الدين . وامتطى مركبته وعاد الموكب بالمراسم نفسها الى السراي .

وابتدأت بعد ذلك مراسم التهنئة ، وقد رواها لي والدي فيما بعد. وكان الخدم يقدمون الشراب غير الروحي ، طبعا ، مع انواع السكاكر والحلوى . وهؤلاء كانوا كلهم عبيدا سودا يرتدون الالبسة المزركشة بالقصب والمؤلفة من سروال عريض وفوقه معطف قصير .

وفي الوقت الذي كان السلطان يستقبل في بهو قصره الكبير ، كانت المراسم نفسها تقام في قسم الحرملك ، حيث زوجة السلطان (ياسين قادين افندي ، اي الزوجة الاولى) ، وبنات السلطان ، يستقبلن سائر الاميرات وزوجات الوزراء والكبراء . وبالطبع كانت السيدات ينتهزن هذه الفرصة لارتداء اجمل الثياب وتعليق التيجان المرصعة بالماس والزمرد والياقوت واللؤلؤ على رؤسهن ، فوق نوع من لباس الراس المؤلف من التول الرقيق ويسمى « هوتوز » . اما الاعناق والصدور فكانت عامرة باجمل قطع المجوهرات ، من عقود لؤلؤية او ماسية ، ومن الاوسمة المرصعة الخاصة بالسيدات مع وشاحاتها البيضاء ذات الكنار الاحمر والاخضر ، ولها خمس رتب . واما الاذن ، فتتدلى منها عناقيد ثمينة من اللؤلؤ او الزمرد . وكذلك المعاصم والزنود ، فتحمل الاوزان الثقيلة من الاساور الذهبية والمرصعة .

وكانت المراسيم تقضي بان لا يدير احد ظهره الى السلطان وهو يبتعد عنه . وكذلك كانت المراسم توجب على السيدات ان يرجعن الى الوراء عندما يبتعدن عن « الزوجة الاولى » .وكثيرا ما كانت السيدات يتعثرن بذيول لباسهن الطويلة ويوشكن الوقوع على الارض . ولذلك كن يتمرن قبل الحفلة في بيوتهن على خطوات الرجوع حتى يتقنها فيتحاشين ضحكات المزاح او الاستهزاء التي تطلقها سائر السيدات الصديقات او العدوات . وبالطبع امضت والدتي وعمتاي واختي الكبرى اوقاتا طويلة في التهيؤ لحضور هذه الحفلة ، سواء بعملية التجميل او بعملية التمرن . ولم تكن قواعد التجميل في ذلك العهد اقل دقة وعناية مما هي عليه الآن . فالبودرة والدزكن (وهو سائل ابيض تطلى به الوجوه ليزيد بياضهـا) والكحل . اما حمرة الشفاه ، فلم تكن معروفة اذ ذاك . وكان الشعر طويلا غير مقصوص ، وبذلك كانت النساء يتمكن من رفعه عاليا على رؤوسهن بدون حاجة الى نفخه كما يفعلن الآن . واما الثياب الرسمية للسهرات والاحتفالات فكانت من البروكار الغالي الثمن، تصل اطرافها السفلى الى الارض وينسحب عليها . وهي ذات « شاحط » ، اي ذيل طويل

يلم جميع الاقذار والاوساخ والغبار عن الارض . وكانت الاكمام تصل حتى الايدي . وعلى الاجمال ، لم يكن اللباس النسائي يظهر من المراة الا عنقها وصدرها ، ولكنه كان يظهر مفاتن خصرها بالمشد (الكورسه) ذي القضبان المصنوعة من الحديد او عظام الحيتان . فكانت السيدات تشده وتسترسل في شده حتى ترتفع معدتها مع سائر اعضاء بطنها الى صدرها فتتحمل ضيق النفس لتظهر خصرها نحيلا جدابا . وتحت الخصر كانت تظهر ارداف عريضة ممتلئة . كان كل ذلك تمشيا مع الذوق العام الذي اوجب على المراة السمنة لكي تعتبر ذات جسم محبب . وكانت النساء النحيلات يوصمن بانهم « ممصوصات » لا يستجلبن الانظار ، بعكس اللاتي يشبهن « رفيعة خانم » المصرية التي كانت تعتبر مثال الانوثة الجذاب . ولم يكن ذلك في بلادنا فقط بل كان ايضا في اوروبا وامريكا .

ومن المشاهد التي لا تزال عالقة في مخيلتي زيارة قمنا بها ، بناء على توصية خالتي المقيمة بالاستانة هي وزوجها واولادها ، لجامع كائن في الاحيـاء القديمة حيث يوجد مدفن احـد الرجالات الصالحين الذين يطلق عليهم الناس لقب الاولياء وهو مركز افندي . ولم يكن للمسجد طابع خاص يستوجب زيارة خاصة سوى نبع الماء الجوفي المتصل بالمسجد بنفق ضيق لا يتسع لمرور اكثر من شخص واحد . واخذ كل منا شمعة ليستضيء بنورها ضمن النفق الذي يمتد اكثر من مئة متر باعوجاجات متعددة . وسرنا خلف قائدتنا الشيخة ونحن نردد الادعية والآيات التي كانت تقرآها هي ، حتى وصلنا الى مغارة فسيحة نوعا ما،فاشارت الى ثغرة في احد جدران المغارة وقالت لنا : « انحنوا وادخلوا الى المنبع واشربوا من مائه وتوضئوا واجلبوا معكم بحصة من الحصات التي تجدونها في البركة » . وصار كل واحد منا يدخل ويخرج بدوره ، اذ ان المغارة الداخلية ذات النبع ما كانت لتتسع لاكثر من شخص واحد . وكان النور يلج اليها عبر الصخور من طاقة عالية جدا في سقفها، لا تتجاوز قطرها نصف متر .

اما الطاقة التي ولجنا منها الى النبع فكان قطرها ايضا لا يتجاوز ستين او سبعين سانتيمترا ، مما اضطرنا الى القيام بحركات جمنا ستيكية لنستطيع عبورها . ولا انكر ان قلبي كان يخفق بسرعة من الرهبة والتخوف . ولما جاء دوري دخلت وشربت من الماء العذب

وانتقيت اكبر بحصة لماعة وخرجت بها ظافرا . ولما جاء دور احدى عمتيّ ، حالت سمنتها من الدخول بسهولة عبر الطاقة فاستعصى عليها الامر وعلقت بين المغارتين وراحت تصرخ وتولول وتبكي حتى اسرعنا لنجدتها . وسعينا لدفعها الى داخـل مغارة النبع ، الا انها صرخت قائلـة : « اسـتغنيت عن الدخول ... من شـان الله اسحبوني ». فجررناها الى الخلف بصعوبة، فجلست ارضا وراحت تقرأ الاوراد والادعية لخلاصها من هذه الورطة . ولولا رهبة المكان وما كان عالقا بذهني من اننا في مقام ديني مقدس ، لتغلبت علي رغبة الضحك على ما جرى ، كلما تصورت عمتي نصفها هنا ونصفها هنالك ، وفخذها الواحدة عندنا والاخرى في المغارة الصغيرة،وظهرها منحن ورأسها غير ظاهر . وقد اثر هذا الحادث على اعصاب عمتي المسكينة لدرجة انها عندما آوت الى فراشها ليلا اصابتها نوبة عصبية ، فصارت تهذي بشكل مخيف حتى اضطررنا الى استدعـاء طبيب جرعها بعض العلاجات فهدأت ونامت ساعات عديدة . وزال بذلك خوفنا عليها من نتائج الصدمة التي تلقتها .

وبقي في نفسي سؤال لم استطع الا طرحه على والدتي ، وهو ان زوار مغارة النبعكثيرون، فاذا أخذ كل واحد بحصة منه فلا يبقى شيء فمن اين يأتي البحص الجديد ؟ فأجابتني بابتسامة خفيفة ان بركة مركز افندي تؤمن عدم نضوب الينبوع وبحصه . وما كانت هي ، ولا كنت انا ، لاصدق هذه الخرافات . فقلت لها انني اميل الى اسناد هذا الامر الى غيرة حراس المغارة من المشايخ الذين دفعنا لهم البخاشيش عند خروجنا وحرصهم على ان يجد الزوار دوما العدد الكافي من البحصات المباركة ، فلا يخرج احدهم الا ويده قابضة على ما يعتبره حرزا حريزا يضمن له الصحة والهناء وكل ما يشتهيه في هذه الدنيا .

دراستي في استانبول

وعندما اقترب فتح المدارس اخذني والدي الى مدرسة « غلطة سراي » ، وهي ارقى المعاهد التركية ،تشرف عليها هيئة من المعلمين الافرنسيين ، بحيث تكون الدراسة باللغـة الافرنسيـه مع اعطاء الدروس باللغة التركية لوحدها . واستقبـل المدير والدي باحترام واستدعى بعـض المعـلمين لفحصي واستجـلاء درجتي العلميـة واللغوية . ثم اشاروا بتسجيلي في الصف الاول للغة التركية ، لاني لم اكن اعرفها . اما الدراسة العادية فسجلوني في الصف الثالث .

وعندما حان موعد بدء الدروس ، صرت اذهب في الصباح الباكر من دارتنا في اروقة كوي الى المرفأ ، حيث نركب احدى البواخر الصغيرة العاملة بين غلطه وساحلي البوسفور ، فنصل الى جسر غلطة بعد ساعة . ثم نركب القاطرة التي تصعد من غلطة الى اول شارع « يك اوغلي » . وهذه القاطرة كان يسحبها قشاط سميك وعريض من الجلد ، فترتفع على عجلاتها الحديدية فوق قضبان تشبه قضبان السكك الحديدية حتي تصل الى المحطة العليا ، بينما تكون القاطرة الثانية تنزل بمحاذاتها من المحطة العليا الى المحطة السفلى. كان كل هذا الجهاز يشبه قطر « المترو » التي تسير تحت الارض في بعض العواصم ، كبرلين وباريز ولندن ونيويورك . الا ان المسافة لم تكن طويلة ، ، واجتيازها لا يأخذ اكثر من خمس دقائق . ومن هنالك كنا نركب حـافلات الترامواي التى لم تكن عندئذ مسيرة بمحركات كهربائية ، بل كانت تجرها ثلاثة جياد او بغال .

وهكذا كنا نقضي ساعة من الزمن حتى نصل الى مدرسة غلطة سراي . وكنا في اكثر الاوقات نتجنب ركوب البواخر البحرية ونركب الترامواي من اورطه كوي حتى غلطه ، خوفا من الامواج الشديدة التي كانت تهز الباخرة ، فنتحمل البرد والمطر ونحن في الحـافلات المفتوحة الجوانب ، تحاشيا من مخاطر البحر . وعلى هذا الشكل كنت مضطرا لمغادرة الدار قبل الفجر حتى اصل الى المدرسة ساعة افتتاح الصفوف . وكنت اعاني البرد والتعب كثيرا ، مما اضطر والدي الى التفكير بالانتقال الى حي قريب من المدرسة ، فيخف عني عناء الذهاب الى المدرسة والعودة منها ، بتلك الظروف القاسية . وهكذا استأجرنا دارا في حي شيشلي ، كان مؤلفا من خمسة طوابق ، بكل منها غرفتان فقط ، مما جعل السكنى فيه عسيرا .

وكنت في الصباح اذهب الى المدرسة ، اما برفقة اولاد حسين حلمي باشا بمركبتهم او بالترامواي . اما برنامج الدروس فكان قبل الظهر بالافرنسية وبعد الظهر بالتركية . وكان تناول طعام الظهر بالمدرسة نفسها . ولم يكن الغذاء سيئا ، وخاصة ايام الاحاد ، حين كانت تقدم لنا الفاصوليا اليابسة مع الارز ، وكنت مولعا — ومـا زلت — بهذه الاكلة . اما الحلويات فكانت نوعا طيبا .

وقد حدث لي في احد الايام ان عوينات التلميذ الجالس خلفي

وقعت على الارض وانكسرت الزجاجة ، فالتقطت احدى شظاياها ووضعتها امام عيني . ولشد ما كان ذهولي حين تمكنت من قراءة الجمل المكتوبة على اللوح الاسود ، وكنت لا اتميزها واظن ان رفاقي مثلي لا يرونها . والان فبفضل قطعة من الزجاج اقرا بوضوح. فجلت بنظري في قاعة الصف الى رفاقي والى الاستاذ ، فاخرجني عن طوري مشاهدة اعينهم وانوفهم وآذانهم . ولا يدرك قيمة هذه المشاهدة الا من كان مصابا بقصر النظر (Myope) مثلي. ويظهر ان الاستاذ انتبه الى حركاتي غير الطبيعية وانا ممسك قطعة الزجاج وابحلق بوجهه ، فظن اني اسخر منه . وسألني عن اسباب تلك الحركات . ولم يصدقني حين اكدت له الامر الواقع ، وامرني بالذهاب الى قرنة الغرفة والوقوف فيها مديرا ظهري الى الصف . ولم اكن استحق تلك العقوبة فبكيت وسكت على مضض .

اصابني بقصر النظر

وعندما عدت مساء الى الدار ، اسرعت الى اخبار والدي بما حدث ، وقلت له : « ارجوك ، اشتر لي عيون » . فضحك ووعدني بتحقيق امنيتي في الغد الباكر . وبالفعل ، قادني في اليوم التالي الى طبيب عيون ففحص عيني ووصف لي العوينات الملائمة . فأصبحت منذ ذلك اليوم صحيح النظر . وفيما بعد ، عندما غدوت شابا كنت ازهو بعويناتي ذات الاطار الذهبي والمعلقة على انفي برفاصين ضاغطين لم يكن ميسورا تثبيتها جيدا ، بحيث كانت بأول حركة مفاجئة تسقط الى الارض فينكسر زجاجها ؛ فأركض الى بائع العوينات لاستبدالها بغيرها . وكثير من الشبان كانوا يضعون على انوفهم نظارات ، مع ان عيونهم صحيحة ! ويظهر ان السيدات والآنسات في ذلك العهد كان يستهويهن الشارب المعقوف والنظارات الذهبية .

ولم يطل بنا المقام في دارنا الجديدة بشيشلى . فقد عاد والدي ذات مساء ، مقطب الجبين على غير عادته . ولم يشأ اخبارنا عن سبب انزعاجه ، ولكنه افضى لوالدتي على انفراد بأن الدول البلقانية ، وهي بلغاريا وصربيا واليونان وقره طاغ ، اعلنت الحرب على الدولة العثمانية ، وان جيوشها دخلت اراضينا . ولم يكن عمري قد اعدني بعد لتفهم هذه المشاكل جيدا ، غير انني شعرت بانقباض صدري وخفت من العواقب . اما والدتي فكان همها استطلاع اخبار اخيها اليوزباشي ممدوح بك وزوجته وولديه الذين

اندلاع حرب البلقان وعودتنا الى دمشق

كانوا ، بحسب مقتضيات وظيفة خالي في الجيش ، يقطنون بلد ايشتب في الروم ايللي . ولم يطل وجلها طويلا ، اذ تراجعت الجيوش العثمانية وعادت عائلات الضباط الى استانبول. وفرحت بلقاء بنت خالي رفيقه التيكانت رفيقتي في طفولتي بدمشق، قبل ذهابها مع ابيها وامها الى الروم ايللي . ونسيت الحرب وخوفي منها ورحنـا نقضي السهرات باللعب وتبادل الحكايا . وظلت صداقتنا متينة حتى الان . وقد تزوجت من دولة نصوح بك البخاري وانجبت منه اولادا .

وبعد مضي وقت لا يتجاوز الشهر بدانا نسمع قصف المدافع ، فعاودتنا المخاوف ، اذ كانت الجيوش البلغارية قد وصلت الى مقربة من الاستانة واصطدمت بخط الدفاع الذي كان الجيش العثماني تمكن من اقامته في حتـالجه .

وذات مساء عاد والدي اكثر اضطرابا من اي يوم اخر ودخل توا الى غرفته مع والدتي واعلمها بأن الحكومة ، بعد ان تيقنت من عدم جدوى الحرب ومن سوء العـاقبة اذا ما استمرت بها ، بحثت في امكان طلب عقد هدنة مع بلغاريا . ولما علم الضباط المهوسون من جماعة الاتحاد والترقي ، وعلى راسهم انور بك بطل الانقلاب في ١٩٠٨ ، دفعوا طـلاب الجامعة وسـائر المدارس للقيام بمظاهرات صاخبة هاجمت « الباب العالي » ، اي مقـر الصدر الاعظم ووزير الخارجية ، وهم ينادون « حرب ايسترز » اي نريد الحرب . وكانوا يعلنون عن سخطهم على الحكومة التي تميل الى المهادنة بايجاد تسوية مع الدول البلقانية تفاديا لحرب قد تقضي على الدولة العثمانية او ، على الاقل ، تقضي عليها بضياع بلاد الروم ايللى . وكان وزير الحربية ناظم باشا اكثر الناس اطلاعا على قوة الجيش العثماني وعلى انه غير قادر على مواجهة الاعداء على طول الحدود التي تمتد اكثر من الف كيلومتر . وعندما وجـدت الحكومة نفسها مضطرة للحرب على الجبهتين الداخلية والخارجيـة رجحت الاستقالة . وكلف السلطان كامـل باشا بتاليف وزارة جديدة ، فتم ذلك بساعات قليلة ، نظرا للموقف الحرج . ولم يدع والدي للاشتراك بالحكومة الجديدة ، ولذلك قرر ان نعود كلنا الى سورية في اليوم التالي على ظهر باخرة افرنسية . اما هو فيعود بطريق البر ، وذلك خوفا من ان يقع اسيرا بأيدي اليونانيين الذين كانت بوارجهم الحربية توقف كل باخرة قادمة الى تركيا او خارجة من احد مرافئها ، فيقبضون على من هم في سن الجندية وعلى من

يرون اخذهم من رعايا الدولة العثمانية باعتبارهم من الاعداء .

وقد شق علينا جميعا هذه العودة المباغتة الى دمشق ، بعد ان كنا نظن اننا سنبقى في استانبول سنين عديدة . وزاد في عدم الارتياح فراقنا عن الوالد وخوفنا من اساطيل اليونان . الا ان والدي لم يتزعزع عن قراره ، فخضعنا لمشيئتـه ، لا سيما ان اصوات المدافع كانت تسمع بوضوح ، مما جعلنا نتخوف من الوقوع بايدي الجنود البلغاريين ، فيما اذا توصلوا الى احتلال العاصمة .

ولم تمض بضع ساعات حتى كانت جميع حوائجنا في الصناديق ، مهيأة للشحن . ولم يبق في البيت ما يؤمن مبيتنا ، فلجأنا لدار ابن عمة والدي ، السيد بديع بك المؤيد العظم الذي كان موظفا في ادارة الديون العمومية . وقضينا الليلة عنده .

وفي الصباح توجهنا الى المرفأ وصعدنا سلم الباخرة . واجتمع والدي ومعه بديع بك مع ربانها واوصياه بنا . وعندما علم الربان سبب عزوف والدي عن مرافقتنا اكد له واقسم بشرفه انه يضمن عدم حدوث اية اساءة لوالدي ، وانه سيسجله باسم بديع بك المؤيد . فنزل والدي عند الحاحنا وظل في الباخرة التي اقلعت بعد قليل ، بعد ان سجل اسمه مستعيرا اسم ابن عمه . ووضع والدي بطاقة على احد المقاعد التي كان المسافرون يستأجرونها ليستلقوا عليها فوق ظهر الباخرة . كان ذلك زيادة منه في الحرص على اخفاء هويته ، حتى عن جميع الركاب ونوتية الباخرة وخدامها .

سقى الله تلك الايام التي كان بها الانسان يسافر بغتة بدون جواز سفر وسمات خروج وغيرها من المعاملات التي تزهق الروح بشدتها وصعوبة انجازها . صحيح اننا كنا مسافرين من استانبول الى بيروت ، اي من بلد عثماني الى بلد عثماني . ولكن الحال كان على نفس النمط ، حتى بشأن السفر الى البلاد الاجنبية . فكان الانسان يتنقل بين جميع البلاد دون ان يسأله احد الى اين هو ذاهب ، ودون ان يفتح له صناديقه ويبعثر له ثيابه باسم التفتيش عن المهربات او باسم الجمارك ، ودون ان يحاول معرفة مبلغ النقود التي يحملها معه . كانت الحرية كاملة حينذاك في التنقل ونقل الاموال واستيراد الحوائج . فأين تلك الايام مما نحن فيه اليوم . وصدف ان قصدت الذهاب هذا العام ١٩٥٩ الى « الحمه » وهي تابعة لنا . فاستحصلت على اذن رسمي من رئاسة الاركان العامة حسب الاصول . وقد اوقفنا اثنتي عشرة مرة في الذهاب والرجوع ، لاظهار

الاذن والهويات الشخصية .

وغادرنا الاستانة والاسى ملء ضلوعنا ، ليس اسفا على فراق مدينة جميلة سررت بوجودي فيها كثيرا فحسب ، بل شعورا منا ايضا بأننا نترك هذه العاصمة المسكينة بأشد ايام محنتها ، والاعداء على قاب قوس منها يرسلون الفوج تلو الفوج لاحتلالها واعادة وضعها الى ما كانت عليه ايام بيزنطية . وكان والدي اشدنا حزنا وحسرة . وقد ظل واقفا على ظهر الباخرة ينظر الى معالم المدينة تمر امامنا بمساجدها ذات القبب المتعددة والمآذن المسرولة ، وبجسرها الذي يعج بالمتنقلين بين ضفتي الخليج ، وبدورها الخشبية المتلاصقة تلاصق الناس ، بعضها ببعض ، يوم زحمة . ثم بمضيقها الذي تشق مياهه الزرقاء تلال الضفتين الخضراء ، وجزره الصغيرة الممتدة على طريق المسافر من استانبول وكأنها اولاد صغار يتبعون القطار عندما يغادر المحطة .

وفي اليوم التالي كنت اتناول طعام الغداء مع والدي في بهو الطعام ، واذ بالباخرة تتوقف . فهرعنا الى النوافذ ، فرأينا ثلاث بارجات حربية تيقنا انها يونانية . وشاهدنا زورقا يتجه من احدها الى باخرتنا . ولم يتحرك والدي من محله ، وظل يتناول طعامه ، كأن خطرا لم يهدده . فجلست امامه وتظاهرت بالتجلد . لكني كنت اشعر بخفقان قلبي وبامتقاع لوني . فأشار علي ابي بأن اهدأ ، فعاودت الاكل لكن دون تمييز بين الحلو منــه والمر . وبعد نصف ساعة تقريبا ، تحركت الباخرة فقفزت ثانية الى النافذة . كنت انظر هذه المرة بسرور الى ابتعادنا عن قافلة المدمرات العدوة . وبعد قليل ، جاء الربان وصافح والدي واكد له انها المرة الاولى التي يعطى معلومات غير صحيحة عن شخصية ركاب باخرته ، وذلك حفاظا على سلامة ابي . الا انه اضطر لتسليم ثلاثة جنــود اتراك، فأخذهم اليونان اسرى حرب .

وكان ابتهاجي شديدا ، بحيث لم استطع اخفاءه . فهرولت الى حيث كانت والدتي وسائر افراد العائلة يقبعن في غرفهن تجنبا لمجالسة الرجال ، ونقلت اليهن بشرى زوال الخطر .

وانتهت رحلتنا بسلام . فوصلنا الى بيروت التي كنا غادرناها قبل ثلاثة اشــهر .

ذكرت ان والدي اعتاد على قضاء فصل الصيف في دارتنا بدمر ، التي انشأها في ١٩٠٠ . وكان يفضل ذلك لانه كان حتى ١٩١٢ يشغل وظائف بدمشق لا تسمح له بالابتعاد عنها . وكانت دمر تؤمن له ، بسبب قربها من المدينة ، قضاء الليل بعيدا عن حر دمشق ومع اسرته . لكنه عندما اصبح نائبا في مجلس المبعوثان ، بدأ يفكر بتمضية الصيف في ربوع لبنان . وهكذا كنا ننتقل ، كل سنة ، من مصيف الى اخر . فصيف ١٩١١ قضيناه في سوق الغرب ، و ١٩١٣ في المعلقة بلبنان . لكننا ، بعد انفجار الحرب العالمية الاولى ومصادرة دارتنا بدمر طيلة الحرب ، بقينا بدمشق . اما في صيف ١٩١٨ فذهبنا الى المتـــين .

وما بقي عالقا بفكري من مصيفنـــا في المعلقة هو مشاهدتي تمثيلية (اليتيمتين) . وقد اشترك فيها كل من الاستاذ السيد سلامة حجازي والسيد جورج ابيض . كان الاول في اوج مجده الفني ، يطلق اغنياته الشهيرة فيثير حماس المتفرجين المنقطع النظير . وكان الفصل لا ينتهي حتى يصر الشعب على سماع « اجوليت ما هذا السكوت » ، او « ان كنت في الجيش ادعى صاحب العلم فانني بهواكم صاحب الالم » .

ويستطيع من سمع هاتين القصيدتين ينشدهما الشيخ سلامة حجازي ان يقارن بين الذوق الموسيقى ، قبل خمسين عاما ، وبينه الان يجري على لسان عبد الحليم حافظ. اما الموسيقى الآلية ، فالفرق لا يخفى على العيون والآذان بين التخت المكون عند ذلك من عود وكمنجة وقانون ودف ودربكة ، وبين الفريق المكون الان من عـــدد عديد من الالات القديمة كالتي ذكرت ومن الالات التي ادخلت حديثا كالبيانو وانواع الكمنجة والالات التي يستعمل فيها نفخ الهواء . واني اعتقد ان الموسيقى العربية قد ارتفعت سوية وتحسنت عن ذي قبل كثيرا . اما الغناء ، فبعد ان مر في دور مستطاب على يد عبد الوهاب وام كلثوم ، فقد انحط الان بفضل عبد الحليم حافظ وامثاله ، عدا ما يجري على حنجرة شكوكو واضرابه ، وخاصة من حيث الاغاني نفسها التي اصبحت ، بالنسبة الى المغني العربي ، كلوحات بيكاسو بالنسبة الى الرسم .

اما التمثيل فلا اظن انه تقدم شوطا كبيرا . وقد كتب لي ان اشاهد كبار الممثلين المصـــريين كيوسف وهبي وجورج ابيض والريحاني وغيرهم ، وكبريات الممثـــلات كفاطمة رشدي وروز

اليوسف وغيرهما ، فلم اشعر بالاعجاب مثلي حينما كنت اشاهد تمثيلية جوق افرنسي مثلا . وقــد قضيت ليالي عديدة بمسارح القاهرة وباريز . واقول والاسف مــلء مشاعري ، ان المقارنة مستحيلة . ولست ادري على من يستطاع القاء التبعة في بطء التمثيل المسرحي والسينمائي ، اعلى الممثلين او المخرجين او المؤلفين ؟ والشعب ليس مسؤولا ، فهو يسهم ، خاصة في السينما ، اسهاما ماليا كبيرا في تسديد نفقات الاخراج والتصــوير واتعاب الممثلين وارباحهم . افلا يستحق المتفرج العربي عناية اكبر ، من قبل العاملين في هــذا الحقــل ؟

ولنعــد الآن الى سيــاق بحثنا عــى المصايف ، فاذكر بأننا دعينا ، خلال اقامتنا في المعلقة ، لقضاء بضع ايام عند اسرة المرحوم عمي خليل باشا في بلودان . وقد ركبنا القطار قبيل الظهر ووصلنا الى الرياق ، حيث كان ثمة مطعم يقصده قليل من المسافرين . اما الاخرون ، ونحن منهم ، فكانوا يكتفون بـ « الزوادة » المؤلفة على الاغلب من « كفته » وبطاطا وبيض مقلي وزيتون اخضر وفاكهة الموســم ، من عنب وتــين وبطيخ . ووصلنا قبيل العصر الى الزبداني ، فاستقبلنا مضيفونا واخذونا الى خارج المحطة ، حيث وقف رتل من الحمير المختلفة الحجم واللون .. والطبع . فامتطى كل منا دابة اختارها بعد الاتكال على الله ؛ وسار الكل كأنه يعرف الطريق بدون دليل . وعندما بدأنا بتسلق جبل بلودان لمسنا خطــر واسطة النقل هذه : فكانت الدواب لا تمشي الا على حافة الطريق ، اي بمحاذاة الوديان . فكان يكفي تعثر احدى ارجل الدابة لتهوي هي وراكبها الى اسفل الوادي . اما الســرج فكان بدائيا بدون « ركابه » . ولم يكن بيد الراكب سوى حبل يشد به راس الدابة وغصن يضربها به ليحثها على السير . وكثيرا ما كانت الدابة تجنح الى جانب شجيرة لالتهام اوراقها ، فكنا نلجأ الى الصبر والانتظار خشية من زعلها . وكانت المواقف تشتد خطورة عندما تشاهد نباتا ارضيا زمردي اللون ، فتمد عنقها وتنهش منه ، بينما يبذل الراكب كل جهده للاحتفاظ بتوازنه على السرج الذي كثيرا ما كان يميل الى الامام او يتهادى يمنة ويسرى . فكان السقوط عن ظهر الدابة كثير الحدوث ومثيرا للضحك اذا كانت السقطة بسيطة . وكان نصيبي من مغادرة ظهر دابتي وافرا . وكان الكل يهرع لاعادتي الا شقيقتي الصغرى التي كانت لا تخفي شماتتها ، اذ انها انصــاعت لقول

الوالدة واعتلت معها حمارا واحـــــدا . اما انا فلم اتقبل النصح وظننتني فارسا مغوارا . وكانت النتيجة اربعة جروح في رجلي ، لا تزال آثارها حتى الان بادية ، رغما عن قطن الصفصاف ومرهم القطرون وهما العلاج الذي اصرت والدتي على تطبيقه ، حسبما كان وصلت اليه حينئذ معلوماتها الطبـــية ــ رحمها الله رحمة واســـــعة .

اما بلودان،مصيف دمشق،ذات الفندق الكبير والكازينو الرائع والدارات البديعة والشوارع العريضة والمنتزهات الجميلة الان ، لم تكن في ذلك العام الا قرية كسائر القرى السورية ــ بيوتها ، حيث يسكن المصطافون ، قذرة ذات غرفتين وايوان ، سقوفها من اغصان الاشجار واوراقه تعشش فيها الحرادين والافاعي ، وارضها من التراب الذي تثير غباره كل خطوة .. لا حمام ولا بيت راحة سوى «خشة» بعيدة في اخر البستان او الحديقة التي تحيط بالدار ، كانت مصنوعة من الخشب او الواح القصدير ، وكان بابها من القماش بدلا عن الخشب . وكانت الريح تتقاذفها ، اما عن الروائح فلا تسل!

واني لاشهد باننا كنا قنوعين جدا بطراز حياتنا . فكان القليل يرضينا ، والتقشف الطبيعي يكفينا . اما الان ، فلم يعد يرضي الجيل الجديد الا الاستماع الى الراديو ، ومشـــاهدة التلفزيون والسينما ، وركوب افخر انواع السيارات والطائرات ، والسكنى في بيوت تعمر بافخر انواع الرياش ــ طراز لويس الخامس عشر او السادس عشر ــ ولم يعد يستعمل الا احدث مستحضرات ماكس فاكتور وعطورات غزلان وسواها من عطورات باريز ، ولا يلبس الا اخر موديلات كريستيان ديور وجاك فات ولا يتزين الا بالمجوهـــرات الكريمة ذات القراريط العشـــــرين او اكثر ، من صنع كارتبيه وفان كلـــيف ..

امـــا شبابنـــا الان فهم اقـــل « سنـــوبيزم » (Snobism) من الآنسات ، يكتفون بكرافات سولكا ولانفان ، وبالاجواخ التي يصنعها دورمويل . وقد اقتصر لباسهم صيفا على بنطال بسيط وقميص ابيض او ملون بدون اكمام . واختفى الطربوش الذي كان يتباهى بطوله وكيه البعض حتى انهم كانوا يقتنون لكل طربوش علبة خاصة من الكرتون يأخذونها معهم حتى في اسفارهم .

وبطبيعة الحالة الاجتماعية التي كان يحددها ويقيدها تحجب

النسـاء ، كان الرجال يرتادون لوحدهم مقهى بلودان الوحيد ويلعبون النرد ويشربون القهوة والشـاي او شـراب الليمون او التوت .

اما النسـاء فاذا خرجن من دورهن فيسرن كسرب من القيقان السوداء الى بستان محاط بجدران عالية تمنع تسرب انظار الرجال من خارجه. وهناك يمددن البُسط على الارض ويفرشـن عليها الفرش والمخدات ويجلسن جوقة او جوقات فتضرب على العود من تجيده منهن ، وتغني من كانت منهن ذات صوت رخيم . وكن جميعهن يصفقن ويرددن مع المغنية بطرب وحماس .

وفيما عدا الغناء لم يكن ثمة ما يسليهن سـوى لعب «البرجيس» او «الباصرة» او تجاذب اطراف الحديث . وما كانت الاحاديث كما يفترض ان تكون حول مواضيع اجتماعية او سياسية او علمية او فكاهية ، بل حكايا تحكيها البارعات في هذا المضمار ، او شـائعات مزجت بها الاستغابة والنميمة : فلانة شعرها قصير وفستانها اقصر من ركبتها ، او حماتي قالت لي كذا واجبتها كذا ، الى اخر ما هنالك من الكلام الحطيط الذي ليس له معنى . وهكذا كانت النسـاء يذهبن الى « السيران » . ولا بد من القول بأنهن ، على الرغم من تفاهة هذه المسليات ، فانهن كن يرجعن من السيران وبواقي الضحكات التي كن يطلقنها تصل معهن الى عتبـــة دورهن ، ولربما دخلته ولحقتهن .

وكن يذكرن سيران بيت فلان ويقلن لبعضهن : « افي بالك كم ضحكنا وكم انبسطنا يومئذ ؟ » اما الطبخ وتحضير الاطعمة فكان شـغلهن الشـاغل : دق الكبة وشيها وقليهـــا ، وعمل المتبلات والباذنجان المقلي ، وطهي المجدرة وتوضيب المخلـلات . ناهيك بالخاروف المحشى بالارز والقلوبات (الفستق واللوز والصنوبر) ، فضلا عن الصفيحة وغير ذلك من المأكولات الدسمة التي كان الرجال والنساء يلتهمونها دون التفكير برقـــة الخصـــور . اذ كانت المـــراة المستحبة هي التي لا يقل وزنها عن ثمانين كيلو من اللحم والدهن المملؤ به جسمها . فاين ذلك الجسم النسـائي المثالي في مطلع العصر الحاضر من الجسم المثالي في منتصفه .

فالمراة اليوم تفضل المـوت من الجوع من ان يزداد محيط خصرها سـانتمترا واحدا ووزنها كيلوا واحدا .

اما السيران العائلي فكان يقتصر على الاب واولاده وبناته

وزوجته او زوجاته . وقليلا ما كانت تجتمع اسرتان ولو كان رب كل واحدة اخا للاخر . وذلك لضرورة تحجب بنت العم عن ابن عمها الا اذا كان بينهما رضاع . وقضية القربى بالرضاع كان لها شأن كبير بين الاسر ، وخاصة فيما يتعلق بالزواج . وكثيرا ما تداخلت امرأة فضولية واعلنت انها ارضعت الخطيب وخطيبته . وبمجرد ادائها القسم على صحة ذلك تمنعت الاسرتان عن انجاز مشروع الخطبة وراح الخطيبان ، اذا كانا مرتبطين برباط الحب ، يلعنان تلك العجوز التي تتداخل فيما لا يعنيها ، فتفسد بعملها امل لقائهما .

ومما اذكره في هذا السبيل ان الشيخ بدر الدين الحسيني ، والد الشيخ تاج الدين الحسينى ، وكان في مقدمة المشايخ المحترمين الحائزين على ثقة الشعب ، كان يمر بنا مرة في السنة ليحي عمتي بداعى النسب عن طريق الرضاع ، لان سنة الرسول توجب على الرجل ان يتفقد انسباءه ولو مرة في العام .

وبعد ذكر انواع السيارين ، لا بد من التعرض لنوع آخر ، وهو ما كان يقوم به الرجال لوحدهم . كانت تسليتهم تتناسب مع بيئتهم ، فاذا كانوا من فئة المشايخ كانت اغانيهم واهازيجهم مدائح نبوية او قصائد صوفية يؤديها حسان الشباب ذوو الصوت الرخيم . وكان شرابهم الشاي يحضرونه بـ « السماور » ويطوف عليهم به غلمان مخلدون كأنهم اللؤلؤ المنثور .

واذا كانوا من الوجهاء استصحبوا جوقا من المغنين وعازفي الالات الموسيقية . وكان شراب معظمهم العرق ، ومأكلهم « المازات » ، واحاديثهم مزاح وتهريج يتولاهما من كانوا يسمونهم بخفيفي الدم كالششبون وامثاله .

اما الشباب اللاهي فكانت نزهاتهم لا تخلو من مغنية وراقصة. وكانت تلك النزهات تسمى « شكارا » . ومن العادات الثابتة في هذه الحفلات ان تنتهي ببقاء المغنية مع صاحب الدعوة وانصراف المدعوين ، هذا اذا لم يهاجمهم اهل الحي مدفوعين بغيرتهم على شرف الحي الذي داسه اولئك القوم بشكارهم ، فيجري تبادل الرصاص في معركة حامية تكون الغلبة فيها اما لاصحاب الشكار فيستمرون في غرضهم ، او لاصحاب الغيرة والناموس فيختطفون الراقصة ويجعلونها نصيب زعيمهم تلك الليلة . وكثيرا ما كان صاحب الشكار تغلبه النشوة ويبلغ به الحماس حدا ــ بتأثير العديد من

اقداح الخمر ـ يحلف عنده بان الشكار « على بياض » ، اي انه تنازل عن فريسته ـ الراقصة ـ فتصبح حراما عليه . وكان هذا ابلغ ما يقدمه الداعي لمدعويه من الحفاوة والاكرام .

وكان المرحوم ابو درويش ـ وهو احـــد ظرفاء دمشق المشهورين ـ يقص علينا حكاية شكار اقامه ابن عم له انتهى باعلان « البياض » . فلما انصرف المدعوون آوى هو وابن عمه الى الفراش وجعلا الراقصة بينهما ، مع العـــلم بان تقاليد « البياض » عند « الزكرتية » ، اي الشباب المتعجرف المتباهي بقوته ونخوته وتمسكه بقوله ، لا تسمح لاحد ان ياتي باي عمل يتنافى مع « البياض » ، فلا يجوز حتى لصاحب الدعوة ان يمس او يلمس يد الراقصة او يفكر باي عمل يتنافى مع الاخلاق الحميدة . اما صاحبنا ابو درويش فما كانت هذه التقاليد راسخة في تفكيره ، لا سيما انه كان ـ قبل اعلان البياض ـ تبادل مع الراقصة الابتسامات والغمزات . أما الان فما غمض له جفن ، وظل يتقلب يمنة ويسرى . وتجاسر في النهاية والقى يده على صدر الراقصة وارفق حركته بشخرة تبررها اذا ما خطر للمراة ان تبدي سخطها . واذ لم يبد شيء من هـــذا ، تجرا على تحريك يده وداعب النتوء . ولما لم تبد صاحبته معارضة تجرا على اكثر من ذلك ، مما كان يرويه لنا مع التمثيل . الى ان شعر صديقنا بحركة في الجهة المقابلة . اذ التفت ابن عمه نحو الراقصة ، وكان قد راودته خواطر مماثلة ، فراح يصغي ليعرف اذا كان ابو درويش نائما ام لا . ولم يكن بوسع هذا ان ينسحب حتى لا يسمع ابن عمه الحركة . فبدأ يشخر ليقنعه بأنه نائم . فاطمأن ابن العم ومد يده ، فاذ به يشعر بوجود محتل سبقه . فأمسك به وعضه ، فصار شخير ابو درويش مزيجا من الشخير والعواء . وبانتفاضة مفاجئة تمكن من التخلص من قبضة اليد . وقام لتوه والقى بنفسه من اعلى السلم الى اسفله .. فانكسرت رجله ولكنه استمر بالهرب وافلت من يد ابن عمه الذي بقي في الغرفة ليؤدب صاحبته او ليستمتع بها لوحده !

هذه قصة رويتها لاعطي فكرة عن العادات التي كانت سائدة قبل خمسين عاما . وكان عسيرا تصويرها بشكل اقل وضوحا .

اما الحياة اليومية فتختلف أيضا بحسب البيئات . فالموظفون يبكرون على وظائفهم ويعودون ظهرا فيتناولون طعامهم ويعودون

لعملهم حتى قرب الغروب . وكذلك التجار والعمال مع اختلاف واحد، وهو انهم لا يعودون الى دورهم للغداء بل يتناولونه بمركز عملهم . فالتجار يصلهم طعامهم ضمن « سفرطاس » . وهو مؤلف من عدة طبقات من الطاسات مربوطة بعضها ببعض . اما العمال فيكتفون بالخبز مع البندورة او الزيتون .

اما الوجهاء الذين ليس لهم عمل معين سوى قبض ايجار العقارات التي يملكونها وجني ربح اراضيهم ، فكان الواحد منهم يجلس في « البراني » اي القسم المخصص للرجال ويستقبل اصدقاءه ويقدم لهم القهوة العربية والسكاير والنراجيل . وكان الحديث في هذه الاجتماعات لا يتعدى الاخبار المحلية « والدردشة » وتبادل النكات والاحاديث الطلية او الحكايات المستطرفة . وكانت تنتهي الاجتماعات والزيارات وقت الظهر ، حين يعود الزوار الى دورهم لتناول الغداء . اذ كان القلة من اصحاب الوجاهة لهم مائدة ممدودة يوميا ، اذكر منهم المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسف الذي كان يلتقي على مائدته يوميا ما لا يقل عن عشرة اشخاص يشاركونه الطعام بدون دعوة سابقة . اما والدي وغيره من اقرانه فكانوا يفضلون الجلوس مع اسرتهم والتلذذ بتناول طعامهم معها .

وفي الليل كانت كل طائفة تقضيه بما تشتهيه نفوس اصحابها . فالوجهاء اعتادوا الجلوس في السهرة في دورهم واستقبال ضيوفهم على نحو ما يجري قبل الظهر . ونحا نحوهم التجار والطبقة المتوسطة والعاملة . وكانت تؤلف منهم مجموعات تربط بينهم الصداقة والالفة في المعشر والاطباع المتقاربة . فكان افرادها يتبادلون السهرية ليلة عند هذا ، وليلة عند ذاك . وكانوا يسمون هذا الاسلوب « دورا » . وكانت احاديثهم لا تخرج عن المألوف عند جميع افراد المجتمع ، بالاضافة الى ان صاحب الدور كان يقدم لضيوفه في آخر السهرة الحلويات بأنواعها والفواكه الموسمية ، ناهيك بالشاي والقهوة الحلوة او المرة .

اما الذين لا يكتفون بهذه الحياة الساذجة البسيطة ، بل يعمدون الى اقتناص المتعة بالحياة الصاخبة ، فلم يكن امامهم سوى الاتجاه الى حي اليهود حيث يقضون السهرة مع اصدقائهم ، بصحبة المغنيات والراقصات اليهوديات ويتناولون من كؤوس الخمر (العرق) ما ينسيهم همومهم ويغوص بهم في بحر المسرات واللذائذ . وكانت جميع بيوت الحي اليهودي مرتعا لهذه الليليات التي كانت تنفق فيها

الاموال جزافا .

واشتهر من بين العائلات اليهوديات بيت مكنو .. وبنات قطش وغيرها . وهي مؤلفة من اخوات ثلاث او اربع ، لا تعدم الواحدة مسحة من الجمال ورخامة في الصوت .

وقليلا ما كان صاحب السهرة يكملها بالمبيت بعد انصراف مدعويه . فالمعروف ظاهرا على الاقل ان هذه السهرات بيضاء .

واما الملاهي الاخرى فكانت نهارا مقتصرة على المقاهي التي يلجأ اليها العاطلون عن العمل ، فيلعبون النرد او الشطرنج ويتناولون القهوة والشاي والقرفة من المشروبات الساخنة والبوظة والليمونادة وشراب التوت او الورد وغيرها من المشروبات المبردة بقطع بالثلج الذي كان يستجلب من رؤوس الجبال على ظهر الدواب ويختزن في محلات خاصة ، اذ لم يكن «البوظ» معروفا، ناهيك بآلات التبريد (فريجيدير) .

ومن الملاهي الليلية ، كان ثمة بعض المسارح التي تمثل فيها الفرق المصرية او كان يغني على «تخوتها » المغنون والمغنيات واكثرهم من مصر ، كعبده الحمولي ، والسيد عثمان وابو العلاء ، والشيخ سلامة حجازي ، والسيد السقطي ، وغيرهم من المغنين ، فضلا عن الست ليلى ومنيرة المهدية ومثيلاتهما .

اما السينما فكانت في اول عهدها تعرض في صالة وحيدة هي مقهى الزهرة التي كانت قائمة مكان بناية الشربجي بساحة الشهداء (وقد احترقت فيما بعد وهدمت) . وكان طرازها كطراز المسارح التمثيلية ، اي كان يحيط بالصالة الواج لا يستطيع المرء التفرج منها جيدا ، الا اذا كان جالسا في مكان مواجه للشاشة. ولم تكن الالواج الجانبية موافقة .

وعلى الرغم من ان والدي لم يكن يسمح لي بارتياد السينما او المسارح او غيرها من المقاهي او الملاهي ، فاني رافقته في بعض الاحيان الى مهرجانات رسمية في السينما او التمثيل . واذكر ان السينما كانت في حالة بدائية تبدو فيها حركات الممثلين كأنها حركات دمى ، كما هي الان في بعض الاشرطة الرديئة من الصور المتحركة . اما الكركوز فتفرجت عليه مرة واحدة خفية عن والدي الذي منعني من ارتياده بسبب الالفاظ البذيئة والشتائم القذرة المستعملة فيه ، ولان محيط المتفرجين كان من طبقة سيئة السمعة والاطباع .

ومع ذلك فكان اكثر الملاهي الليلية استجلابا للزبائن ، من كهول وشباب واولاد . وكانت بذاءة الالفاظ وسخف المواضيع الطابع الخاص لروايات كركوز . وقد انقرض هذا النوع المبتذل ، بعد ان انتشرت السينما الناطقة واستهوت الجميع .

والى جانب هذه الصفحات من حياة المجتمع ، كان ثمة جلسات يعقدها المثقفون من شبابنا الذين كانوا تلقــوا دراستهم العليا في استانبول وعاشوا في جوها الاكثر رقيا من جو دمشق . وكانوا على قلتهم يتنادون للسهر سوية ، فتلقى القصائد الشعرية ويتلى بعض الكتب العلمية والادبية .

ثم انه كان هنالك نوع آخر من الحياة : حياة جماعة العلماء والمشايخ. فكان المسجد هو النادي الذي يأوون اليه قبل الظهر وبعد العصر وبين المغرب والعشاء، كما كان تعقد فيه الحلقات التي يتوسط كل منها احد العلماء الشهيرين ، فيلقي « درســـا » على تلاميذه المواظبين وغيرهم من القادمين عفوا ، سواء من طبقة الوجهاء أو من الطبقات الاخرى . ومما لا شك فيه ان مظاهر التعبد قد تضاءلت منذ نصف قرن ، رغما عن كون الدين لا يزال على ما اظن مستحكما في النفوس كما كان في الماضي .

وكانت تقام في هذه الاوساط حفلات « ذكر » تقتصر عـــلى المدائح النبوية المترافقة مع حركات ايقاعية لطيفة . وفي مقدمة هذه الحفلات ذات الطابع الخاص ما كان يقيمه من وقت لآخر دراويش المولويين من حفــلات يقبل على حضورها الوجهـــاء والرسميون وخاصة ، الســــواح .

وكانت الحفلة تبدأ عندما يتقدم شيخ المولويين بجبته البنية ذات الاكمام الفضفاضة وعلى راسه قلنسوة عالية من اللون البني وحول قاعدتها « لفة » خضراء . فيقف الشيخ في الوسط ويبدأ بحركة بطيئة لولبية فيلحقه الدراويش بلباسهم الابيض الفضفاض ، وقلنسواتهـــم البنية ، ويبدأون بالفتل ، ويدهم الواحدة تسنــد الراس ، والثانية ممدودة الى الامام . ويستمر اللف والدوران عـــلى نغمة النايات المتعددة . وما كان اشبه هذا المنظر بمنظر راقصات الباليه بلباسهن الابيض الذي يصبح بتأثير الـــــدوران كـــأنه مظــلة . وهكذا يدور الدراويش ويفتلون بسرعة متزايدة . وتمر الدقائق ، بل الساعات، وهم في غيبوبة عما يجري . ويحيطون بشيخهـــم ثم يتقدمون منـــه

ويحنون قاماتهم امامهم وينادون : هو ..

لقد قضى اديب الشيشكلي على هذه الجماعات والغى وصادر املاكها ، فزالت هذه العادات البريئة الجميلة ، وليتها لم تزل، فهي تراث ليس فيه ضرر .

وكان الاطفال يتسلون ــ بعد انصرافهم من مدارسهم ــ بلعب الدحل في الشـــوارع او لعب الطـــابة او الخشب شاب . ولم يكن للرياضة نصيبٌ الا لعبة الصراع . واذكر اننا في المدرسة التجـــارية الفنا أول فريق لكرة القدم (فوت بول) كما الفنا فريق الكشـــاف ، وذلك في ١٩١٥ ، كما سيأتي ذكره فيما بعد .

اما الشباب فكانوا يتفاوون باقتناء الافراس الاصيلة فيركبونها بزهو واعتداد ويولون وجوههم نحو « صدر الباز » او « الربوة » او « دمر » حيث تسير الجموع للتنزه وشم الهواء مشيا على الاقدام ، جماعات جماعات . فيجلسون على ضفاف الانهر او على المـــروج الخضراء ويتناولون ما جلبوه معهم من مـــآكل . ويشربون الشـــاي ويغنون شتى الاغاني الشعبية ، مثل ابو الزلف والميجنة ، ويا ماريا، وعالروزنه ، وعالدوم عيني عالدوم ، وعصفوري يا عصفوري. هذا عدا المواويل التي لا يحصى عديدها . وكانت ترافق هذه الاغـــاني انغام العود وضرب الدربكة ، وهما اكثر آلات الطرب شيوعا بسبب سهولة حملهما .

وبالطبع ، لم يكن ثمة راديو على البطارية ، ولا ترانزستور ، ولا مكبرات اصوات ، ولا غرامفون متنقـــل . ولم يكـن الناس يستطيعون ان يغنوا الادوار الطويلة التي كانت من اختصاص كبـــار المغنين ، وهي على سبيل المثال: ياما انت واحشني ، وصفا الازمان، ويا قمر دار العيون ، وذلك لطولها وصعوبة ادائها . ولذلك كـــانوا ينزلون الى مستوى « عالروزنة » ، تماما كما يفعل اليوم من لم يهبهم الله صوتا رخيما فيطلقون حناجرهم باغاني عبد الحليم حافظ مثل : « نار يا حبيبي نار » .. التي لا يحتاج اداؤها الا لنفس طويل.

اما حياة السّيدة اليومية فكانت اجمالا متأثرة بالمحيط الضيـــق الذي كانت تعيش فيه . فالحجاب كان يحول دون اجتماع الرجال مع النساء . واقتصرت بسبب ذلك حياة المراة على الاجتماع مع بنـــات جنسها . فكانت الزيارات قاصرة على الاهل والصديقات ، تقوم بها

المراة مع من تقطن معهن من النساء . اما زوجها او اخوها او اولادها الذين تجاوزوا سن المراهقة فلا يجوز ان يرافقوها ولا حتى ان يركبوا معها في مركبة واحدة الا في حالات الضرورة ، كالذهاب الى الطبيب مثلا. فكان لا بد عندئذ من ارخاء «كبوت» المركبة. واذا كان المسير الى زيارة والد الزوج او والد الزوجة او احد افراد اسرتهما من الذين تربطهم صلة الرضاع ، فلا تمشي المراة الى جانب زوجها او اخيها بل هو يسير في المقدمة وهي تسير وراءه على بعد عدة خطوات ، تجر اولادها من يدهم وتحمل منهم من لا يستطيع المشي وهي تتعثر بخطاها بنسبة كثافة المنديل الذي يحجب وجهها عن الناظرين . اما الملاءة التي ترتديها فكانت من اللون الاسود وتتدلى حتى الارض ، وقد تنسحب اطرافها على الارض . وكانت مصنوعة بشكل يحجب المراة كاملا ولا يظهر كسمها البتة . ولا تزال النساء في احياء المدينة القديمة يرتدين هذا الزي ، رغما عن ان سكان الاحياء الجديدة تطورت حالتهم الاجتماعية فتبدلت الملاءة « الزم » الى ملاءة محصورة لا تتجاوز اطرافها الركبتين ويفلت من اجنحتها الزندان واليدان . ورق منديل الوجه حتى صار شفافا لا يحجب من الوجه شيئا بل يزيد في جماله بستره بعض العيوب . ثم خطت المراة خطوة اجرأ واستبدلت الملاءة بغطاء رقيق تعصب السيدة راسها به (البشمك) ، وجسّمها مكسو ببدلة عادية فوقها معطف . ثم انتهى الامر بان خرجت المراة العصرية عن كل ما يفرقها عن المراة غير المسلمة ، من حيث اللباس الذي ترتديه للخروج من الدار .

وكانت الاجتماعات التي تروق للنساء بصورة خاصة هي التي تعقدها في الحمامات ، سواء عندما تذهب للاستحمام فعلا او عندما تذهب داعية او مدعوة اليه . فتجتمع العشرات من النساء ويقضين الساعات الطويلة باللهو والغناء وسماع الموسيقى والاكل والاستحمام . وبالطبع لم يكن ثمة اختلاط بين النساء والرجال ، اذ كان دخول الحمامات محصورا بالسيدات قبل الظهر ، وخاصا بالرجال بعد الظهر وطول الليل .

وفيما عدا الزيارات والحمامات لم يكن ثمة محل ترتاده السيدات . فلا سينما ولا مسارح ولا نوادي ولا مقاهي . اما النزهات فكانت الى البساتين الخاصة لا سواها من المنتزهات العامة، وعلى الاخص ما يدخل اليها الرجال . ولذلك كانت سيداتنا على مختلف اوساطهن يتبعن في دورهن فيقضين معظم وقتهن بالعناية

بالمنزل وبالاولاد ، وبتحضير المآكل والتفنن بها . وهذا ما يدعو للقول بان المراة العربية اجمالا اصبحت نحيلة القوام عندما نقصت عنايتها بمطبخها ، وازدادت مشاغلها خارج دارها في النزهات والزيـــارات والجمعيات والنوادي والرقص والرياضة .

واذا اراد بحاثة ان يقارن حالة المراة الاجتماعية والعلمية قبل خمسين عاما بحالتها الان لوجد فروقا مدهشة . والادهش ان هـــذا التطور ، او بالاحرى هذه الطفرة ، حصلت بدون ثـــورة وبدون ان تلاقي ممانعة في محيط الرجال المتمسكين بتقاليدهم وشعائرهم .

فالمراة كانت لا تخرج من بيتها الا لقضاء حاجات ضروريةكزيارة اهلها واصدقائها ، او عيادة مريضة او حضور مأتم ، او انها لا تخرج في حياتها الا الى مرقدها الاخير . وكان الحجاب في غدواتها يمنـــع الرجال من رؤية خصلة من شعرها حتى انه كان بنفس الوقت يمنعها من رؤية طريقها جيدا . ولم يكن يتيسر لرجل ان يجالسها الا اذا كان قريبا لها من الذين يحرم عليها الزواج منه اصلا او رضاعا .

اما ثقافتها العلمية فلا تتجاوز اجمالا قراءة القرآن وحفظ آياته دون الكتابة . وهو ما كانت النساء يتلقينه في المدارس التي يطـــلق على صاحبتها اسم « خجا » المشتقة من كلمة خوجه التركية التي تعني « المعلم » . وهي بالاحرى كتاتيب ترسل اليها البنات الصغار لتمرينهن على تلاوة القرآن . واذا ما « ختمت » اي انهت التلميـــذة اجزاءه ، اقامت لها والدتها حفلة « ختمـــة » دعت اليهـــــا الخجا والرفيقات والآل والصديقات ، فتقرا قصة المولـــد النبوي ويـــوزع « الملبس » ، وهو نوع من السكاكر . وهكذا تكون آنساتنا نلن ما كان يعادل في تلك العهود شهادة البكالوريا او الشهادة الجامعية .

واما المدارس الخاصة التي انشاها بعض الارساليات الدينية الاجنبية لتعليم البنات المسيحيات ، فكانت تقبـــل عـــددا قليلا مـــن الآنسات المسلمات اللائي كان والدهن يسمح لهن بذلك . وهكـــذا تحصل الانسة على قسط من العلم المحدود . وكذلك كان شــــأن المدرسة الرسمية للبنات التي يرتادها عدد قليل من بنـــات الوجهاء والموظفين الاتراك .

فاين هذه الحال مما وصلت اليه المراة الآن من اشـتراكها مـــع الرجل في محيطه وعمله ومورد رزقــه ، واعتيادهـــا عـــلى ارتياد المجتمعات العامة كالنوادي والسينما ، وتوليها امر جمعيات خيرية

مختلفة الاهداف ، وانتسابها الى الجامعة بمختلف كلياتها ، وممارستها المحاماة والطب والتجارة والوظائف العامة ، وغير ذلك من مظاهر التطور الذي كاد يوصل السيدة العربية الى سوية المراة الاوروبية والامريكية . على ان هذا التقدم ، اذا شمل بعض الاوساط في احياء محدودة من المدن ، فانه لا زال مرجوا شموله للقاطنات في الاحياء الاخرى التي بقيت الحياة الاجتماعية فيها كما كانت عليه في الماضي ، رغما عن التحسن الملموس في السوية العلمية .

ولم يكن نصيب الرجال من مناهل العلم احسن كثيرا من نصيب النساء . فكان « الكتاب » اول مرحلة يلجأ اليها الاولاد الصغار . وكان يتولاه « شيخ » يعلم القرآن بطريقة سقيمة لا تؤدي الى فهم معانيه القيمة ، ولكنها تجعل الطالب يحفظ آياته حفظا على « الغائب » كما تيسر له تلاوة القرآن وهو مغمض العينين .

والويل لمن كان ينسى آية او يتعثر بها او يغير حركة في احدى كلماتها . فـ « العلقة » له بالمرصاد على يديه و « الفلقة » على رجليه . وهكذا كان الضرب والايذاء وسيلة التعليم المسموح بها ، فيعاني الطلاب المساكين منها ما لا يطاق .

واذا ما انهى التلميذ القرآن اقام له اهله حفلة « ختمة » كالتي تقام للتلميذات . وكان يعتبر حائزا على الدرجة الاولى في سلم التعليم — كالسرتيفيكا مثلا . ثم يرسل التلميذ اما الى المدرسة الرسمية المسماة « رشيدية » ، او الى المدارس الخاصة ، الوطنية منها والافرنسية . ولست ادري لماذا لم يرسلني والدي الى المدرسة العازارية التي انجبت كثيرا من اولاد الوجهاء . ولعله لم يشأ ان ارتاد مدرسة مسيحية . فقد كان رحمه الله كثير التمسك بدينه وغيورا عليه .

متابعة حياتي الدراسية في دمشق

وهكذا كان نصيبي — عندما بدا لوالدي ان لا بد من انتسابي لمدرسة ما لتلقي العلم — ان اسجل في احدى المدارس الخاصة التي كان يديرها ويعلم فيها فريق من المشايخ ، واسمها المدرسة التجارية . ولست ادري لماذا سميت كذلك ، ولم يكن لها اي اتصال بالعلوم التجارية . وكان مقرها دار آل مردم بك في زقاق البوص (وكذلك لا ادري لماذا سمي هذا الزقاق بهذا الاسم ،وهو جانب من سوق الحميدية) وهي دار فسيحة «الديار»، اي الباحة، تحيط بها غرف متعددة ، اتخذت لايواء تلاميذ الصفوف الاثنتي عشرة . وكان

يدير المدرسة الشيخ مصطفى الطنطــاوي ، يعــاونه الشيخ محمد المحلجي . وكان من اساتذتها الشيخ هاشم الخطيب وعوني بــك القضماني وغيرهما .

دخلت الصف السادس وبدأت بتلقي الــدروس وكانت تعطى باللغة العربية . وكان البرنامج الدراسي يتضمــن الصرف والنحو (نصر ــ ينصر ــ نصرا . .) ، والقرآن الكريم الذي كنا نقراه جملة بصوت عال ، والعلوم الدينية (الصلاة والحج . .) ، والحســاب والجغرافيا ، وحسن الخط ، والتاريخ الاسلامي .

وكان رفاقي في الصف السادة شفيق سليمان ، وانور وثريــا فوق العادة ، وفائق سليمان ــ وهم جيراننا في حــارة داود آغا ــ وفؤاد المحاسني ، وجواد العظم ، والدكتور سالم ، وغيرهم .

وكان المجلي في دروسه يحصل على مكافاة من المديرية وتسمى «آفرين» ، وهي على درجات : آفرين، ثم تحسين ، ثم امتياز، والى غير ذلك مما لم اعد اذكره . وكنا نحتفظ بهذه البطــاقات المزخرفــة ونتفاخر بها . اما العقوبات فكانت ايضا على درجات : فمن عقص الاذن الى الضرب على اليد بالمسطرة الى الفلقــة الى الطرد . . . وكانت عقوبة الفلقة تجري بحضور جميــع تــلاميذ المــدرسة قبل انصرافهم . فيضرب البوق ايذانا بالاجتماع ويقف كل صف الى جانب تلاميذ الصف الآخر حول الباحة . ولم يكن احد يعلم من المحكوم عليه بالجلد . ثم يدخل المدير ومعه المحلجي المكلف بتنفيــذ العقوبات . وينادى على التلميذ المخطيء فيبطحه المحلجي ارضا . وتربط برجله الفلقة ، وهي حبل مشدود الى ضلعين من الخشب ، ويبدأ الاستاذ بالضرب على اسفل الرجلين والتلميذ يصيح ويبكي من الالم ويستعطف الاستاذ ويقول : من شان النبي . . . بمحبة الرسول . . . دخيــل رجلك يا استاذ .

لكن الرحمة كانت مفقودة من قلب الاستاذ المحلجي، فيظــل يضرب ويضرب بكل قوته كان له ثارا على التلميذ ، او كانه يجد لــذة في التعذيب . وهكذا الى ان يغشى عــلى المضروب ، او تكل يــد الضارب ، فيفرج عن التلميذ فيعود الى صف رفاقه بكل صعوبة وألم مما اصاب رجليه من جروح وشقوق !

بهذه الصورة الوحشية كان الطلاب يعاقبون على هفوة بسيطة لا يفرض عليهم الان لقاء ارتكابهم مثلها سوى تنزيل العلامة او التأخر

في المدرسة لما بعد الدوام .

وهكذا كانت العقوبات الجسدية معتبرة ، اذ ذاك ، عقوبات رادعة . اما الان فيكتفى بالعقوبات المعنوية .

من ذكرياتي بتلك المدرسة ان المديرية كانت تشدد علينا من اجل اداء الصلاة في احد ابهاء المدرسة المتخذ مسجدا، وذلك بعد الوضوء من ماء البحرة الذي يقارب في فصل الشتاء درجة التجمد . وكانت المياه تنقطع عن ذلك الحي خمسة عشر يوما في شهر شباط ، فيأمر المدير والاستاذ المحلجي بجمع تلاميذ المدرسة كلهم ، فيسيرون بهم اثنين اثنين حتى جامع التوبة في حي العقيبة ، للقيام بالوضوء والصلاة . ثم يعودون بنا كالقافلة الى المدرسة لاتمام الدروس اليومية . وكانت الامطار والثلوج الكثيرة في ذلك الشهر لا تعيقنا عن السير مشيا على الاقدام في الطرقات المملوءة طينا. ثم لا نلبث ان نعود الى المدرسة ، والمياه تتساقط عن ثيابنا ، والطين مرشوش عليها. واما الاساتذة فما كانوا يرون بذلك بأسا ما دام فرض الصلاة قد اقيم .

وحينما اقابل هذه الذكرى بما المسه الان من عناية بالتلاميذ الصغار ، اذ يجلسون في غرف صحية مدفأة ويأتون الى المدرسة ويعودون الى دورهم بسياراتهم او بسيارات ذويهم ، وبما يحاطون به من اعتناء صحي متواصل من قبل اطباء المدرسة، اتمنى لو اعود الى المدرسة انْ لم يكن لشيء فللعودة الى ايام الصبا !

ومن طريف ما يروى بصدد الفروق بين الماضي والحاضر ان « الخرجية » التي كان الآباء يعطونها لاولادهم يوميا كانت تختلف بين نحاسة وبين « ابو الميه » وذلك بحسب قدرة الاهل المالية . ولايضاح قيمة النحاسة لا بد من بيان ما كان يتداول في الايدي من انواع العملة .

في عهد الحكومة العثمانية الاخير ، اي قبل الحرب العالمية الاولى ، كانت الليرة العثمانية قطعة من الذهب تساوي مئة غرش او خمسة مجيديات . وهي قطع من الفضة تساوي الواحدة عشرين غرشا صاغا. وينقسم المجيدي الى نصفي مجيدي واربعة ارباعه.

وكان الغرش الصاغ عملة مصكوكة من النيكل ، كتب عليها ٤٠ بارة ، وينقسم الى نصفي غرش اي ٢٠ بارة واربع قطع كل واحدة قيمتها ١٠ بارات . وهذه الاخيرة تسمى « متليك » والاسم

آت من لفظة (Metalique) اي « معدني » باللغة الافرنسية. والمتليك هذا ينقسم الى خمس نحاسات او عشـرة نصف نحاسة ، وكل عشر نحاسات تساوي « بشلك » ، وهي قطعة من النحاس الاسود . اما الابوميه فكان يسـاوي عشر نحاسات ، والابوميـه الصغير خمس نحاسات . ولم تكن العملة الورقيـة معروفة قبـل الحرب ، فلما اشتركت تركيا فيها بدأت باصدار اوراق نقدية ما لبثت ان انهار سعرها في السوق الحر .

فاذا اعتبرنا ان الليرة العثمانية الذهبية تساوي الان ٣٠ ليرة سورية ، وجدنا ان الابومية يعادل ٦٠ غرشا سوريا ، والنحاسـة تساوي غرشا سوريا ونصف الغرش . ومع ذلك فقد كانت قيمـة النقد ، اذ ذاك ، بالنسبة لقيم الاشياء هى اكثر مما هى عليه اليوم . فما يأخذه التلاميذ الفقراء من آبائهم كان يكفيهم لشراء ما يشبعهم عند الظهر خبزا وزيتونا ، او جبنا مع قطعة من الشوندر المسلوق. وقليل منهم من كان يجلب معه طعامه للغداء ضمن «سفرطـاس» ، وهو اربع او خمس علب من النحاس تعلق فوق بعضهـا البعـض الاخر وتحوي انواع الطعام . اما المترفون ، فكان طعامهم يأتيهم ، ظهراً ضمن سفرطاس مليء بالاطعمة الطازجة، بينما كان التلاميذ الاخرون يجلبون اطعمتهم معهم وهي «بايتة» اي من طعام الامس .

واذكر اننا قبل انتهاء السنة الدراسية دعينا لاقامة حفلة مـن الحفلات السنوية ، فاخذ كل واحد دوره فى التمثيليات المتعددة التي لم تكن تتجاوز احداها محاورة بين اربعة تلاميذ ، يلقي كل واحد منهم سطرا او سطرين وينتهي دوره . وكم كنا فخورين بهذه الادوار التي كنا نحفظها ونلقيها بكل حماسة واندفاع .

وفى السنة الدراسية الثانية، كانت الدولة العثمانية قد اشتركت بالحرب العالمية الاولى واعلن سلطانها الجهاد المقدس ضد اعدائـه الانكليز والروس والافرنسيين . فدعينا مـرات عـديدة للاشتراك بمظاهرات شعبية كانت السلطات المحلية تأمر بها . فتخرج مدرستنا بجميع طلابها ، صفا صفا ، وتلتحق بقافلة طلاب المدارس الاخرى، فنطوف الشوارع مهللين مكبرين ، داعين للسلطان بالنصر، ومنشدين الاغاني التركية الحماسية ، مثل اردوفر ، تيدي يمين . . .

واذكر ان احد الاساتذة واسمه محي الدين افندي كان مولعا بالرياضة ، فعمل على تأليف فريق كشفي وفريق للعب كرة القدم .

وهكذا الف في سورية في ١٩١٥ اول فريق كشفي . وانتسبت اليه مع لفيف من رفاقي منهم جواد العظم ، ونسيب الحجار، وفؤاد محاسن، وخليل حموي ، ومحمد سالم ، وغيرهم . وكنا نرتدي البسة الكشاف الخاصة ونحمل العصي ونتمنطق بحزام علق به خنجر وضوء ينار بالزيت الحلو . وكان على ظهرنا حرام وبعض ادوات الطعام والطهي. فكنا نذهب في رحلات كشفية الى اعالي جبل قاسيون او الى قرى الغوطة .

اما فريق الفوتبول ، فكان ملعبه في ساحة المرج الاخضر، التي يقوم عليها الآن معرض دمشق . وكنت على خفة وزني اجيد اللعب. ولكني كنت افضل ان اكون حكما ، فآمر بصفارتي توقيف اللعب او تسييره ، واوقع العقوبات واحكم بين اللاعبين .

كذلك كنا نتمرن في المدرسة على انواع الالعاب الجمناستيكية، كما اني كنت مع ابناء عمي اركب الخيل واذهب الى الربوة للنزهة ايام الصيف . وهذا كان اول عهدي وآخره بالرياضة ، عدا لعب التنس فيما بعد . الا انني لا ازال اميل اليها ، واتمنى لو لم اتركها كممارس. وليس احب الي من مشاهدة مباراة فوتبول او تنس ولعب وحركات جمناستيكية ، مما حملني على تنشيط فريق من لاعبي الكرة (الفوتبول)، وعلى رأسهم المرحوم سامي الشمعة ، على المضي بتأسيس نادي « امية » وتكريس مبلغ من المال لاستئجار ملعب وتشييد مدرج ، وذلك في ١٩٣٢ . واما لعبة التنس فقد ولعت بها في ١٩٢٦ ، حينما قضيت الصيف في قرية برمانا بلبنان . واما البليارد فقد تعلمته ايضا في برمانا ، ثم استأجرت طاولة بليارد وجلبتها لداري في بيروت في ١٩٢٧ ، حيث مارست اللعب على يد لاعب فرنسي مشهور . ولكنني بعد عودتي الى دمشق ، اضطرتني الظروف لترك هذه اللعبة ، لان دمشق لا تحوي ملعبا يستطيع المرء ارتياده اذا هو اراد تجنب معاشرة من لا تتناسب سويتهم مع سويته.

بعد ان انتهت الفحوص السنوية ونجحت لاجتياز الصف ، فكر والدي بقضية تعلمي اللغة التركية التي كانت لغة البلاد الرسمية . ولم اكن اعلم منها شيئا لان المدرسة التي كنت اداوم فيها لم تكن تعنى بها . فقرر ان يأتيني باستاذ يجهزني لدخول المدرسة السلطانية الرسمية التي كان التعليم كله فيها باللغة التركية. وهكذا صار الاستاذ بهجت بك، معاون مدير المدرسة المذكورة ، يأتي يوميا

الى مصيفنا في دمر ، فتمكنت من معرفة اللغة تكلما وكتابة وقواعد. وعندما حل موعد دخول المدارس لم يقبل قيدي في المدرسة الا بعد اجتياز فحص باللغة التركية . وكان الفضل لذلك الاستاذ بان تمكنت من اعطاء الاجوبة كلها بلغة تركية سليمة، فنجحت بالفحص وسجلت في الصف الخامس . وكانت المدرسة هي تجهيز بيروت (سلطاني) . وقد انتقلت الى دمشق ، اثر اشتراك الدولة بالحرب ، واتخذت لها مكانا في الابنية التي كانت تشغلها مدرسة الآباء العازاريين المغلقة بسبب انتسابها للحكومة الافرنسية . وهكذا داومت في تلك المدرسة سنة كاملة . وكان رفاقي فيها ابناء عمي جواد وتحسين العظم ، وعمر وراتب اليوسف . وكان كل منا في صف غير صف رفيقه ، ، الا اننا كنا نلعب سوية في الفرص لعبة الدحل بالاشتراك مع رفاقنا الآخرين . وكذلك كنا نتناول الطعام سوية .

وكنا كلنا نحب ونفضل الرز مع الفاصولية اليابسة ونطلب من اهلنا ان لا ينسوها يوميا . وكانت تاتينا ثلاثة (سفرطاسات) الاولى من دارنا اشترك فيها مع جواد ، والثانية من دار عبد الرحمن باشا اليوسف ، ويشترك فيها ولداه عمر وتحسين . اما الثالثة الآتية من دار عمي خليل باشا ، فكانت نصيب راتب ورفيق لهم اسمه حسن افندي . وكان الرز غاليا جدا اثناء الحرب ، مما كان يحمل عائلة جواد وتحسين على استبداله بالبرغل في بعض الايام .

وعندما كان يثور راتب احتجاجا ويقول : «يا اخي.. انا اهلي بعثوا لي رزا .. آكل برغلا في حين ان اصحاب البرغل ياكلون حصتي من الرز . » وكنا نضحك ونتقاسم معه نصيبنا منه .

وبعد ان انتهت السنة الدراسية واجتزت الفحص السنوي نقلني والدي الى سلطاني دمشق ومكانه مدرسة عنبر .

وليس لي ما اكتبه عن السنة الدراسية الوحيدة التي قضيتها في هذه المدرسة ، اذ ان والدتي خافت علي من اوبئة الكوليرا والتيفوس والتيفوئيد التي انتشرت بدمشق وراح الكثيرون ضحيتها . فاصرت على بقائي في البيت وكلفت بعض اساتذة المدرسة ان يعطوني دروسا في الجبر والهندسة والكيمياء .. الا ان هذا التدبير لم يفدني وظلت معرفتي بهذه العلوم ضعيفة جدا . ثم عاودت دراسة اللغة الافرنسية على يد الاستاذ علي الجزائري المعروف باسم

« مسيو علي » . وكان له الفضل في تمكني من هذه اللغة .

وبعد الخلاص من حكم الاتراك واعلان الاستقلال افتتحت الحكومة السورية مدرسة الحقوق واعلنت قبول الانتساب اليها لكل من كان مسجلا في مدرسة الحقوق بالاستانة او بيروت ، ولمن كان حائزا على شهادة الاعدادي اي التجهيز ، ولمن يجتاز فحصا يعادل تلك الشهادة . فعزمت بعد موافقة والدي على دخول الفحص وبدأت استعد له . غير ان انتقال والدي الى جوار ربه في تلك الفترة وما اضطررت للقيام به من حفلات تأبينية اخرني عن انجاز الدروس وضاعت فرصة تقديم الفحص . وذات يوم جاءني صديقي فؤاد المحاسني وانبأني بان مدرسة الطب لم تزل تقبل الانتساب اليها بالفحص،فقلت له : «وهل اكون بالنتيجة طبيبا ؟» قال : « لا بل انك تستطيع عبر الانتساب الى الكلية الطبية ان تنتقل بدون فحص جديد الى مدرسة الحقوق . » وهكذا فعلت .

انتسابي الى مدرسة الحقوق في دمشق

كان مدير المدرسة الاستاذ عبد اللطيف صلاح ، وهو فلسطيني الاصل ، عبوس الوجه ، خشن المعاملة . وقد استمرت مديريته حتى آخر تموز ١٩٢٠ ، حين هرب مع من هرب من دمشق من رجال السياسة .

وكان يدرسنا الحقوق الاساسية . اما اساتذتنا الآخرون مانذكر منهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (علم الاجتماع) ، ورفيق التميمي وعفيف الصلح (التاريخ السياسي) ، وابراهيم هاشم (الحقوق الجزائية) ، والشيخ سعيد الباني (المجلة)، وتوفيق السويدي (الحقوق الرومانية) .

وفي الصفين اللاحقين، الثاني والثالث، درسنا على يد كل من فارس الخوري (مالية) ، وشاكر الحنبلي (الحقوق الادارية)، وعثمان سلطان (الحقوق التجارية) ، ومصباح محرم (الصكوك الجزائية) ، وسامي الميداني (الحقوق الدولية) ، والشيخ توفيق الايوبي (الوقف)، والشيخ سليمان الجوخدار (الاراضي)، والشيخ امين سويد (الفقه) .

ويبدو من تلاوة اسماء هؤلاء الاساتذة كم كانت الحكومة تعنى بهذه المدرسة ، فوفرت لها احسن الاساتذة ووجه دمشق العلمي . وقد توفي الان اكثرهم ، رحمهم الله رحمة واسعة .

وكان رفاقي في الصف الاول : فؤاد المحاسني، وصادق العظم،

ومختار الايوبي ، وموفق الحسيني ، ومحمـود النجـار ، ومحمود الماضي ، وخالد الداغستاني ، وخليل الحموي ، ومحمد القصاب ، وعبد الحميد مارديني، ويوسف ياسين (الوزير السعودي الحالي)، وابراهيم شيشكـلي ، وجورج شـاهين ، وجورج ريس ، وظافر رفاعي ، ومصطفى رحيباني ، وراسم سلطان ، وسيمون لويس . وفيما بعد كانت ارفع المناصب السياسية والادارية والقضائية نصيب هؤلاء الرفاق الاعزاء .

والتحق بنا فيما بعد سامي البكري . اما الصف المنتهي في عام ١٩٢٠ ، فكان فيه سعيد الغزي .

وتجلت الصعوبات امامنا في اول ايـام الدراسة ، اذ لم يكن هنالك من كتب نرجع اليها . وكان الاساتذة يلقـون محاضراتهم وينصرفون . وقليل منا من كان يلتقط « نوطا » . ومن جهة ثانية لم يكن يشترط علينا الدوام في المدرسة كما يشترط الان . فلم نكن نحضر الدروس كلها ، وخاصة أيام البرد والمطر . وهكـذا ضاعت علينا فوائد لم نشعر بفقدانها الا عند اقتراب الفحوص . وكنا شـلة من الاصدقاء : المحاسني والعظم والايوبي والحسيني ، فضربنا اسداسا باخماس وصرنا نفكر بطريقة ناجعة تكفل لنا اجتياز الفحص عـلى الاقل ، ناهيك بالاطلاع العميق على ما اعطي من الدروس خـلال السنة . وارشدنا المحاسني الى رفيقنا محمود النجار واكد انه كان مواظبا على جميع الدروس ، بأخذ « نوطا » ويرتبه بشكل مختصر مفيد . فسعينا اليه ودعوناه للاشتراك معنا بتحضير الفحص، فلبى رجاءنا وصرنا نجتمع قبل الظهر وبعده عندي او عند سائر اعضاء الشلة ونحفظ جوابا لكل سؤال من الاسئلة التي ستطرح علينا والتي اعلنتها الادارة سلفا . ومن طريف ما حصل لنا ان دعونا ذات يـوم استاذ الفقـه للمـذاكرة معـه ، فحضر بعد الافطار ــ وكنا بشهر رمضان ــ فاسرعنا لاستقباله . وبينما هو يستعـد للجلوس معنا حول الطاولة ، بدت مني حركة غير اختيارية اردت بها ان اقدم له كرسيا اريح . فسحبت الكرسي الذي كان مزمعا على الجـلوس عليها في نفس اللحظة التي حط جسمه عليها بكـل ثقله فهوى على الارض . ورفع رجليه الى اعلى ، وراحت لفته تتدحرج في ساحة القاعة . . . فشاهدت المنظر وذهـلت . ولم اصح الا على اصوات ضحك الرفاق !

ولم يقدروا على ضبط ضحكاتهم فشاركتهم بها على غير ارادتي. ثم هرعنا كلنا لرفع الاستاذ عن الارض واجلاسه . وبدات المذاكرة في جو يسوده عاملا المرح والجد . وبدأ الاستاذ يطرح الاسئلة الواحد بعد الآخر ، بادئا بمن كان جالسا الى يمينه . ومن حسن حظ الصف انه بدأ بمحمود النجار ، ثم بفؤاد المحاسني اللذين كانا واقفين على هذا الدرس . فتطلعنا نحن الآخرون ، بعضنا ببعض، ولم نكن نعلم من الاجوبة شيئا . وخشينا ان نحن لم نجب بشكل مقبول ان يحكم علينا الاستاذ بالجهل، فيؤثر ذلك في موقفنا بالفحص. لذلك لجأنا الى الحيلة ، والمرء ابو الحيل ، وصار كل واحد منا يحسب ما سوف يصيبه من سؤال على موجب التسلسل ويعمل على حفظ مختصر الجواب على قدر الامكان . وهكذا مر دوران الى ان قلنا للاستاذ : « نحن يا استاذنا الفاضل نريد التزود بمعلوماتكم الفائضة عما نعلمه (ولا نعلم في الحقيقة شيئا) ، فنرجو ان تعطونا محاضرة عامة بدلا من طرح الاسئلة علينا » . فاصبنا بذلك نقطة الضعف في غرور الاستاذ او في سذاجته ، وتخلصنا من الموقف الحرج الذي وقعنا به . . . ومضت السهرة بسلام .

اما ذكريات السنة الثانية والسنة الثالثة فكان اكثرها يتناول الفحوص السنوية . ومنها انني ليلة فحص المالية في الصف الثالث، حلمت بانني سحبت الاسئلة الثلاثة الاولى بالقرعة . ذلك ان الاسئلة كانت ترقم وتوضع في انابيب نحاسية صغيرة ضمن سلة من القش، امام الهيأة الفاحصة .

فلما جاء دوري وقفت امام الاساتذة وسحبت انبوبا وفتحته، فاذا به يحوي رقم (٢) فبدأت بسرد الجواب بطلاقة. وتحايلت به، فاوردت جواب السؤال الاول رغبة في اظهار الكثير من المعرفة .

وشعر الاستاذ فارس الخوري بحيلتي وتبسم . ولما انتهى كلامي عاودت السحب ، فاذا بالرقم (١) يظهر ضمن الانبوب الجديد فضحكت وضحك الاستاذ الخوري . فتساءل الاساتذة الاخرون عن سبب الضحك ، فاجبناهم . وسحبت انبوبا ثالثا فاذا هو يحوي الرقم (٣) ، وعندئذ فقعت انا ورفاقي الواقفون على الباب من الضحك ، اذ اني كنت اخبرتهم صباحا بما حلمت به . فعجب الاساتذة لهذا الضحك . ولم يسعني الا ان اروي لهم الامر على حقيقته . فضحكوا معنا وتعجبوا من هذا المنام ومن تحققه كاملا .

وعند ذلك التفت الاستاذ الخوري وقـال : « اظنـك لم تحلم باقي سأطرح عليك سؤالا رابعا » . فقلت : « ليكـن ما تريد » . فالقى علي سؤالا فيكيفية تنفيذ ميزانية الدولة، فاجبت بما لا يقل عن حسن الاجوبة الثلاثة الاولى ، مع الفارق ان الاسئلة المذكورة كنا حفظناها عن ظهر قلبنا . اما السؤال المبتسر ، فكـان الجواب عليـه موافقا للمضمون جملة ، لا كلمة كلمة .

اما الحادث الثاني فوقع في فحص « الاحكام الوقفية » وكـان استاذنا فيه المرحوم الشيخ توفيق الايوبي . ذلـك انني بينما كنت اجيب على السؤال المطروح علي شاهدت بسمة تعلو وجه الشيـخ عبد المحسن الاسطواني الذي كان مدعوا في عداد الهيأة الفاحصة. ففسرت لنفسي ان هذهالبسمة تنم عن ان الاستاذ الاسطواني وجد في جوابي ابتعاداً عن الصحيح ، لكنه لم يشأ مجابهتي بغلطي فتبسم. وفجأة قطعت كلامي وتوجهت الى الاستاذ المشار اليه وقلت له : «لم تبتسم يا حضرة الاستاذ ؟ هل في جوابي خطأ ؟ » فصحـا الاستـاذ الايوبي من نصف نومته . وسـاد الافق سكوت وذهول . وترقح الاسطواني وقال متلعثما : « الحقيقة .. انني .. غير متفق معـك فيما اوردته من حكم ! »

فقفزت من محلي وخرجت الى حيث تركت دفتري في السل وجلبته واطلعت الاسطواني على ما جاء فيه من حكم لا يختلف مطلقا عن ما سردت . فقال : « نعم ، ان المكتوب هنا هو ما ذكرته، لكنـه خطأ . . . » فاجبته : « قد يكون ذلك . اما انا فقد نقلت حرفيا ما اعطانا اياه استاذنا . فان كان بينكما خلاف في صحـة هذا الحكم ، فلست انا طرفا في النزاع . والسلام عليكم » . وخرجت من قـاعة الفحص بين تصفيق الرفاق !

وطال الجدال بين الاستاذين ، الضالع كل منهما في علمه . امـا انا فجلست في مقهى المدرسة اشرب الشاي مطمئنا الى المصير . وفي الواقع تغلب راي الاستاذ الاسطواني على راي استاذنا الايوبي . ومع ذلك فقد نلت عشرة على عشرة على جوابي المخلق. وكانت هذه اول مرة ، على ما اظن ، ينجح في الفحص من يجيب اجابة مغلوطة. لكن عذري كان واضحا . فقد حفظت ما لقننا ايـاه المعلم، فلم تكن الخطيئة خطيئتي .

والحادث الطريف الثالث هو انني تـأخرت عـن المجيء الى

المدرسة يوم فحص « الصكوك الحقوقية » . وحينما دخلت الصف وجدت رفاقي منهمكين في كتابة الاجوبة على الاسئلة التي سبق ان كتبها الاستاذ على اللوح الاسود وغادر المكان تاركا للمبصر مراقبة الطلاب . وجلست مكاني ونطاعت الى جانبي فلقيت الرفاق كلهم ممسكين بدفاترهم ينقلون منها الاجوبة بدون اي عناء . فقلت لهم « ما هذا ! الا تخشون عين المبصر ؟ » فأجابوا : « لا تهتم به .. واعمل مثلنا » . فقلت : « لا والله » . وعملت على كتابة الاجوبة مما هو عالق بذهني . اما مبصرنا ، حفظه الله ، فكان جالسا على المنصة تأخذه سنة من النوم دون اي اكتراث لما يجري امامه . وصار رفيقي الجالس الى جنبي ، محمود النجار ، ينكشني ويومىء الي بالعمل مثله . وكنت اجيبه : « أانت ايضا يا محمود ؟ انت الاول في الصف وتتنازل الى النقل ؟ » فقال : « يا اخي ، كل صك يحوي عشرة او خمسة عشر شرطا من شروط صحة العقد ، فاذا نسيت واحدا او اكثر نقصت علاماتك». ولم يقنعني كلامه ولم يرتح ضميري الى هذه السرقة . وملأت صحيفتي وسلمتها للمبصر .

وفي اليوم الثالث اعلنت نتيجة الفحص ، فاذا بجميع الطلاب ينالون عشرين علامة على عشرين . واما انا فعشرة فقط . فضحك الرفاق وهزأوا بي وراحوا يلومونني على تصلبي . فقلت لهم انها قضية مبدأ وانهم سيرون ان العاقبة دائما مع الحق . ورحت لعند المدير وسردت له الواقع وكان هو بنفسه متعجبا من هذه النتيجة ، لا يجد لها تفسيرا . فلما اطلع على السر ، ذهب فورا الى وزير المعارف وروى له القصة . وفي اليوم التالي اعلنت ادارة المدرسة الغاء الفحص ، فقامت قيامة الطلاب وراحوا يعتبون علي لشكواي الى المدير ، واعلنوا عزمهم على الاضراب .

واضطرني هذا الى التدخل والسعي لحل وسط وافقت عليه الادارة واقره الطلاب. وهو ان يحسب لجميع الطلاب عشرة علامات من عشرين ، واجراء فحص تحريري ينال به كل طالب ما يتناسب مع معرفته .

ودخلنا الفحص فحصلت مع بعض رفاقي على ١٩ علامة . واحتفظ البعض بما نالوه سابقا . وانتهت الازمة باجتياز الجميع هذا الفحص الصعب .

والخلاصة ان اطيب ايام الصبا كانت التي قضيتها في معهد

الحقوق . فالرفاق كانوا لطفاء ظرفاء ، والاســـاتذة طيبون يعملون جهدهم لتحضير الدروس واملائها علينا املاء . وبعضهم طبع هـــذه المحاضرات بشكل كتب وباعها منا . وكان الجو العام في المدرســـة جوا اخويا ، لا سيما اننا كنـــا في الصف الاول لا يتجـــاوز عددنـــا الثلاثين . وعندما وصلنا الى السف الثالث كان العدد في المدرســـة كلها مئة طالب او مئة وعشرين طالبا، مما جعل روح الالفة والزمالة بين جميع التلاميذ تأخذ مجراها بسهولة . وباعتبارنا لم ندخل بعـــد الميدان السياسي ، فلم تكن بعد قد اثرت فينـــا وفي مجموع البـــلاد نتائج الانتداب الافرنسي الذي بدأ بدخـــول الافـــرنسيين دمشق في الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ ، اي بعد انقضاء السنة الدراسية الاولى . وانتهت في تموز ١٩٢٢ دراستي للحقوق واجتزت معرفاقي الفحص النهائي . فحصلنا على الشهادة وعكف كل واحد منا يشـــق طريقه في الحياة .

ذكرياتي من الحرب العالمية الاولى

واما ذكرياتي عن الحرب العالمية الاولى فكانت محصورة بمـــا اسمعه من الاخبار على السنـــة الضيوف أو ما اقـــراه في الجريدة الوحيدة الصادرة بدمشق واسمها « الشرق » وكان يراس ادارتها الشيخ تاج الدين الحسيني والشيخ خليل الايوبي ويتولى تحريرهـــا الاستاذ محمد كرد علي والاستـــاذ خير الدين الزركلي . ولم يكن قد اخترع الراديو الذي جعلنا في الحرب العالمية الثانية نستمع الىجميع محطات الاذاعة ونطلع على اخبار الفريقين المتحاربين . وهكذا كنا نردد باستهزاء وسخرية ما كان يصدر في البلاغات العسكريةاليومية التركية والالمانية من عبـــارات تكـــاد تكون واحـــدة كل يوم وهي: «دشمن قطعاتي مرد قوتلز مزه هجوم ايتمشلر ايسه ده بوسكور تلمشاردر ...» اي « ان القطعات المعـــادية هاجمت قـــواتنا الشجاعة ولكنها ارتدت على اعقابها خائبة.. »، او « لا جديد في الجبهة الغربية » او « هجم العدو على الجبهة الفلانية هجوما قويا وقاومته قوانا بضراوة وخسرت القليل من القتلى ، بينما تكبد العدو الخسائر الجسيمة » او « انكفأت قوانا لمراكز جديدة وفقا للخطط المرسومة » . وقد كانت هذه التعابير تخفي انكفاءات خطيرة ، وانكسارات مؤدية الى الارتداد الى الوراء عشرات الكيلو مترات ، ووقوع عشرات الالاف مـــن الاسرى والقتلـــى والجرحى تسعـــى القيادات الحربية الى كتمها عـــن الجمهور خوفا عليه من انهيار اعصابه . غير ان الاطراد في سياسة اخفاء الحقائق التي لجأ اليها

اسياد الموقف ادت الى قناعة الناس بان الحرب خاسرة في النهاية وصاروا لا يصدقون حتى الاخبار الصادقة ويبالغون في تقدير الخسائر وظلت قصص الدفاع عن مضايق « جناق قلعه » تشغل بال الجميع بسبب الخطر الذي كان يهدد مركز العاصمة القريبة من الجبهة ، فيما لو انهارت القوة المدافعة وتمكن الانكليز والافرنسيون من احتلال الاستانة وقطع الاتصال بين تركيا وحلفائها المانيا والنمسا وبلغاريا .

والواقع ان الجنود الاتراك استبسلوا في الدفاع وفي مقاومة ما قام به الجنود الانكليز والافرنسيون من هجوم عنيف بحرا وبرا ، وما بذلوا من اجل اختراق هذه الجبهة والوصول الى العاصمة العثمانية من جهد كبير،وما ضحوا به من بوارج ومدرعات من الطراز الحديث ، وما هدروا من دماء ما لا يقل عن اربعمائة الف جندي ، وما خسروا من معدات عسكرية لا تعد ولا تحصى . وفي الواقع ، فقد صمد الجنود الاتراك مستعينين بما قدمه لهم حلفاؤهم الالمان من مدافع واسلحة وذخيرة . وقد لمع في هذا الدفاع المستميت اسم قائد الجبهة التركية مصطفى كمال باشا الذي لعب في ما بعد دورا كبيرا انقذ فيه بلاده من نتائج انكسارها في الحرب العالمية .

اما نحن في سورية ، فالحقيقة اننا لم نكن نبالي كثيرا بما يجري في الدردنيل . وكنا لا نذكره الا في الاناشيد الشعبية التي كنا نؤمر بالقائها ونحن في المدرسة وهي :

جناق قلعه ده .. غليبولي ده .. دشمن ازرز ..

اي « ندعس العدو في جناق قلعه وغليبولي ». اما الجهاد المقدس الذي اعلنه السلطان بناء على الحاح الحكومة الالمانية ، فلم يحفل به احد ، سواء في تركيا او في بقية البلاد الاسلامية . اذ ان الدعاية الانكليزية سريعا ما عكفت على التعليق بان الجهاد في الاصل هو حرب ضد غير المسلمين ، سواء كانوا انكليزا او المانا . فكيف يحالف السلطان فريقا من المسيحيين ويحارب فريقا آخر منهم ؟ وهل هذا جهاد بالمعنى الصحيح ؟ وقد نجحت هذه الدعاية البريطانية ، مع ما رافقها من تأثير الذهب الوهاج ، في وقوف المسلمين في كافة الانحاء موقف المتفرج اجمالا،عدا فريقا منهم اشترك في الحرب الى جانب الانكليز والافرنسيين ، كالهنود والسنغاليين

والمغاربة ، وغيرهم .

وهذا الجهاد المقدس الذي اعلنه خليفة المسلمين لم يحل دون اعلان الشريف حسين بن علي ، امير مكة ، الثورة واشتراكه فيها هو واولاده ضد مقام الخلافة ، ودون تحالفه مـــع الانكليز من اجل استقلال البلاد العربية .

في بدء الحرب عين جمال باشا ، ناظر البحرية ، قائدا للجيش الرابع . فجـاء الى دمشق وفـرض سلطانه علـى جميع البلاد السورية واللبنانية والفلسطينية وصـار الحاكـم المطلق ، يعطي الاوامر ويتصرف بالامور كأنـــه السلطان نفسه . وجهز الجيش الرابع بمعدات اعتبرها كافية لعبور قناة السويس واحتلال البلاد المصرية . وبدأ بهجومه عليها مخترقا صحراء سيناء ، دون ان يكون ثمة خط حديدي ينقل به جنوده او سيارات تقوم بهذه المهمة ، اذ ان الخط بين اللد والاسماعيليـة انشأته القيـادة البريطانية ، اثر انسحاب القوى التركية ، واستعانت به في احتلال فلسطين وسورية ولبنان . ولم يخطر ببال القيادة البريطانية ان القوى التركية سوف تجتاز هذه الصحاري لفقدان الآبار ووسائل النقل ، فانكفأت عـلى رأس قواتها على الطرف الغربي من القناة وراحت تحصد بمدافع البوارج الحربية المرابطـة في القنـاة شراذم الجنود الاتراك التي توصلت الى ضفة القناة الشرقية منهوكة القوى ، جائعة عطشى . وعلى الرغم من ذلك ، تمكـن بعض هذه السريات مـن اجتياز القناة ، مستخدمة قوارب حملتها معها عبر الصحراء على ظهر الجمال والبغال . ولكن هيهات للشجاعة وحدها ان تقف في وجه الاسلحة الآليـة والحصون المتراصـة . فوقـع شهيدا من وقع ، واسيرا من انقذته العناية الربانية . ولم يعد من جبهة الهجوم هذا غير العدد اليسير الذي اطلق ساقيه للريح ورجع ينجو بنفسه من الموت الزؤآم ، فروى لرفاقه وآمريه ما شاهدته عيناه من مجزرة رهيبة وفشل ذريع .

وهكذا خابت الحملة التـي اراد بهـا الالمان الهاء الجيش البريطاني بتخصيص عشـرات الالـوف مـن الجنود لهذه الجبهة بدلا من ارسالها الى الجبهة الغربيـة للاشتراك في المعارك الكبيرة الدائرة بين الجنود الالمان والجنود الافرنسيين .

وانكفأت القوى التركية بعد تلك الهزيمة وعسكرت في غزة وضواحيهـا وبقيت بحالـة الدفاع حتـى اضطرتها قوى الهجوم

البريطانية الى الانكفاء مجددا ، مخلفة وراءها مدينة القدس ويافا . وانتقلت القيادة التركية الى مدينة الناصرة ، الى ان قامت القوى البريطانية بالاشتراك مع قوى الامير فيصل بالهجوم في خريف ١٩١٨ ، فاحتلت دمشق وبيروت وحلب . وعلى اثر ذلك جرت مفاوضات الهدنة بين الفريقين في مودروس . وانتهت الحرب بين الامبراطورية العثمانية والحلفاء في مطلع شهر تشرين الثاني ١٩١٨ .

ولا اخفي اني كنت في الحرب هذه في عداد المؤمنين بنجاح الامبراطورية العثمانية وذلك بتاثير محيطي العائلي . اذ ان والدي كان من المخلصين للامبراطورية التي كان يعتبرها الدولة الاسلامية الوحيدة في العالم . وكان يكره الانكليز والافرنسيين الذين كانوا يطلنون عن مطامعهم في اراضي الدولة ولا يخفون عداءهم للاسلام .

هذه هي حقيقة لا مندوحة لي من ذكرها علي علاتها . وكان المرحوم والدي — على قلة ما كان يصارحني به من آرائه ومعتقداته السياسية بالنظر لصغر سني — حائرا بين شعوره الديني وشعوره العربي ، او بمعنى آخر ، حائرا بين الوقوف الى جانب الاتراك لانهم مسلمون ليدافع عن الكيان الاسلامي الموشك على الانهيار — بهزيمة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية — وهذا ما حصل فيما بعد — وبين الوقوف الى جانب ابناء بلده ، كالعسلي والانكليزي ورفاقهما الداعين والعاملين على احياء القومية العربية واستقلال جزيرة العرب . فكان يؤلمه ان يستند هؤلاء الشبان الى بريطانيا وفرانسا لتحقيق اهدافهم ، لاقتناعه بان الدولتين لن تتاخرا عن بسط نفوذهما ومد سلطان استعمارهما عند سقوط الامبراطورية العثمانية ، غير عابئتين بالوعود التى تكون قد تكرمتا بها على الجمعيات العربية . ولكنه من جهة ثانية ، لم يكن راضيا عن السياسة التى اتبعها جمال في سورية ، من شنق كبار رجالاتها وتهجير العائلات العربية الى الاناضول . ثم انه لم يكن جازما بان الظفر سيكون في آخر الامر من نصيب الالمان وحلفائهم ، لا سيما بعد دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانب خصومهم . فكان يتالم سرا ولا يبدي رايه جهرا ، خوفا من اغضاب جمال باشا . ولم اطلع على آلامه وآرائه التي ذكرتها فيما سبق الا خلال استراقي السمع لاحاديثه مع والدتي في اواخر سهرات الليالي وانا

تابع في سريري اتظاهر بالنوم . وذات ليلة عاد والدي مبكرا من « البراني » ووجهه متجهم واشار على الجميـع بالانصراف ، وبقي وحده مع والدتي . اما انا فاسرعت الى السرير وتظاهرت بالنوم . فما مضت مدة قصيرة حتى سألت والدتي زوجها عما به ، فامتلأت عيناه بالدموع وقال لها حزينا متهدجا : « سيشنقونهم الليلة : ابن عمي شفيق المؤيـد ، والعسلي ، والانكليزي ، والجزائري ، كلهم ستعلق رقبتهم بالحبال ويقضي عليهم بعد ساعات . » فسألته المزيد من الايضاح فقال لها : « كان نوري بك — امين سر الولاية العام وصاحب النفوذ الكبير — عندي واعلمني سرا بأن المحكمة العرفية بعاليه حكمت على اكثر الموقوفين بالاعدام وصدق جمال باشا على الحكم وسينفذ بهم شنقا في الساعـات الاولى مـن الغد » . وراح يبكي ويبدي الاسف العميق الذي لم يخالجني اي شك بصحته ، لانه بدا امام الشخص الوحيد الذي لم يكن والدي يخفي عنه شيئا من شعوره وهو امي .

وفي ما انا استعيد هذه الذكرى الاليمة يخطر في البال ما كان يشيعه ابناء اعمامي من الاسرة العظمية والمؤيدية ان لوالدي ضلعا في شنق المرحوم شفيق المؤيد لانه كان خصمه السياسي ، او انه على الاقل لم يتألم مـن اعدامـه وظل يوالـي جمال باشا والحكام الاتراك ولم يستقل من النيابة . واقول في نفسي ما اظلم الانسان بحكمه على اخيه الانسان ، فيما يتعلق بمشاعره المعنوية ومواقفه التي كثيرا ما تحمله اليها دوافع عديدة في مقدمتها الدفاع عن النفس وتجنب اذى الحكام الظالمين .

والواقع ان والدي اضطر للسكوت امام تلك المجزرة . فلا هو — ولا غيره — اعلن اشمئزازه وعدم رضاه عن اعمال جمال باشا . لكنه اتخذ سبيل السعي للتخفـيف عن بقيـة المحكومين بالنفي الى الاناضول ، وللحيولـة دون سوق الكثيرين من الشبان المعروفين بدمشق الى جبهة الحرب انتقاما لانهم وعائلاتهم اشتغلوا للعروبة . وكانت تلك المساعي يقوم بها والدي خفية لدى جمال باشا او الوالي خلوصي بك وسائر القواد الاتراك . وكان يعلـم علم اليقين بان الاتراك ، وبالأحرى جمال باشا ، سينتهي الى نفي بقية العائلات السورية ذات الوجاهة ، فلا يبقى بسورية من افرادها احد ، وبأن آخر من يطرد من بلده هو والدي وعبد الرحمن بك اليوسف ، آخذا بعين الاعتبار انهما نائبان في مجلس الاعيان والمبعوثان وان لهمـا

اصدقاء في الحكومة المركزية وفي حزب الاتحـــاد والترقي . فتكون خاتمة المطاف بهما ، بعد ان تكون قد نفذت سياسة تهجير العرب الى الاناضول واسكان البقية الباقية من الارمن في البلاد العربية .

معرفتي الاولى بجمال باشا

طلب جمال باشا في مطلع الحرب الى سيدات الاسر الشامية ان تؤلف جمعية نسائية للعناية بالجرحى من الجنـود ، فتأسست جمعية أسميت باسم « جمعية الامور الخيرية » وانتخبت والدتي رئيسة لها ، وقرينة جمال باشا نائبة للرئيسة ، وبنت عمي قرينة عبد الرحمن بك اليوسف خازنة، وسعاد خانم مردم بك امينة للسر. وانتسبت الى هذه المؤسسة معظم السيدات والآنسات من اسر دمشق . واتخذت الجمعية مركزا في احدى الـدور التي هـدمت في ١٩٤٦ لتعريض الشارع المسمى الآن بشارع بورسعيـد . وكنت اذهب مع والدتي واعاون السيدات بتحضير اكياس السكاكر التي كن يعددنها لتوزيعها عـلى الجرحى الوافدين مـن جبهـة الحرب بفلسطين ، مع علب الدخان وغير ذلك من الهدايا . واذكر ان جمال باشا زار مرة مركز الجمعية ومعه انور باشا ناظر الحربية والقائد العام للجيوش العثمانيـة . وعندمـا وصل واستقبلته والدتي ، باعتبارها رئيسة ، والى جانبها السيدات والاوانس اعضاء الجمعية كنت الى جانب امي اتطلع الى وجـه جمـال باشا المهيب بلحيته السوداء الداكنة وعيونه التي ينفذ منهـا شعاع الذكاء والاعتـزاز بالنفس . وسأل امي اذا كنت ولدها ، فاجابت نعم . فمد الي يده فقبلتها كما كان يفعل من هو اكبر مني سنا وارفع مكانة .

وقال « ما شا لله .. ما شا لله . ارجو ان يكون في المستقبل كابيه » . فانحنت والدتي شاكرة وانحنيت بعدهـا . وصرت مزهوا بهذه الالتفاتة العظيمة من القائد العظيم !

هذه هي معرفتي الاولى بجمال باشا الذي لقب فيما بعد بجمال السفاح . واجتمعت الالوف في مسرح الزهرة لمشاهدة رواية الفها بعض الشبان ، كالوا بهـا للباشا انـواع الشتائم وقذفوه بشتـى التهم .

والواقع ان هذه الروايـة ابرزت علـى المسرح بعد خروج الاتراك من البلاد العربية . اما في عهد حكمهم بسورية ، فكان جمال باشا يستقبل استقبال الملوك الفاتحين ويكيل له الشعراء والادباء

المديح شعرا ونثرا ، حتى ان احدهم وهو السيد خير الدين الزركلي (سفير السعودية في المغرب الآن) القى امام صورة جمال باشا في حفلة افتتاح جريدة الشرق قصيدة مطلعها :

احنوا الرؤوس ورددوا النظرات
هـــذا مثـــال مفـــرج الكـــربات

فشبهه بالباري عز وجل . وكانت اكف الجميع تدمى من كثرة التصفيق . .

وقد يرد للخاطر سؤال : كيف يستطيع المرء التوفيق بين تنكيل جمال باشا بالعرب وبين احتفاء وجهائهم بـــه في الاحتفالات ؟ وهل اقتصر الترحيب على طبقة معينة من اهـــل البلاد ام تناول طبقات الشعب على اختلافها ؟ فاقول بأن كل الطبقات في سورية من طبقـــة الوجهاء والاغنياء ، اي طبقة الارستقراطيين ، الى الطبقة الوسطى من الموظفين ، بل حتى الطبقة العاملة ، كانـــت تشترك باستقبال جمال باشا ووداعه في غدواته وروحاته . وكان الناس — ولا يزالون — لا يعتبرون الاشتراك بمثل ذلك تأييدا منهم او دعما لسياسة ما . كانوا يحضرون لمجرد الفرجة ، والا فكيف نستطيع تفسير الاستقبال الرائع الذي قوبل به الجنرال الافرنسي غـــورو عند قـــدومه الـــى دمشق اثر ظفر جنوده في معركة ميسلون ؟ وكيف لا نغطي وجوهنا خجلا مما بدا مـــــن بعض المستقبلين ، حين فكوا رباط خيل عربة الجنرال المشار اليه ووضعوا انفسهم بدلا عنها وجروها في الطريق ، بين دوي المصفقين وهتافاتهم ؟

هل بمقدورنا ان نحمل الجهل العـــــام في الشؤون السياسية مسؤولية هذه الميوعة ؟ ان اهالي باريز لـــــم يكونوا في الشوارع عندما دخل اليها جنود الالمان في ١٤ حزيران ١٩٤٠ ، بل اعتصموا في دورهم واغلقوا الستائر الخشبيـــــة . لكنهم بعد سنتين بدأوا يتعاملون مع ضباط الجيش المحتل وافراده ويدعونهم ويقبلون حضور حفلاتهم ويشاركونهم افراحهم واتراحهم .

واهل دمشق استقبلوا جمال باشا بالحماسة نفسها التـــي استقبلوا بها ، فيما بعد ، الامير فيصل بن الحسين عندما انسحب الترك ودخل الانكليز الى سورية ، ثم حين عودته من باريز . ثم كان استقبال الجنـــرال كاترو بما لا يقـــــل مهابة عن الاستقبالات الشعبية التي كان يقابل بها شكري القوتلي بغدواته المتكررة ، او

غيره من كبار رجالات العرب . ولقد اشاد الامبراطور ويلهلم الثاني ، عاهل المانيا ، بحسن وفادة الدمشقيين له ، حين زيارته في ١٨٩٨ ، واوصى بأن تؤخذ الدروس عن دمشق في كيفية استقبال الملوك . .

ولهذا يحسن بالذين تستقبلهم هذه المدينة بحفاوة وروعة ان لا تأخذهم عاطفة الغرور ، فيظنون انفسهم حائزين على مرتبة خاصة في نظر الدمشقيين . وليعلم الجميع ان اهل دمشق يستقبلون ، ويستقبلون بحفاوة كل من وفد اليها ، عدوا كان ام صديقا. فليمتع القادم (ايا كان مقامه) نظره بمشهد نهر بردى مثلا ، او مآذنة الجامع الاموي ، او باي اثر آخر من آثار دمشق الخلابة ، لا اقل ولا اكثر ، وليسعد بحفاوة الاهلين وليهنأ بها . ولكن حذار من الغرور ومن الاعتقاد انه وحده صاحب هذه الحفاوة والعناية . فدمشق تقدم لزوارها الاستقبالات كما تقدم لهم الماء القراح والطعام الشهي والهواء النقي . فهذه امور عادية . وهي من عادات الاحتفاء بالضيف واكرامه ، انتقلت بالتوارث من جيل الى جيل .

ومن جهة اخرى ، لا بد من التنويه بأن اكثر الحكام الجدد ارادوا ، زيادة في اظهار ترحيب البلاد بالقادم ، ان يحملوا آلاف الفلاحين وغيرهم من الاهلين على ظهور السيارات ، حاملين انواع « الشراطيط » هازجين مادحين . فيقف هؤلاء القوم في الصف على ارصفة الشوارع التي سيمر بها الموكب ، وذلك تحت اشعة الشمس المحرقة صيفا ومزاريب مياه الامطار شتاء ، وهم يرددون العراضات والهتافات التي يتعلمونها من منظمي الاحتفاء . ويظل بهم الامر الى ان يصل صاحب المقام الرفيع ، فتزداد هتافهم وتدمى ايديهم من التصفيق . ثم يلتفتون الى السيارات التي اقلتهم في المجيء فلا يجدون اثرا لها في العودة ، فيضطرون للرجوع خائبين راكبين متن ارجلهم ، قائلين بحق : من خفف راسه تعبت رجلاه . هذا هو حالنا في دمشق وحلب وسائر مدن سورية حتى السنين الحاضرة ، حين جرى استقبال الرئيس جمال عبد الناصر بما لم ينقص عن استقبال من سبقه في دخول دمشق . وكان ذلك بالاضافة الى الحشود التي نظمها عملاؤه في سورية سعيا منهم لحمل الرئيس على الاطمئنان والارتياح لتظاهرات شعبه في الاقليم الشمالي . فيرضى بدوره عنهم، ولو دارت الدائرة على سورية المسكينة . ولربما اراد اصحاب المقامات الرفيعة الآن في دمشق ان يضربوا على الوتر الحساس لدى

رئيسهم، حين تبدى لهم هذا الطبع فيه. من ذلك انه عندما وصل الى حلب لاول مرة وتطلع من شرفة دار المحافظة. فلم يعجبه اتساعها قال لزمله : « دي ما تسعش اكثر من عشرين الــف نفس . . انا عايز ميدان اكبر . » فعكف الاتباع على التشاور واستنجدوا بالمحافظ. فاشار عليهم بساحة فسيحة تملكها دائرة الاوقاف وليس عليهــا اي بناء ، وعلى جانبها دار السيد سامي صائم الدهر . فاسرعوا اليها كلهم ، وعلى راسهم الرئيس ، واضطروا للقفز معه مرتين من فوق جدار حديقــة قصر المحافظــة لكــي يتجنبوا صعوبــة اختراق الجماهير المحتشدة امامه ، الى ان وصلوا الى الدار المقصودة . ولما صعدوا الى الشرفة تنفس الرئيس الصعداء وقال « ايوه كده . . دي تسع مئة الف ، ودا اللي انا عايزه » ثم امر بسوق الجماهير الى الساحة وراح يكلمهم ثلاث ساعات متواصلــــة عن القوميـــــة العربية ، والاستعمار ، والعملاء ، والاشتراكية الديمقراطية التعاونية ، حتى تعبوا ولم يتعب .

بقدر ما كان جمال باشا شجاعــــا مقدامـــا ، كان متحسبا للطوارىء ، يقظا على حياته من ان تمسها يد قاتلة . ولا غرابة في ذلك لمن كان مثلـــــه وترعرع في محيط ثورة الضباط الاتراك الذين حاربوا في ماكدونيا عصابات البلغار ، ثم انتزعوا الملك من السلطان عبد الحميد وهجموا على الباب العالي وهــــو مقام الصدر الاعظم ووزير الداخلية وقتلوا وزير الحربية ناظم باشا واجبروا كامل باشا على الاستقالة . وبذلك تم لحزب الاتحاد الترقي الاستيلاء على الحكم في ١٩١٣ والبقاء فيه حتى انهيار الدولة العثمانية في تشرين الثاني ١٩١٨ . فهرب كبار اعضاء الحزب الـــى خارج المملكة . غير ان جمعية الطاشناق الارمنية لاحقت كل واحد منهم علـــى انفراد . فصرع طلعت باشا في برلين ، والبرنس سعيد حليم باشا في رومـــا، وجمال باشا في بلاد الافغان ، وانــور باشا في القفقاس . وبذلك تم للجمعية الانتقام ممن نكلوا بابناء الطائفــــة الارمنية في الحرب العالمية الاولى وشردوهم خارج بلادهم .

وفي صيف ١٩١٦ ، طلب جمال باشا من والدي ان يقيم على شرفه مادبة كبيرة . ولم يكن لاجابة رغبته بد ، فدعا الوالي وكبار الموظفين والامراء والوجهاء والعلماء لتنــاول طعام العشاء في صحن دارنا بسوق ساروجه . وفيما كانوا كلهم بانتظار وصول الباشا ،

جاءنا احد السعاة راكضا ينبىء بمقدمه ، فهرع والدي وانا معه الى استقباله على عتبة الباب الخارجي . وكان بينه وبين ساحة الدار البرانية دهليز طويل لا يتجاوز عرضه مترا ونصف المتر ، يحيط به على الجانبين حائطان عاليان . وعندما وصلت سيارة جمال باشا ونزل منها ومد يده للسلام على والدي ، انطفأ النور فجأة في جميع الحي وساد ظلام رهيب . وشعر والدي بأن يد الباشا ارتعشت بشدة . وأمسك الباشا بيد والدي ولم يتركها حتى عاد النور بعد دقيقة . كانت وهلة فظيعة ، رأيت فيها وجه الباشا اصفر شاحبا ، ووجه والدي احمر داميا . فالاول خاف من ان تكون ثمة مؤامرة لاغتياله في الظلام المفتعل ، ووالدي خشي ان يتهم بتحضير المؤامرة وهكذا خاف كل منهما وظلت يداهما متماسكتين من الخوف المتبادل . وظل هذا الشعور مخيما على الحفلة كلها رغم التظاهر بالمرح والسرور . وانصرف المدعوون حين ابدى الباشا رغبته في اللعب بالورق حسب عادته . فاعدت الطاولة فورا وادوات اللعب وجلس هو وعبد الرحمن بك اليوسف وبشارة الاصفر واحد معاونيه من كبار الضباط يلعبون البوكر . ولم يكن والدي يعرف اللعب بالورق ، فجلس على كرسي الى جانب اللاعبين يتفرج عليهم . وطال اللعب حتى بعد نصف الليل وانتهى بأن ربح الباشا عددا وافرا من الليرات الذهبية فوضعها في جيبه وصار يخشخش بها كالاولاد الصغار .

لقاء جمال باشا وانور باشا في دارنا

وذات مرة دعي انور باشا وجمال باشا للعشاء بدارنا .وعندما قدمني والدي لتقبيل يديهما سألني انور باشا عما اعمله في اوقات فراغي ، فقلت له انيّ اصدر جريدة فاثار جوابي هذا استغرابه واستغراب جمال باشا . فسألني الاخير : « اية جريدة هذه التي تصدرها ولا يصلني خبرها . .ولا هي تقدم للمراقبة؟ » فقلت لهما انها جريدة اصدرها بالاشتراك مع رفاقي في المدرسة ، وهم اولاد جيراني فضحكا وطلبا مني نسخة منها فاحضرتها . فقرآها واعجبا بها ، وانفرجت اسارير وجهيهما عندما قرأا المقالة الرئيسية التي كتبت فيها ان الجميع يتمنون ان يكون لزيارة انور باشا القائد البطل اثر طيب في تقريب قلوب العرب والاتراك . الا ان جمال باشا قال لي : « لا تستعجل في الاهتمام بالسياسة . فهي مهنة شاقة . » وضحك الجميع .

وفي الواقع ، كنت ولعت منذ مدة باصدار جريدة صغيرة ذات اربع صفحات بقياس ٢٢ × ٣٠ سانتمترا ، اطبعها على الجلاتين .

وكنا نوزعها على المشتركين وهم اربعة : والدي ، ومصطفى بك سليمان ، وعاطف افندي فوق العادة ، وحسني بك سليمان بك ، وهؤلاء آباء رفاقي المشتركين معي في تحرير الجريدة واصدارها . وكنت اراس التحرير واكتب المقالة الرئيسية . وكان انور فوق العادة يتولى كتابة باب القصص البوليسية التي ننقلها الى التركية من روايات ناث بنكرتون وجاك ملتون . وكنت ارسم الرسوم باعتباري امهر الرفاق في الرسم . وكنا نتقاضى بدل الاشتراك بالنسبة لمقدرة المشترك المالية ، ونعنى بالتحرير والطبع ، ونقضي اوقات فراغنا في هذه المهنة حتى يأتي يوم الاصدار الاسبوعي . فنشتغل كلنا بالطباعة ، وذلك بتحضير الجيلاتين ونسخه ثم صبه في صينية خاصة . حتى اذا جمد الصقتنا عليه الصحيفة المكتوبة بحبر خاص ، ثم قلبناها ووضعنا على سطح الجيلاتين اوراقا بيضاء ، الواحدة تلو الاخرى ، فيظهر عليها النص المطبوع .

وكم اتمنى لو بقيت عندي نسخة من هذه الاوراق ، كذكرى لتلك الايام الرغيدة ، وكمثال لعقلية ذلك الجيل .

وذات مرة عقدت مؤتمرا صحفيا في ١٩٥١ ، فاحببت مداعبة الصحفيين . فقلت لهم اني مثلكم صاحب جريدة ورئيس تحريرها ولما اصروا علي باجلاء الامر ، ذكرت لهم هذه القصة ، فضحكنا جميعا . وساد الجو مرح ازال ما كان فيه من العبوس والانكماش .

مضت سنوات الحرب دون ان يكترث بها الاهلون. كانوا لا يشعرون بها الا من حيث الغلاء ، ومن حيث افتقاد اكثر الاسر الى الازواج والاولاد الذين ذهب بعضهم الى الجندية وهرب بعضهم الآخر منها واختبأ في القرى . اما الغلاء فسببه انقطاع استيراد البضائع والمواد التي كانت تستحضر من الخارج ، كالرز ــ وبلغ سعر الرطل منه ليرة ذهبية ــ والسكر وزيت الكاز والقهوة والشاي . وقد ارتفعت اسعار هذه الاصناف ارتفاعا جنونيا وحرمت منه الطبقات الفقيرة ، فاستعاضت بالدبس عن السكر ، وبالبرغل عن الرز ، وبالشعير المشوي عن القهوة ، وبالبابونج عن الشاي . اما القمح فقد بلغ سعر الطن نحو ٢٠٠٠ ليرة سورية او اكثر ، وذلك بسبب وضع الحكومة يدها على جميع الانتاج ،

واقتصار المتداول بالسوق السوداء على ما كان يهربه الزارع او يسرقه المتعهدون .

واصبح الخبز المقدم للمستهلكين خليطا من الشعير والذرة والكرسنة . وقس على ذلك ارتفاع اسعار بقية المستهلكات . فصفيحة زيت الكاز بلغ ثمنها ليرة عثمانية ذهبية . ولم يكن ، بالطبع، بمقدور التجار ان يستوردوا من الخارج شيئا لان البلاد كانت محاطة بالاعداء ، برا وبحرا ، ولم يكن لها منفذ سوى المانيا . ولكنها كانت هي بدورها محصورة مثلنا . ولذلك اصبح الضيق شديدا عند الاهلين من هذه الجهة .

اما الجندية او ما كانوا يسمونه « سفر بلك » اي التعبئة العامة ، فلم يسلم منها شاب من السابعة عشرة حتى الخمسة والاربعين . وكانت القيادة العسكرية لا تبقي في سورية جنودا من ابنائها ، بل تسوقهم الى جبهة سيناء او جبهة الدردنيل او جبهة القفقاس ، وهكذا استشهد منهم الكثير ، وجرح واسر الاكثر . على ان نسبة الهاربين من الجندية وكانوا يسمونهم « فرارية » اي فارين ، فلا شك انهم كانوا اكثر ممن التحق بها . ولجأت الدولة بسبب ظروفها المالية العسيرة الى قبول البدل النقدي مالا او قمحا . فسارع الموسرون الى انقاذ حياتهم ورفاههم ودفعوا ما فرض عليهم وبقوا خارج المعركة . ولا ريب في ان الراي العام لم يكن يعتبر نفسه متضامنا مع الاتراك في حربهم . وزاد في هذا الشعور العدائي لجوء جمال باشا الى شنق كبار رجالات العرب وتهجير اسرهم الى الاناضول . ولم يكن في دمشق سوى محطة واحدة لتوليد الكهرباء ، تعمل على شلال مياه بردى بالتكية . وظلت هذه المحطة تغذي العاصمة حتى ١٩٥٨ حين استغني عنها وحولت المياه الى الشلال الكبير في سوق وادي بردى .

وكانت هذه المحطة على الرغم من ضآلة انتاجها — نحو الف كيلو وات فقط — كافية لسد حاجات المدينة في التنوير وفي تسيير القاطرات الكهربائية الى المهاجرين والميدان ، قبل الحرب . غير ان غلاء زيت الكاز اضطر الناس الى تمديد الكهرباء الى دورهم فازدادت المقطوعية منه ، بحيث لم تعد محطة التكية قادرة على تلبية الاحتياجات المتزايدة . ولذلك عمدت الشركة الى قطع التيار عن كل حي مرة في الاسبوع ، والى تخفيض معدل الفولتاج ،مما ادى الى تخفيض سرعة القطارات تخفيضا كبيرا . ومن جهة ثانية لم

يكن السفر الى بيروت او لبنان مما يبهج النفس ويسرها ، اذ ان الجوع والفاقة نزلا الساحل وحصدا مئآت الناس . ولم تعد ترى في الشوارع الا الاولاد الصغار ، وكأنهم هياكل عظمية يغطيها ثوب فضفاض ، يسعون وراء لقمة يأكلونها ويفترشون الارض ويلتحفون السماء . فكانت مناظر تفتت الاكباد ، خصوصا حين لا يستطيع الانسان تلبية النداءات كلها واشباع الراكعين المستنجدين .

كان ذلك بسبب تعمد الاتراك القضاء على اهل لبنان المسيحيين الذين كانوا في زعمهم اعداء لهم يدعون فرانسا لاحتلال البلاد ورفع يد تركيا عنها . ولم يعد غريبا بعد هذا كله ان يستقبل مسيحيو لبنان الجنود الافرنسيين الذين نزلوا في بيروت في ١٩١٨ بكل فرح وابتهاج . واما المسلمون ، فلولا قيام حكومة الامير فيصل في الشام وتعلقهم بها كدولة مسلمة ، لكانوا اشتركوا كلهم مع الطائفة المسيحية في الترحيب بفرانسا . على ان بعضهم التزم هذا الجانب وساير الانتداب وظل بوفائه له حتى انهارت معالمه .

قضيت مع عائلتي صيفي ١٩١٦ و ١٩١٧ في لبنان ، حيث نزلنا في فندق شاهين بعاليه ، وكان احسن فنادقها اذ ذاك . كان مركزه دار آل بسترس ، ومؤلفا من بناء واسع يحوي بهوا فسيحا على جوانبه الثلاثة عشر غرفة للنوم . اما قاعة الطعام ففي الطابق الاسفل وسط حديقة واسعة تطل على بلدة عاليه وجبال لبنان وسهل الشويفات ومدينة بيروت والبحر . وحول الحديقة ، ويقسم منها ، حرش من اشجار الصنوبر الباسقة . ولا ريب في ان قضاء الصيف في لبنان ينعش الانسان ويوفر له استنشاق الهواء العليل الناعم واغتراف الماء الزلال البارد . واني احب ، اكثر ما احب في الجبل ، وقت الظهر ، حين تحيط به مجموعات من الغيوم التي يطلقون عليها اسم « غطيطة » فيمتلىء الجو ببخار الماء الرطب وتخف حدة اشعة الشمس ، فيتمدد الانسان على الارض تحت اغصان الصنوبر الظليلة يشم العبق برائحته الزكية الخاصة . وهكذا يخلو البال ويسبح الفكر في الخيال ، دون مكدر او مزاحم .

واعتدت منذ صغري ان اتسلق الحرج المطل على قرية سوق الغرب . وظللت حتى الآن اذهب اليه كلما زرت لبنان صيفا . فللانسان ارتباط بمكان ما يبقى وثيقا طيلة حياته ، تزيد في وثوقه ذكريات تتكرر حوادثها في المكان كأنها مكتوبة في لوح الازل . وقد سحت كثيرا وجلت في انحاء اوروبا وآسيا وافريقيا وامريكا وشاهدت

اجمل مدنها ومواقعها الطبيعية ، ولكنني لم اشعر بالسعادة بكل ما تتضمنه من معنى كالتي لمستها ولا ازال المسهـــا واتخيلها في هذه البقعة الحبيبة .

في صيف ١٩١٦ اقام المرحوم عبد الرحمن باشا اليوسف حفلة قران ابنتيه وجيهه وشفيقه على ولدي اخيه محمد علــي ومنيف . ودعتنا والدة العروستين ، وهي بنت عمـــي ، لحضور الحفلة . فذهبنا كلنا ، اعني والدتي وعمتي وشقيقتي وانا بالقطار الى قرية عاليه . ومنها بالعربات الى سوق الغرب ، حيث دار آل اليوسف . وكان شقيقا العروستين ، محمد سعيــد وعمر ، وخالاهما ، جواد وتحسين ، في جملة المدعويين . فقضينا اسبوعا كله مرح وسرور . واطربت المدعوات المغنية المشهورة منذ ذلك العهد السيدة بديعة مصابني ، وكانت في عز صباها . ونزولا عند قواعد التحجب ، لم يرافق المغنية تخت من الموسيقيين الرجال ، بل ثلاث نساء عزفن على العود والقانون وقاما بوظيفة الكورس . ولم تقتصر بديعة على الغناء ، بل اتحفتنا بما كانت تجيده وهو الرقص الشرقي . فابدعت بالحركات والالتواءات المغرية . كانت حقا محط الانظار والاعجاب ، وخاصة عندنا نحن الشبان الناشئون. ولم تخلص المطربة الفاتنة من ملاحقة كبير الشبان فينا محمد سعيد ، او من والده رحمه الله. ولا ادري اذا اقتصر الامر على ما شاهدناه من غمز ولمس ، ام تعـدى ذلك الى الجدّ . فالله اعلم .

اما حفلة الزواج نفسها ، فتتالت وقائعهـــا حسب الاصول المتعارف عليها . فدخل العريس يحيط به والده ووالدته . وتقدم الى منتصف البهـــو الكبير وامسك بيد عروسته وسار معها الى المقعدين المخصصين لهما . ثم دخل العريس الآخـــر ، يحيط بـــه شقيقا العروس باعتبارهما اولاد عمه وباعتبار ان والديه كانا في عالم الاموات ، وسار كذلك مع عروسه الى المقعديــن الآخرين . وجلس الى جانبي العرسان المرحوم عبد الرحمن باشا ، فأخوه احمد بك وسائر المدعوات.وكان من المألوف الا تحتجب النساء عن اقرباء العريس ليلة القران . وراحت المطربة بديعة مصابنـــي « تجلو » العرسان باغنية :

اسم الله اسم الله يـــا عروسة

يـــا ورد جـــوا الجنينـــة

زهر القرنفـل يـا عروسـه
يـا ورد خيـم علينـا
قومي العبـي بقميصـك
وكـل العزبان على كيسك
اللـه يخليك عريسـك
يـا حـلاوه عسليـة
قومـي العبـي وسلينـي
سكـران وعايـف دينـي
عطشـان وباللـه اسقينـي
من روس شفايفـك ميـه
قـومي العبي بعـرق المـاس
يـالي حـارس علـى البـزاز
الله يجـيرك مـن عين النـاس
يـا حـلاوة عسليـة
قومي العبي بحبل اللولـو
وافردي شعرك علـى طولـه
خليهـم يحكـوا ويقولـوا
علـى جمالـك يا زينـة
قومـي العبـي بحلقاتـك
اللـه يخلـي اهلياتـك
ديري بالك علـى حماتـك
يـا حـلاوة عسليـة

وتسمى هذه الاغنية « جلوة العروسة » . وبينما كانت المطربة تلقيها كانت المدعوات يرمين في السلة التي تضعها امامهـا الليرات الذهبية وانصاف الليرات . وهي الاكرامية التي تتناولها المطربة يوم احيائها احدى حفلات العرس ، وذلك عدا الاجرة التي تتقاضها من رب البيت .

وكانت زغاريد النسـاء تملأ اجواء البهو وتهز اركانـه . وكان صاحب الدار يتصدر هذا الجمع كأنه هرون الرشيد في حرمه ، ينتقل بانظاره الى السيدات والاوانس الجميـلات ويطلق الضحك بقهقهته العالية ، والمرح يسود الدار كلها . وبعد ان انتهـت الجلوة ادت بديعة بعض الرقصات المهيجة واشجت مسامعنا ببعض الاغنيات الخفيفة

الرائجة في ذلك العام وكانت تردنا من مصر التي تربع ملحنوها على عرش الموسيقى العربية منذ اكثر من نصف قرن .

وكان جميع الناس الحاضرين يصفقون للمغنية ويستزيدونها ويستعيدون اغنياتها الا العرسان الاربعة . فهم لم يستطيعوا اخفاء تبرمهم من طول الحفلة ورغبتهم في الذهاب الى الغرفتين المعدتين لهم ..

وكان رب البيت ايضا يتشوق الى انهاء هذه الحفلة النسائية حتى يتسنى له اخذ المطربة وجوقتها الى الدار الملاصقة ليمكث هو فيها مع ضيوفه الرجال ساهرين حتى الصباح .

وبعد انتصاف الليل انتهت الحفلة الغنائية ولجأ العرسان الى غرفتيهما . وتوجهت المدعوات الى المقصف الفاخر المعد في قاعة الطعام الفسيحة . وتلهت السيدات بتناول ما لذ وطاب من المآكل التي لم تكن تتناسب قط مع الحرمان السائد في البلاد ، اذ كان صاحب الدعوة اوسع الدمشقيين ثروة وجودا .

على ان رفيقنا محمد سعيد لحظ خطة والده باقتناص المطربة التي اخذها لدارته الخاصة،فأشار علينا باللحاق به.فسبقنا المتآمرين الى الدار الملاصقة وجلسنا في البهو الكبير مع من كان فيه من الاقارب الحاشية . ولما جاء عطوفة الباشا متأبطا ذراع المطربة تجددت الحفلة غناء ورقصا . وامتلئت كاسات العرق وافرغت ثم امتلئت مجددا . وظل الحال على هذا المنوال حتى تسللت اشعة الشمس خلال الستائر المدلاة على الشبابيك . فلا ابو سعيد مل ولا بديعة كلت . لكن الحاضرين تعبوا ونعسوا فصاروا ينسحبون الواحد تلو الاخر ، كل الى غرفته ومأواه ، تاركين الباشا مع الراقصة منفردين .

في شهر آذار ١٩١٨ قامت الجيوش البريطانية ، تساندها قوى الامير فيصل ، بهجوم جديد على الجبهة . وسرعان ما استولت على الناصرة واحتلت مركز القيادة التركية العامة . واستمرت في التقدم بدون توقف ، داحرة امامها القوات التركوة الهاربة من وجهها .

واشتد الخطر وشعر الجميع بقرب دخول الانكليز الى دمشق. وذهبت والدتي لزيارة عقيلة الوالي وما لبثت ان عادت ، والاهتمام

باد على محياها ، وقالت لنا : « هلموا .. فنحن مسافرون غدا الى الاستانة ! » وراحت تجمع الثياب في صناديق السفر . ولما سألناها المزيد من الايضاح قالت ان امراة الوالي قـالت لها انها مسافرة في القطار صباح الغد لان القوات الانكليزية هاجمت الجبهة بشدة وهي على وشك احتـلال دمشق . فطلبـت والدتـي منها السماح لنا بمرافقتها في قطارها الخاص فتقبلت ذلك بكل ارتياح . فعارضـت شقيقتي الكبيرة فكرة ترك البلد وما نملك فيه من اراض واملاك دون اي سبب يضطرنا للابتعاد ، واقترحت استشارة والدي في الاستانة ببرقية قبل الاقدام على الرحيل . فاجابتها والدتي بكل عصبية بأن لا وقت للاستشارة ، وبأنها مسافرة على كل حال مع خالد ونعمت (انا وشقيقتي الصغرى) فيلمش من يريد وليبق من يريد . وقالت عمتي حورية ، رحمها الله ، « انا معك اينمـا رحلـت . » وكانت بطبيعتها مسايرة لا تعارض والدتـــي بشيء . فاضطرت شقيقتي للامتثال . ورحنا نتعاون في جمع اثاث البيت في قاعة واحدة وتغطيته بالقماش خوفا عليه من التلف ..

والدتي تقـرر الهـرب الـى الاستانة قبـل احتلال دمشق

وكان لدى والدتي ما يقرب من ثمانية الاف ليرة ذهبية فاحضرت اكمارا من الجلد ووضعت في كل منها الف وخمسمائة ليرة ونيف . وجربت ربطها على بطن كل واحد منا فنجحت التجربة . وفي الصباح الباكر انهينا حزم البستنا . وربطنا الاحزمة الذهبية وتوجهنا الـى محطة البرامكة حيث كان القطار الخاص ينتظر وجاءت قرينة الوالي وبنتها ودعتنا للركوب في صالونها ، فـاذا هو صـالون اعد ليكون مستشفى سيار . فلم يكن فيه سوى مقاعد حديدية وفي وسطها مقعد متحرك للعمليات . فلم ترتح والدتي لفكرة السفر بهـــذا الشكل وسألت عما اذا كان ثمة مركبة اخرى من مركبات السفر العادية ، فاجابوها بالايجاب . . فانتقلنا الى غرفتين عاديتين من الدرجـة الاولى .

وكان ذلك في الاول من نيسان ١٩١٨ . وما برحنا دمشق حتى اشتدت الزوابع وهطلت الامطار بشكل عجيب . وعندما وصلنـا الى الرياق قبل المساء وهممنـا بالانتقال مـــن قطارنا الى القطار العريض الذي كان سياخذنا الى حلب ، جاءنا الضابط المرافق لحرم الوالي واعلمنا انه حصل حادث ليلة امس بين رياق وبعلبك ، حين تصادم قطاران فتعطـل الخط ، واصبحنا مضطرين لانتظار رفع القاطرات المعطلة عن الخط . ثم دعانا باسم قرينة الوالي للذهاب

معها الى المعلقة حيث ننتظر في القطـــار عودة خط حلب للسير . فشكرته الوالدة وابلغته رغبتها في الانتظار في القطار الحديدي، في الرياق نفسها .

وما اظلمت الدنيا حتى بـدا الخوف يتسرب الى قلب والدتي وعمتي وشقيقتـي . وندمت والدتي على عدم اللحاق بقرينة الوالي وصارت تحسب الف حساب لبقائنا وحدنا بدون حارس في محطـة تعج بالجنود والضباط من مختلف الملـل . وزاد في خوفها وجود الليرات العثمانية ، فجمعت الاحزمة الذهبية وخبأتها تحت المقعـد وغطتها بما وقع تحت يدها من الجرائد .

وقد فرحت من خلاصي من الحمل الذي اثقل كاهلي رغما عن كونه من الذهب الوهاج ، وانتحيت جانبا من المقعد ورحت اغط في النوم بينما اخذت والدتي وعمتي تقرآن الاوراد المختلفـة والادعية المباركة لينجينا الباري تعالى هذه الليلة . وعندما افقت مع الصبح كانت والدتي لا تزال ساهرة علينا وشفتاها تتمتم الاوراد بصعوبة. رحمها الله رحمة واسعة واسكنها فسيح جناته .

وقرب الساعة الثامنة صباحا جاء ابو امين ، وهـــو الرجل العجوز الذي ارفقناه بنا ليحرسنا ويخدمنا طيلة الطريق . فاشبعته الوالدة لوما وتأنيبا على تركه ايانا منذ وصولنا الى الرياق. فاعتذر بانه اضاعنا ولم يستطـــع اللقاء بنا في ظـــلام الليل . فقلت نعم الحارس ! وبعد هنيهة جاء ضابط وحيا والدتي تحية عسكرية وقال لها : « لقد هتفت لنا حرم الوالي باشا بان نستفســر عن صحتـكم وراحتكم . وهي تدعوكم للمجيء الى زحلة لتناول الطعام سوية على مائدة القائمقام ، ثم تعودون سوية في المساء ، حين يبارح القطــار محطة الرياق بعد ان يكون الخــط قد اصلــح . » فشكرت والدتي الضابط وابلغته قبول الدعوة . فاسرعنا الى قطار خاص اعد لنقلنا. ووصلنا الى المعلقة فوجدنا في محطتهـــا مركبتين نقلتانا الى فندق قادري ، حيث كانت قرينة الوالي بانتظارنا . وكانت مأدبة عامـرة حضرها القائمقام والمرافق ولفيف من السيدات، منهن قرينات الموظفين والضباط ومعهن قرينات بعض وجهاء زحلة والمعلقة . وقرب المساء عدنا في القطار الى الرياق فوجدنا قطار حلب جاهزا . فركبناه وراح يقطع البراري سراعا كأنه يريد تعويض ما فات من تأخر .

وخلال الرحلة الى حلب ، بدأت والدتي تفكر بالصعوبات التي

حسبت حسابها بعد حادثة الرياق ، وما كانت خطرت في بالها قبل مبارحة دمشق . كيف لا ، وسكة الحديد لا تصل الا الى محطة الاصلاحية ، وهي تبعد عن حلب اكثر من اربعين كيلو مترا ، ومن هنالك وجب ركوب العربات التي تجرها الخيل والسير الى محطة ثانية فيمدة لا تقل عن يومين ، ثم ركوب القطار حتى الاستانة؟ فعدا طول مدة السفر بمجوعها ـــ ما يقرب من عشرة ايام او احد عشر يوما ـــ فقد حسبت والدتي حساب التنقل المتكرر من المركبات الى القطارات وقضاء الليل في احد الخانات او في المركبة . وعاودها الخوف على ارواحنا وعلى الليرات الذهبية . وبعد تفكير عميق قررت في نفسها ان تمكث في حلب . فلما وصلنا اليها وبتنا ليلة في فندق بارون ، زارت قرينة الوالي وابدت لها مخاوفها واعتذرت لها على عدم الاستمرار على السفر معها . فتقبلت الخانم عذر الوالدة وودعتنا والدموع تتلألأ في عينيها الجميلتين وذهبت في سبيلها .

وابرقت والدتي عندئذ لوالدي واخبرته بقدومنا الى حلب ، واستشارته بالبقاء فيها او بالاستمرار الى الاستانة . وبعد ثلاثة ايام ورد الجواب بالعودة الى حماه وانتظار وصوله اليها .

وكانت الصحف نشرت الانباء الاخيرة الواردة من جبهة فرانسا، حيث قام الالمان بهجوم كاسح اضطر القيادة المشتركة الافرنسية ـــ الانكليزية على مواجهته بكل ما لديها من قوى ، حتى انها لجأت الى طلب النجدات من جبهة فلسطين ، مما ادى الى توقف الهجوم البريطاني وزوال خطر احتلال سورية . فقررت والدتي البقاء في حلب اسبوعا ، ثم العودة الى حماة . ومكثنا في الفندق طيلة هذه المدة . ولما عزمنا على السفر وطلبنا من الفندق حسابنا لندفعه ، اشار علينا ابن عمنا صبحي العظم بان نسدده بتنكتين من السمن ، كنا جلبناهما معنا . ورضي صاحب الفندق فلم تكلفنا في الفندق مدة عشرة ايام سوى هاتين التنكتين من السمن .

وعندما وصلنا في القطار الى محطة حماه ، ابلغنا اولاد عمنا الذين حضروا لاستقبالنا بان نظام الحجر الصحي مفروض على كل قادم ، وبأن علينا أن نبقى اربع وعشرين ساعة في الخيام المنصوبة فوق المقبرة .

فطاش صواب والدتي ورفضت ان تنام ونحن احياء بين الاموات، واستدعت مدير المحطة . فاعتذر هذا لان لا سلطة له وعرض علينا

قضاء الليل في غرفته . وبعد الاخذ والرد مع القائد العسكري قبلنا ضيافة رئيس غرفة المحطة وبتنا في غرفته . اما شقيقتي الكبيرة فاندست بين صفوف السيدات اللاتي جئن للسلام علينا وذهبت معهن الى البلد .

وفي الصباح نزلنا الى البلد مشيا على الاقدام بسبب فقدان الخيل والمركبات وحللنا ضيوفا في دار ابن عمنا خالد بك . فوصل والدي بعد عشرة ايام وحل بدوره في ضيافة ابن عمه ولكن في « العتاق » القسم المخصص للرجال . وكم فرحت بالهدايا التي جلبها لي والدي معه من فيينا ، من ربطات عنق واقمشة وعطورات ومعدات للتصوير ، مع المواد الكيمائية اللازمة لتحميض الافلام المخترعة حديثا والمصنوعة من الجيلاتين ؛ بدلا عن الزجاج . وهذه لم يكن استعمالها في سورية بعد معروفا . وذلك بالاضافة الى الكتب الافرنسية والتركية التي كنت اوصيته عليها ، ما عدا كتابا مترجما عن الافرنسية وعنوانه « كوزل دوست » اي « الصديق الجميل » لمؤلفه غي دوموباسان . ولما سألته قال لي : « لا شأن لك بكتب كهذه . » ولم يبح لي بانه استحضره معه وقرأه في رحلته وقرر اخفاءه عني لانه يتضمن قصة باريزية خليعة لم يشأ السماح لي بمطالعتها .

واعود بالذكرى لما كان يبذله الاهل في ذلك العصر من عناية في تربية اولادهم وابعادهم عن مهاوي الفسق والفجور ، فلا يجيزون لهم ارتياد المقاهي او مشاهدة الروايات التمثيلية او حتى الافلام السينمائية خوفا عليهم من ان تسوء اخلاقهم وان يتعلموا الرذيلة . حتى ان الروايات المطبوعة كانت تابعة لرقابة الاهل قبل وصولها الى ايدينا. وهذه الحال لا سبيل الى مقارنتها بما نحن عليه الآن من انحلال في الاخلاق والعادات . وابرز دليل هو ما نشاهده في السينما من مناظر العراء والتهيج الجنسي الناشيء عن القبل الطويلة الامد والالتصاقات الجسمية التي تتسابق اكثر الممثلات الى التفنن بها اجتذابا للشهرة وزيادة في الكسب .

ولا ريب اننا ـ ولا اقصد بذلك اهل سورية فحسب بل اغلبية البشر ـ عائدون القهقرى الى العصور السالفة ـ كعصر روما مثلا ـ من حيث التحلل من الحشمة والاسترسال في الخلاعة . ولقد وصلت الينا هذه العادات ضمن ما اتحفنا بسه الغرب ، منذ وطأت

فرانسا هذه البلاد . ولئن احتوى ذلك كثيرا مما اخترعه الغرب من الات وادوات علمية وصحية وفنية وزراعية ، وكلها مجلبة للتقدم والرقي والسعادة والهناء الا ان ما رافقها من العناصر غير المادية ، كالرقص والبهرجة والخلاعـــة والتحلـــل الخلقي ، بالاضافة الى الكوكايين وغيره من المخدرات ، كان كله سموما روحية ومادية ، حولت خطانا عن صراطهـــا المستقيـــم ، وطورت اخلاقنا واضاعت توازنها الدقيق ، وبدلت عاداتنا الحسنة وغيرت وجهة نظرنا الى الامور . فما كنا نستعظمه لم نعد نستكبره ، وما كنا نستهجنه لم نعد نراه نابيا غريبا . فيكذب احدنا ، ولما تنفضح كذبته يضحك ويقول : « مزاح ! » ، ويسرق فلا يحرس جيرانه جيوبهم ، ويرتكب الموبقات فيقال عنه : « شاب اشتهى ! » ويخون بلده فيقال : « لعل لـــــه عذر ! »

اما فضائل الاستقامة في المعاملة ، والصدق في القول ، والوفاء بالالتزام ، والحفاظ على العهد والامانة ، فكأنما هي عادات اكل الدهر عليها وشرب وطواها كما طوى فضائل الشجاعة والكرم والمروءة التي كان الاقدمون يتفننون بها في قصائدهم العصماء .

وما نراه مستشريا في بلادنا من تدن في سوية الاخلاق نراه، على كل حال، في جميع بلاد العالم، اللهم الا في التي لم تدخلها المدنية الحاضرة، كمجاهل افريقيا وآسيا وامريكا واوقيانوسيا. ونحن نتساءل اذا كان حقا ما نعتقده من التحام الحضارة الحالية مع تدني سوية الاخلاق. اننا نرى في الجيل الحاضر من الطبائع والاخلاق والميول والعقليات والاتجاهات غير ما نراه في الجيل الوسط بينه وبين جيلنا . فالذين ولدوا قبل الحرب العالمية الاولى هم غير من ولدوا بين الحربين . وكذلك من ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية هم غير هؤلاء واولئك ، فهل للحروب اثر في تبدل تلك الروح ؟ لا ريب ان ما تسببه الحرب من تشتت العائلة بالتحاق الزوج بالجيش المحارب واضطرار الزوجـــة لتدارك اود حياتها بنفسها والعمل للابقاء على اولادها وما ينتج من جراء ذلك من صداقات جديدة واتصالات خارج الدار الزوجية — لا ريب ان هذه العوامل لها اثرها في الحياة العائلية والاخلاق العامة. والى جانب ذلك يجدر ان لا ننسى اثر القتال والتخريب في ما اصاب المدن فقتل من قتل ، وشوه من شوه ، وصار شريدا طريدا من داره وديار الكثير من افراد الشعوب .

اعجيب بعد ذلك ان تتولد في النفس غصة ضد البشرية اطلاقا؟ اغريب ان يلجأ المنكوب في اهله ودياره الى الكذب والاحتيال لكسب قوت يومه والبقاء على وجه البسيطة ؟

واولئك المطرودون من ديارهم ، المشردون في ارض الله الواسعة جماعات وفرادى بالمئات والالوف ، العائشون الآن بفضل ما تجود به المنظمات الدولية من الفضلات ، المفترشون الارض والملتحفون سماء خيمة تلعب فيها الرياح غربا وجنوبا ، الهاربون من المطر يتسرب من ثقوب الخيمة الى حيث النجاة من البلل ، المتلاصقون بعضهم ببعض كصغار الطيور سعيا وراء الدفء ، الناظرون الى بزوغ الشمس نظر الامل بيوم اسعد ، الآسفون في المغيب لانقضاء النهار دون جديد .. هؤلاء واولئك المقيمون نساء ورجالا واطفالا في غرفة واحدة بمسجد او بمدرسة ، انطلب منهم جميعا ان يحتفظوا بطهارتهم وباستقامتهموبصلاح نفوسهم وبما كنا نعتبره في العصر التاسع عشر متلازما مع الحضارة الاجتماعية او الدينية من مقومات واسس ؟

صحيح ان البشر ليسوا كلهم لاجئين ، وان كثيرا من الذين لم تصبهم الحرب بأذى ، بل عادت عليهم بربح وبتضخم فيثروتهم ، لا تختلف طباعهم واخلاقهم الآن عن طباع اولئك التعساء الذينوصفنا حالهم . فهؤلاء لم يشردوا ولم تحرق دورهم ولم تخرب معاملهم ، وهم باقون في القصور المنيفة التي كانوا ينعمون بها قبل الحرب ، فما الذي دعاهم وحملهم على التشبه باولئك المعدمين خلقا وطباعا ونظرا الى الامور ؟ لا ريب ان الفاقة والجوع بعيدان عنهم ، وان التفكير في كيفية تدارك لقمة الغد لا يشغل بالهم ، وان المدارس التي يرسلون اولادهم اليها لا تزال تعنى بتربيتهم وبتثقيفهم على الوجه الاكمل . لكن الشيء الذي لا ريب فيه هو اننا نعيش كلنا على وجه البسيطة كاننا في صندوق محكم فلا يوجد جرثوم في بلد ما حتى ينتقل بسرعة الطيارة الى البلاد المجاورة ومنها الى سائر انحاء العالم . خذ بيدك قدحا فيه بعض الجراثيم واملأ القدح ماء قراحا ، تجد ان الماء لا ينظف القدح من نقطة الجراثيم . وخذ بيد اخرى قدحا مملوءا بالماء المقطر والق فيه نقطة من الجراثيم ، تجد الماء قد تلوث كله . وهكذا ، فعندما تتجاور او تتلاقى الفضيلة والرذيلة كانت الغلبة للأخيرة ، بدون اي ريب .

وكيف تريدون ان يعيش بلد في جو من العصمة والتعفف والى جانبه بلد آخر طغت عليه معالم التطور في الاخلاق والعادات ؟ هل يستطيع القاطنون في البلد الاول ان يحموا انفسهم مما يدخل اليه على امواج الاذاعات والتلفزيون ، وبالصحف والكتب والسينما والاغاني والصور والاحاديث ، وبالعدوى من القادمين مـــن السواح او بما يشاهده ابناء البلد نفسه في غير بلاده فيرجع به الى مسقط راسه ؟

وما نهاية هذا الانزلاق ؟ هل يتغلب رجال الدين بنصائحهم على هذا التيار ؟ ام ان حربا ذرية ستقضي على هذه البشرية فتنقرض ثم تعود الخليقة في دورة جديدة ؟ هذا ما يخرج عن قدرة قوانا العقلية التنبؤ به . فلنترك للاقدار ان تتفاعل .

تركت الحديث عن ذكرياتي وسرحت في بحر الخيال . ولنعــد الآن لما كنا بصدده . فقد عدت مع والــــدي الى دمشق ثم لحقتنا والدتي مع سائر افراد الاسرة. وقضينا ذلك الصيف في قرية مَتين باحدى الدور المعتبرة آنئذ احسنها ، وهي مؤلفة من ثلاث غرف نوم ومطبخ . ارضها تراب وسقفها جذوع حور تعلوه طبقة من الشوك فوقه تراب مصقول . وبالطبع لم تكن الدار حاوية على اية وسيلــة للترف ولا حتى للراحة . فلا كهرباء ولا ادوات صحية . ومع ذلك فقد انقضت الاشهر الثلاثة والمرح سائد في حياتنا . فننزل الى حديقة السيد الحامد ونمضي فيها الوقت حتى الظهر بانــواع التسليات في ظلال غيضة السفرجل الوارفة على ضفاف ساقية الماء البراق . ثــم نعود ظهرا لتناول الغداء والاستراحة حتى قبيــل العصر . فنذهب الى كروم العنب والتين ، ثم نعود المساء فنسهر على لعبة البرجيس، بينما والدي يقرأ الجرائد التركية التي كانت تصله من الآستانة . وفي الاشهر الثلاثة التي قضيناها في متين لم انزل الى دمشق سوى مرة واحدة . ذلك ان مركبتنا ما كانت توصلنا من متين الى دمشق باقل من ثلاث ساعات . اما العودة فكـانت تستغرق خمس ساعات بسبب علو متين بالنسبة الى دمشق .

وفي اواخر ايام متين بدأ الجيش البريطاني هجومه على جبهة فلسطين ، فعجلنا بالعودة لدمشق ، وسرعـــان ما اشتدت وطأة الهجوم وعاد خطر سقوط المدينـــة يسود الاجواء ، وذات يوم عاد والدي من مقابلة الوالي متجهم الوجه ، فسألناه الخبر فاعلمنا بان

الوالي سيسافر في الغد الى العاصمة ومعه الموظفون الاتراك ، ولن يبقى هنا سوى قائد الجيش الذي ينسحب بدوره بعد تأمين ارتداد القطعات العسكرية مع معداتها وذخائرها .

وعادت الينا ذكرى هروبنا الى دمشق في ربيع العام نفسه وسفرنا الى حلب ، وسألت والدي عما سيعمل فقال: « اني مسافر مع الوالي . اما انتم فتبقون في دمشق حيث لا خطر عليكم ».

دمشق عشية دخول الجيش البريطاني

وفي صباح اليوم التالي ذهبت معه الى محطة البرامكة مودعا فجاء الوالي وكان منهوك القوى منهار الاعصاب كسائر الموظفين المنسحبين معه . وجلسنا في البهو ننتظر القطار الذي تاخر عن موعده لسبب لم اعد اذكره ، وحان وقت الطعام ظهرا ، فاشار الوالي بالذهاب الى سراي الحكومة ، وجلس مع والدي — وكنت معهما في البهو الكبير — فجاؤونا «بالزوادة» التي كان والدي اعدها للسفر ، واكلنا منها حتى الشبع ثم عدنا الى المحطة فجاء القطار وصعد اليه الوالي ووالدي وسائر الموظفين ، وسار القطار الهوينا حتى غاب عن انظارنا وعيوني تملؤها الدموع .

وعدت الى الدار حيث بدأت والدتي تتخذ العدة للمحافظة علينا وتأمين القوت اللازم لمواجهة احتمال حصار البلد . وجاءنا ابن عمنا عبد الله بك ومعه نجله محمود بك ، وكان هذا شابا يافعا يرافقهما من اصدقاء والدي توفيق بك شاتيلا ، فكنا نسهر كل ليلة نحن الاربعة في « البراني » . وكان الصديق ابو احمد (شاتيلا) يزيل عنا ، بخفة دمه وحكاياته المضحكة ، ما كان يعترينا من الوجل والتحسب من نتائج انكسار الجيوش التركية واحتلال دمشق من قبل الاعداء ، اذ كنا لا نزال نعتبرهم كذلك . وذات ليلة سمعنا اصوات المدافع والانفجارات فصعدنا على السطح . وهناك شاهدنا حريقا تأججت ناره الى اعالي السماء . فارتعدنا خوفا وسألنا عما يجري ، فقيل لنا ان فلول الجيش التركي اشعلت النار في مستودعات الذخيرة في حي الميدان ، قبل انسحابها منه . فاحترق ما تبقى في المستودعات من مواد وانفجر ما فيها من قذائف .

وكان المشهد طريفا في دارنا . ابن العم عبد الله بك ونجله متحفزان وبيد كل منهما السيف ممشوقا والبندقية ممدودة على حضنيهما ، والعم ابو احمد تعلو وجهه صفرة الخوف وهو قابع في احد الزوايا ونبريش الاركيلة في يده المرتجفة . وكنت انا اجول

بنظري بين ابناء العم ، وكلهم « صبة نار » كما يقال . وبين العم ابو احمد واركيلته كاد الضحك يأخذني لولا التخوف من المصير . وكانت والدتي خارج الغرفة تنظر الي من الشباك لتطمئن علي، اذ ان تمسكها بالحجاب كان يحول دون جلوسها معنا . وانقضى الليل الا اقله ونحن على هذه الحال. وهدات اصوات الانفجارات وانطفأت النار لفقدان ما تأكله . فأخذ كل منا قسطا من النوم . وسرعان ما ايقظتنا والدتي قائلة انهم دخلوا . فخرجنا الى الشارع فوجدنا الناس مكتظة على الارصفة. وكان الخيالة الاوستراليون يمرون في سوق ساروجه ، بعد ان دخلوا المدينة من جهة المزة واخذوا طريقهم الى حلب للحاق بالجيوش التركية . وهـــكذا اخترقوا المدينة من شرقيها الى غربيها .

وحمدنا الله على انتهاء الفترة بين الانسحاب والاحتلال عـلـى خير وسلامة . ورحنا نتسقط الاخبار ، فعلمنـــا ان الامير سعيد الجزائري ، حفيد الامير عبد القادر ، احتل بنفسه بهو السراي واعلن قيام حكومة عربية ولى نفسه رئاستها . لكن ما لبث ان دخل البهو رضا باشا الركابي ومعه ضباط بريطانيون واعلن ان الجنرال اللنبى قائد الحملة العام قد اصـــدر قرارا بتعيينه حاكما عسكريا للمنطقة الشرقية ، فانسحب الامير يجر ذيل الفشل .

الفصل الثاني

الملك فيصل في سورية

في اليوم التالي دخل دمشق الشريف فيصل بن الشريف حسين الذي كان اعلن العصيان على الدولة العثمانية ونصب نفسه ملكا على العرب . فاستقبلته المدينة استقبالا منقطع النظير ، على نمط الاستقبالات الشعبية التي ذكرتها فيما سلف . ونزل الشريف ضيفا في منزل قريبنا محمود بك البارودي ، والد فخري بك البارودي ، الذي كان جنديا في الجيش العثماني ثم وقع اسيرا وسيق الى القاهرة وهناك اتصل بآل الحسين فاستدعوه الى مكة وعينوه مرافقا للشريف فيصل . فرافقه في حروبه ضد الاتراك .

وذهبت الى دار البارودي للسلام على الشريف. فقدمني اليه محمود بك قائلا : « هذا خالد بك ابن محمود فوزي باشا العظم . » فصافحني الشريف وسألني عن والدي فأجبته انه في الاستانة . وكان المشار اليه يعرف بوالدي منذ ان كان هو ووالده مقيمين في الاستانة . وقد اجتمعا سوية في دمشق ايام الحرب عندما كان الشريف يمثل والده لدى جمال باشا . ثم سافر الى الحجاز بحجة تجهيز جيش عربي يحارب الى جانب الجيش الرابع ضد القوات البريطانية . غير ان الحجة لم تكن صادقة . اذ ان الشريف حسين كان على صلة وثيقة بمن شنقهم الاتراك في ١٩١٥ من رجالات العرب وبمن بقي حيا من سائر المشتغلين بالقضية العربية ، مثل آل البكري والدكتور شهبندر وشكري القوتلي وفارس الخوري .

وعندما حلت النكبة في السادس من ايار ١٩١٦ وعلقت المشانق في بيروت ودمشق وبدا عزم جمال باشا على القضاء على فكرة العروبة وكل من نادى بها ، عزم الشريف فيصل على الهروب من ظلم جمال باشا . واستشار والده في مكة وهو اميرها ، فأمره بالسفر الى الحجاز دون ان يشعر جمال باشا بحقيقة نوايا الوالد والابن . وهكذا كان ، فسافر الشريف فيصل بوداع حافل ، ثم لحقه

ابناء البكري وغيرهم من الشبان العرب على ظهور الجمال . وما ان وصلوا الى دار الامان ، حتى اعلن الشريف حسين بن علي الثورة ، فانقطعت المواصلات بين الحجاز وبين سوريا . ولم يكن والدي يشارك الشبان العرب في مساعيهم ، اذ انه كان يقول ببقاء الامبراطورية العثمانية المسلمة ، على ان ينال العرب حق الحكم الذاتي ، او على الاقل ، الصلاحيات الواسعة في الادارة المحلية .

وبعد ان قامت الثورة العربية ، راح الشريف فيصل واخوه الشريف عبد الله يجتمعان مع العشائر البدو ويعملان على استدراجهم للالتحاق بالثورة باذلين لهم المعطيات والاموال بسخاء . وشعر جمال باشا بخطورة تدخل اولاد الشريف حسين لدى العشائر ، فاستدعى والدي وعبد الرحمن باشا اليوسف والشيخ اسعد الشقيري — والد احمد الشقيري الوزير السعودي الان — وابلغهم انه انتدبهم للسفر الى المدينة المنورة للاجتماع مع رؤساء العشائر واسداء النصائح لهم بعدم الالتفات لاغراءات امير مكة العاصي ، وللسعي الى تأليب من كان منهم قد انضم للثورة واعادته الى جادة الصواب . واعلن جمال باشا تخصيص مبالغ كبيرة من المال في هذا السبيل . وطلب الي والدي ورفيقيه ان يسافرا صباح غد .

وكان بين عبد الرحمن باشا وآل الحسين الهاشميين عداوة قديمة ترجع الى يوم اعتلى الشريف حسين منصب امارة مكة فمنع الباشا المشار اليه من انجاز مهمته في مكة كامير للحج وقطع عنه المال ومنع عنه القوى المرافقة وسيره الى جده ، حيث ابحر الباشا على ظهر باخرة عائدا الى دمشق وحده ، دون حاشيته وامتعته .

فلم يكن غريبا اذا ان يتقبل الباشا هذه المهمة بكل ترحاب ، ظانا انه يستطيع بمعاضدة الدولة ، لا سيما بشخص ممثلها جمال باشا ذي السطوة المخيفة ، ان يقضي على ثورة الحجاز وان يقهر الشريف حسين وابناءه فيطردهم من ديارهم كما طرده قبل ستة اعوام . اما الشقيري ، وكان مفتي الجيش الرابع ، قد اعتبر نفسه موظفا ينفذ ما يصدر اليه رئيسه جمال باشا من اوامر ، وهو قائد هذا الجيش نفسه . اما والدي فلم يرق له الامر وتمنى لو يستطيع تجنب التدخل مباشرة في هذه القضية . وحسب للمستقبل حسابا ، لا سيما انه كان غاضبا في سره على سياسة جمال باشا . فكيف له ان يقوم بمهمة يعتبرها الهاشميون حركة عدائية ضدهم ؟ لكنه لم يكن في

موقف يسمح له بالاعتذار ، خصوصا ان مزاحمه ومنازعه في الزعامة بدمشق ، عبد الرحمن باشا ، كان ابدى استعداده للسفر وترحيبه بالفكرة . وكان بنتيجة ذلك كله ان سافر الوفد الى المدينة المنورة ، حيث كان قائد الحامية الفريق فخري باشا الذي اعتصم فيما بعد بالحرم النبوي وهدد بنسفه حينما شدد الشريف علي بن الحسين الحصار على المدينة . وظل في عناده هذا حتى بعد عقد الهدنة بين الحلفاء والاتراك . فانسحب هو والقطعات التي كانت معه الى معتقل الاسرى بالقاهرة ، وقد ابقي معه سيفه . واديت له ولجنوده التحية العسكرية لقـــاء استبساله في الدفاع عن المدينة التي امر بالمحافظة عليها .

ولم يتلق فخري باشا خبر وصول الوفد بارتياح . لذلك لم يقابلهم بحفاوة ، وتساءل عما اتى لاجله هذا الشيخ وهذان المدنيان .

فالضباط على العموم لا يتقبلون تدخل المدنيين بشؤون يعتقدون انهم قادرون على حلها بقوة السيف . ولم يسمح فخري باشا للوفد بالقيام بمهمته ، فقفل راجعا دون ان يجتمع اعضاؤه بأحد من رؤساء العشائر . وقدموا تقريرا شفهيا لجمال باشا الذي فضل عدم اثارة زميله في المدينة ، فطوى صفحا عن فكرته .

وكان رفيقاي الملازمان لي ، ليل نهار ، فؤاد المحاسني ومنير العيطة . وظهر لي بعد انسحاب الاتراك انهما من المندفعين في العقيدة العربية . وبتأثير احاديثهما المتوالية ، وبفضل الجو العام وتفتح الوعي ، اصبحت من اشد الشبان تعلقا بالشريف فيصل الذي اقب بعد دخول الشام بالامير فيصل — قبل ان يصبح الملك فيصل . وتفاعلت في نفوسنا الدعاية التي انبثت في جميع انحاء البلاد لمقاومة الاجانب والتمسك باستقلال البـــلاد .

لم يكمل والدي طريقه الى الاستانة بل توقف في حمص بانتظار تطور الحوادث . وصدف ان عاد عبد الرحمن باشا اليوسف من الاستانة بنفس الوقت فمكثا سوية في حمص . وذات يوم ، جاءنا بدوي وناولني ، بعد ان تأكد من انني انا ابن الباشا ، كتابا ارسله معه والدي من حمص . وفيه يخبرنا بأنه بقي فيها ، وبأنه ينتظر الوقت المناسب لعودته الى دمشق . ففرحنا بهذه الرسالة فرحا لا يوصف . ومنحنا البدوي العطايا السخية مقابل هذه البشرى ،

ولقاء ما تكبده من مشقة المجيء الى دمشق مشيا على الاقدام . ولم يمض على وصول الكتاب اسبوع حتى وصل والدي ومعه عبد الرحمن باشا وبعض الاقارب والاصدقاء ، وكانا راكبين في مركبة عبد الحميد باشا الدروبي ، صديقهم الحمصي الذي اعارهم اياها لهذه السفرة. اما الاقارب من بني العظم ، ومنهم صفوت بك المؤيد ، والاصدقاء وعلى راسهم عبد المجيد سويدان ، فكانوا يمتطون جياد الخيل . وقد رافقوا والدي ومعهم بعض رجالهم للمحافظة عليه وعلى عبد الرحمن باشا ، طول الطريق من حمص الى دمشق .

وفي اليوم التالي توجه والدي الى زيارة الامير فيصل لتهنئته بظفره واعلان تأييده لحكمه في سورية . وقد رحب الامير بوالدي ترحيبا جميلا ودعا الى طي صفحات الماضي ، والسير يدا بيد لمواجهة مطامع الاجانب وتركيز دعائم الاستقلال . فأجابه والدي بأنه يضع نفسه تحت تصرفه لتأمين هذه الغاية . وفي الواقع ، لم يكن لدى والدي سبب — وقد انهارت الامبراطورية العثمانية — للتردد في دعم الدولة العربية المسلمة المرجو اقامتها في البــلاد السورية والحجازية والفلسطينية . وكان الامير فيصل من جهته بحاجة الى الحصول على تأييد اهل سورية له ، باعتباره آت ليتولى عليهم من خارج بلدهم . كما انه كان عالما بما كان لوالدي من نفوذ كبير في دمشق خاصة ، وسورية ولبنان عامة . اذ كان الزعيم المحترم صاحب القول الفصل ، سواء لدى ابناء بلده او لدى نواب المدن الاخرى الذين كانوا يجتمعون في الاستانة برئاسته . فلم يشأ الامير فيصل ان يكون اول اجتماع بينهما غير ودي ، فينفر والدي منه وتنقطع بينهما بعد ذلك الصلات الطيبة . اضف الى ذلك ان الامير فيصل كان عالما بما كان سيتعرض له من مقاومة الافرنسيين له وعدم الرضاء عن تسلمه امارة او تاج سورية ، بعد ان كانوا عقدوا مع الحكومة البريطانية الاتفاقية الشهيرة باسم سايكس — بيكو التي جعلت لبنان والساحل السوري منطقة تابعة لهم مباشرة . اما المدن الاربع : دمشق وحمص وحماه وحلب ، فجعلتهــا خاضعة للنفوذ الافرنســـي .

والدي يقابل الملــك فيصل ويــــؤيده

وقد اكد لي صحة ما كان يتمتع به والــدي من مقام رفيع حادثان ، الاول رواه لي بديع بك المؤيد ، نائب دمشق السابق . وهو ان الحكومة التركية عزمت في ۱۹۱۸ على تجديد امتياز شركة

حصر الدخان، الا انها لاقت معارضة شديدة من النواب. فمنهم من كان متحزبا لها ، ومنهم من كان معارضا في الاصل . فكان لا مندوحة لها من الحصول على تأييد النواب العـرب ، وكان عددهم يبلغ الثمانين . فاتصل الصدر الاعظم ، طلعت باشا داهية الاتحاديين ، بسفير تركيا في فيينا — وكان هذا صديقا حميما لوالدي حين كان امينا عاما للولاية بدمشق ، ثم حين اشتراكهما سوية في وزارة احمد مختار باشا — وطلب اليه ان يدعو والـــدي لزيارته في عاصمة الامبراطورية النمسوية لاقناعه بلزوم تأييد الحكومة . فقبل والدي الدعوة وبعث بمن يطلب له جوازا من وزارة الداخليـة . ولشد ما كان عجبه حينما جاءه مستشار الصدارة وقدم له جوازا سياسيا وابلغه تحية طلعت باشا ، مدعيا بأنه لما علم بنية والدي في السفر امر باصدار هذا الجواز وبوضع صالون في قطار اوروبا السريع تحت تصرفه . ولم يفهم والدي سر هذا الاكرام غير المألوف ، فشكر الصدر الاعظم على لفتته هذه واستعد للسفر . وعندما اجتمع مع حسين حلمي باشا في فيينا — حيث نزل ضيفا في السفارة — اطلعه صديقه على ما اراد طلعت باشا ان يكلفه به من مهمة خاصة . واضاف قائلا : « انتم المبعوثون العـرب تستطيعون ان تنقذوا الوزارة من السقوط . وطلعت باشا يعلم انك يا باشا الشخص الوحيد الذي يستطيع التأثير على زملائه المبعوثين العرب ويحملهم على تأييد الحكومة . وهو على استعداد لتلبية ما ترغبون ، بدون قيـد وشـرط » .

نفوذ والدي ومقامه الرفيع

فتكر والدي قليلا — كما روى ذلك لي بديع بك — وتظـاهر بصعوبة الامر وقال لصديقه السفير ان البلاد العربية مستاءة من جمال باشا ومما ارتكبه ولا يزال يرتكبـه في سورية من مجازر ومظالم . فقد شنق رجالاتنا وهجر العائلات الى الاناضول وسجن الابرياء . ولكل مبعوث عربي قريب شنق او ابعد عن دياره او صديق اصيب في مصيبة ، فكيف تريدون مني ان احملهم على تأييد الحكومة التي يشترك فيها جمال باشا نفسه ؟ فقال حسين حلمي باشا انكم على حق فيما تبدون ، لكن ما العمل وطلعت باشا يصر ويلح بطلب التأييد ؟

فقال له والدي لا بد من ارضاء خاطر المبعوثين العرب . فسأله السفير عن مدى المطالب التي يجب ان تلبيها الحكومة ،

فاجابه بأن المطلب الاول هو عدم عودة جمال باشا الى منصبه في دمشق ، والثاني هو تغيير السياسة التي اتبعها الوزير المشار اليه في البلاد العربية ، والثالث هو عودة المتغيبين الى بلادهم . ولمح بأنه قد يثير المبعوثون مطالب اخرى. واتصل السفير برقيا بطلعت باشا واوصاه بقبولها وتنفيذها فورا، فجاء الجواب بالموافقة على ما ذكره والدي وبطلب سرعة عودته للعاصمة. ولما وصل والدي الى الاستانة اجتمع فورا مع طلعت باشا ، فأكد لـــه المشار اليه موافقته والوزراء على النقاط التي طلب منه تحقيقها ، وانه ابلغ الولاة بالسماح للعائلات العربية بالعودة الى اوطانها ، ثم وعده بتعيين جمال باشا الملقب بالصغير خلفا لجمال باشا الكبير . وكان الاول محبوبا ومعروفا في دمشق ، بحلمه وحسن تقديره الامور .

وعلى اثر ذلك دعا والدي المبعوثين العرب الى داره وابلغهم ما حصل . فوافقوا بالاجماع على المطالب التي ابداها ، واضافوا عليها بعض المطالب من الدرجة الثانية،وبعض المطالب الشخصية. وهكذا حلت ازمة تجديد امتياز شركة الريجي التي توليت عندما كنت وزيرا للمالية في ١٩٤٩ امر شرائها وجعلها مؤسسة وطنية بحت . وبذلك عادت الاسر العربية المشردة في الاناضول الى وطنها ، وجمدت سياسة القضاء على العرب . وقد اوردت هذه القصة الواقعية للتدليل على مقدار نفوذ والدي لدى نواب سورية ولبنان وفلسطين والعراق واليمن ـــ ذلك النفوذ الذي حمل طلعت باشا على استخدامه لمصلحة حكومته ، كمـــا استخدمه والدي لتحقيق بعض الامور العاجلة لمصلحة ابناء امته العربية .

اما الدليل الثاني على متانة زعامة والدي في دمشق فهو حينما دعـــا الامير فيصل جميع الناخبين الثانويين في سورية وفلسطين لانتخاب نواب للمؤتمر السوري الـــــذي قرر جمعه لمجابهة بعثة الاستفتاء التي كانت مهياة للحضور الى هذه البلاد بغية استطلاع رايها في شكل الحكم المقبل ومدى قبولها الانتداب .

ذلك ان جميل مردم وعزت دروزة جاءا ذات يوم الى والدي وابلغاه بانهما ورفاقهما الشبـــــاب العاملين في الحقل السياسي المسيرين للاتجاه العام ، وكانوا معروفين باسم « رجال الغيب » ، قد قرروا ترشيح والدي عن دمشق . ولكنهما رفضا ان يلبيا رغبته في معرفة اسماء بقية المرشحين ، فاشماز والدي وصرفهما . ثم استدعى اصدقاءه ذوي النفوذ في الاحياء والف معهم قائمة مستقلة

اشترك بها هو كرئيس لها . وكانت تتألف من عبد الرحمن باشا اليوسف والشيخ تاج الدين الحسيني والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ محمد المجتهد وفوزي البكري واحمد القضماني وجورج عويشق ويوسف لينادو وعزت الشاوي . اما الشيخ مسلم الحصني فقد اعتبر نائبا بدلا عن المرحوم والدي اثـر وفاته . اما قائمة « رجال الغيب » فكانت مؤلفة من جميل مـردم وشكري القوتلي والدكتور احمد قدري وغيرهم . فلما جرت الانتخابات النهائية فازت قائمة والدي بمجموعها وفشلت قائمة مرشحي الشباب التي كان يؤيدها علنا الامير فيصل ورضا باشا الركابي، الحاكم العسكري . ولم يقتصر فوز والدي على هذا الشكل ، بل انه عندما اجتمع المؤتمر السوري وبوشر بانتخاب رئيسه ، جرب « رجال الغيب » ترشيح هاشم الاتاسي . لكن والدي فاز بأكثرية ساحقة .

وثمة حادثة ثالثة تؤيد قولي وهي ان مستر ويلسون ، رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، اوفد الى سورية ولبنان وفلسطين هيئة برئاسة مستر كراين لاستطلاع راي اهـل البلاد في مصيرهم السياسي وفي هل يقبلون الانتداب الذي كانت تطالـب بريطانيا وفرنسا بفرضه على الشرق الادنى ، وفي من هـي الدولة التي يختارونها منتدبة عليهم .

وبينما كان يظن ان هذه الهيئة ستكون مؤلفة من مندوبي الدول الثلاث ؛ اذا بفرنسا وبريطانيا تنسحبان باللحظة الاخيرة وترفضان الاشتراك بها خشية ان ترتبطا معنويا بنتائج الاستفتاء . وعلى ذلك اقتصرت اللجنة على المندوبين الامريكيين . واعلن نبأ قدومها في صيف ١٩١٩ .

وذات ليلة جاء رسول من لدن الامير فيصل وسلم والدي بطاقة كتب عليها الامير بخط يده يطلب موافاته في الغد الباكر لامر هـام . فلبى والدي الدعوة وظل في مقابلة الامـير ما يزيد عن الساعتين ، عاد بعدها واعلمنا بأنه اوضح له الحالة السياسية وما لقيه من رفض كليمانصو سماع ما اراد الامير ادلاءه فيمؤتمر الصلح من طلبات ورغبات باسم الشعب السوري ، رافضا الاعتراف به ممثلا عن سكان هذه المناطق ، مما ادى الى تعكر الجو واستفحال الازمة . لكنها انتهت بقبول اشتراك الامير بمؤتمر الصلح نائبا عن والده، بصفته ملكا على الحجاز، لا ملكا على العرب، كما كان اعلن عن نفسه . واوضح الامير لوالدي الحاجة الملحة التي يشعر بها

وهي الاعتماد على بريطانيا لتحقيق استقلالنا ودفع خطر الانتداب الافرنسي على سورية ولبنان . واسر له ان لويد جورج ، رئيس وزراء بريطانيا ، طلب اليه ان يعمل على توجيه الشعب في سورية ولبنان نحو ابداء رغبته في الحصول على مساعدة بريطانيا . وسال الامير راي والدي في ذلك ، فأجابه بأن معنى ذلك قبول الانتداب الانكليزي . فكيف نستطيع مواجهة التيار الشعبي الذي يرفض اي انتداب ويطالب بالاستقلال التام الناجز ، لا سيما ان الذي دفع الشعب في هذا التيار هو الامير نفسه ؟ فقال الامير « هذا هو مــا اردت التعاون معكم لاجل النجاح بــه . »

وظل الامير يصر حتى وعده والدي بالاجتماع الى النواب والبحث معهم . لكن الامير ظل مصرا عليه بلزوم تاييد هذا الراي امام النواب وبذل الجهد لحملهم على الموافقة عليه .

ولم يكن جميع المشتغلين بالسياسة متفقين مع الامير على خطته هذه . وكان في عدادهم متطرفون لا يتاخرون عن الصاق تهمة الخيانة بكل من يقبل بأي تساهل وبالرجوع خطوة ولو بسيطة عن الاستقلال الناجز . وكان فيهم من يشــــعر بأن الانكليز يريدون ، بحمل السوريين على المطالبة بمساعدتهم وبانتدابهم ، الحصول على مركز اقوى من مركز الافرنسيين ليساوموهم على منافــع وامتيازات ، ثم يتنازلون لهم عن سورية .

وفي الواقع لعب الساسة البريطانيون دورا خبيثا في هذه القضية . فبعد ان ابدى الشعب السوري للجنة الاستفتاء رغبته في المساعدات البريطانية ، اضطر رئيس وزراء فرنســـا لمساومة لويد جورج . فتنازل لانكلترا عن منطقة الموصل التى كانت بموجب اتفاقية سايكس — بيكو من نصيب فرنسا ، كما قبلت هذه الاخيرة بأن تكون فلسطين تحت الانتداب البريطاني في حين ان المتفق عليه سابقا ان تكون دولية . وهكذا ضحكت انكلترا بدهاء ساستها على ذقون السوريين وعلى رأسهم الامير فيصل .

واجتمع والدي ، بادىء ذي بدء ، الى زملائه نواب الشام وتبادل الراي معهم . ثم اجتمع الى سائر النواب ، زمرا زمرا ، وانتهى به الامر ، بعد الجهد والتعب ، الى ايجاد الصيغة الاتية :

١) التمسك بطلب الاستقلال الناجز بدون حماية او وصاية او انتداب .

٢) دعوة الولايات المتحدة لتقديم المساعدات الفنية والارشادات العملية .

٣) اذا لم تقبل الولايات المتحدة مد يد المساعدة ، يطلب من بريطانيا القيام بذلك .

٤) رفض الانتداب الافرنسي رفضا باتا .

٥) رفض الهجرة الصهيونية الى فلسطين والاحتجاج على وعد بلفور .

٦) تنصيب الامير فيصل ملكا على المملكة السورية بحدودها الطبيعية .

وتقرر بعد موافقة النواب على هذه الصيغة واطلاع الامير فيصل واقراره اياها ان تعقد اجتماعات عديدة بدمشق تعلن فيها هذه القرارات ويمهد لقبولها لدى الرأي العام .

وعقد اول اجتماع بدار احمد افندي الحسيني . وعندما بدأ والدي بيانه ، قفز الدكتور احمد قدري ، وهو طبيب الامير وقرينه وصاحب الكلمة العليا في القصر ، وراح يكيل التهم والشتائم لوالدي ولسائر المجتمعين ناعتا اياهم بالمتآمرين على استقلال البلاد وبالمتاجرين بحريتها وبمستقبلها ، فساد الهرج والمرج وكاد ان يحصل ما لا يحمد عقباه بين جماعة والدي والنواب وبين الشبان الذين اتى بهم الدكتور قدري وكلهم من اعضاء النادي العربي المتحمسين المندفعين شأن جميع شبان العالم لا يعالجون الامور الا بالهياج والتطرف ولا يتركون لراجحي العقل اصحاب الخبرة والنظر البعيد ان يمحصوا الأمور ويجدوا لها الحل المناسب .

وانفرط الاجتماع وذهب والدي ومعه النواب الى قصر الامير ليعرضوا عليه الامر ويحتجوا على مسلك طبيبه وقرينه . فاستقبلهم الامير بوجه عابس وطلب اليهم بيان ما يريدون . فقال له والدي انك يا سمو الامير دعوتني وطلبت مني ان اعمل على الدعاية والترويج لما وجدتموه مؤتلفا مع مصلحة البلاد من خطة سياسية عامة . ولبى النواب رغبتكم واجتمعوا الليلة ليطلعوا الرأي العام على هذه الخطة وعلى ضرورة توحيد الكلمة على اساسها امام لجنة الاستفتاء ، واذ بصديقكم الدكتور قدري — وكان حاضرا الى جانب الامير — يقذفنا بالشتائم والتهم في وطنيتنا واخلاصنا ، فهذا ما لا نقبله وما نرجو من سموكم وضع حد له . فأجابه الامير ان الدكتور مخلص لوطنه ولا يقول الا ما يوحيه له وجدانه . وهكذا بدا لوالدي ان

الامير لا يريد التخلي عن الدكتور وان لا فائدة من الجدل ، فانسحبوا من الجلسة وعاد كل منهم لداره . وبعد يومين استدعى الامير والدي مرة اخرى ، فاعتذر لسوء صحته ، فألح الامير ، فلم يسع والدي الا الذهاب . فبادره الامير بشرح ما حصل ، قائلا انه لم يكن له بد من مسايرة الدكتور ومن لف لفه من الشبان المتطرفين والتظاهر بعدم معارضتهم . غير انه لا يزال عند رأيه ولا يرى دونه سبيلا لانقاذ البلاد من استعمار الافرنسيين . ورجا والدي ان ينسى ما مضى وان يظل معه وان يعاونه في مسعاه . واكد لي والدي بأنه اقتنع بموقف الامير لئلا يضطر الى الرضوخ لآراء المتطرفين فيما اذا لم تسنده الطبقة المعتدلة ، فتسير البلاد الى الهاوية . وهكذا وعده والدي بما اراد ، وافترقا والبشر يعلو جبهة الامير فرحا وانشراحا.

وصول هيئة الاستفتاء الامريكية

ثم وصلت الهيئة الامريكية فاستقبلها الشعب بحماس كبير ولافتات كتب عليها بحيا ويلسون حامي الحريات ـ الاستقلال او الموت ـ العرب يريدون الاستقلال ويرفضون اي انتداب ـ الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ـ لتسقط فرنسا ـ لتسقط الصهيونية وليسقط بلفور . وكانت الهتافات تصل عنان السماء والمظاهرات تمر امام فندق فيكتوريا وامام مقر المؤتمر السوري يقودها الشبان المتحمسون وينادون بالاصوات العالية : « لا حماية ، لا وصاية ». وكانوا ينشدون الاناشيد الحماسة :

انت سورية بلادي ... انت عنوان الفخامة
وعلى ام القرى منا سلام ... على من في بواديها اقاموا
على حامي الحمى في القبلتين ... امير المؤمنين قرة كل عين
خليفتنا ومولانا الحسين ... سلاما عرفه كالمسك طاب

وقابلت هيئة الاستفتاء اول ما قابلت وفد المؤتمر السوري وعلى رأسه والدي فقدم لها مذكرة ضافية لا تخرج عن مضمون القرارات التي ذكرناها فيما سلف . واضاف والدي الى البيانات التي ادلى بها الاعضاء وقال اننا معشر المسلمين لا نجيز اقامة التماثيل ولكننا مستعدون لاقامة تمثال كبير للرئيس ويلسون احتراما بما له من فضل في سبيل تحرير الشعوب وعربونا على ما سنكن له بقلوبنا من منة لانقاذنا من خطر الانتدابات والصهيونية . وآمن المتعممون من اعضاء الوفد على كلام والدي فسر اعضاء الهيئة الامريكيون ايما سرور . وقد اجمعت البلاد السورية وفلسطين على المطالب التي ذكرتها آنفا وهي الاستقلال التام ، وطلب مساعدة

الولايات المتحدة والا فمساعدة بريطانيا ، ورفض فرنسا والصهيونية، واقامة مملكة دستورية تحت تاج الملك فيصل . واما في لبنان فأجمع المسيحيون على طلب انتداب فرنسا ، وانقسم المسلمون شطرين : شطر طالب بالانتداب الافرنسي ، وشطر ضم صوته الى اصوات سورية وهو قلة .

وجدير بالاسف ان النتائج التي حصلت عليها هيئة الاستفتاء لم تصل الى مجلس الاربعة — وهم ويلسون ولويد جورج وكليمانصو ورئيس حكومة ايطاليا — الذي اخذ على عاتقه تحضير معاهدة الصلح وتقسيم اراضي الدولة المغلوبة ووضع مصير العالم الجديد . وعدم وصولها يعود الى معارضة فرنسا الشديدة . واما بريطانيا ، فبعد ان ظهرت نتائج الاستفتاء ساومت فرنسا فوضعت في جيبها الموصل وفلسطين وتركت لفرنسا سورية ولبنان بعد اقتطاع المنطقة التي اسميت فيما بعد بشرق الاردن . وبذلك انتهت فصول الرواية التي لعبها الداهية لويد جورج دون ان يؤمن لصديقه الامير فيصل عرش سورية مع انه مدين له بتحقيق اطماعه .

هذه صفحة من صفحات جهاد سورية في سبيل استقلالها والمؤسف ان احدا من الذين اشتركوا به فعلا لم يدون ذكرياته المفصلة عن الحقبة من الزمن بين دخول الامير فيصل دمشق فاتحا بتشرين الاول ١٩١٨ وخروجه منها مهزوما بتموز ١٩٢٠ . فبهذه الاشهر الاثنين والعشرين مرت سورية بأكثر ايامها غليانا ونشاطا . فهي ، بعد ان خرجت من دور الهدوء المطلق ايام الاتراك ، استفاقت دفعة واحدة ووجدت نفسها حرة طليقة بعد القيود والمظالم ، فراح شبانها وشيبها يروحون ويجيئون في الشوارع هاتفين منشدين .. يسقطون من يشاؤون ويهتفون لمن يحبون دون معارض ، لا الدول الكبرى تنجو من سخطهم ولعناتهم ولا رجال السياسة العظام من هتافاتهم العدائية . ولم يكن رجال الشرطة يعارضون مظاهراتهم ، ولا الحكومة تحاسبهم . وكيف تفعل ذلك وهي التي تدفعهم الى الشارع بدلا من انتسوقهم الى المدارس او الثكنات لتعلمهم وتصنع منهم جنودا وضباطا يقودون معركة الاستقلال التي لا بد انها كانت قادمة .. وهذا شأن الحكومات الضعيفة التي تستند الى الشارع لتثبيت اقدامها . فهي تلهب القوم حماسا واندفاعا ولكنها في سبيل تجهيز جيش منظم وتدريبه على صنعة الحرب لا تتحرك قيد انملة ... وعندما تهب ريح المعركة ويهجم العدو على الحدود تسارع

للتفاوض وتسريح الجيش .. ثم ترفع الاعلام البيض وتلقي عن اكتاف اعضائها اعباء المسؤولية وتستقيل تاركة الحبل على الغارب، وآل علي تندب عليـا .

لم يكن في مقدور سورية في الواقع ان تحارب فرنسا ــ وقد انتصرت على المانيا ــ وتجابه هجومها لاحتلال البلاد لفقدان التعادل في القوى . ولكن لا يستطيع احـد ان يمـاري ويدعي انه لـم يكن بمقدورنا ان نجهز جيشا منظما يصمد في ميسلون شهرا او اسبوعا على الاقل ... فثمة شعوب عديدة قاتلت دولا قوية اشهرا مديدة بل سنين طويلة ... واقرب مثال على ذلك مجاهدو الجزائر الابطال الذين مضى على حربهم ضد فرنسا اكثر من خمس اعوام . ثم الم تقاتل سورية في ثورتها عامي ٩٢٥ و ٩٢٦ مدة تقارب السنة او تزيـد ؟

صحيح ان الغلبة كانت في النهاية للاقوى وانتهت الثورة بدون نتيجة عاجلة ، الا ان البلاد رفعت راسها بها عاليا . كما ان الثورة اذكت في النفوس روح الوطنية وفتحت باب الصراع السلمي المتواصل ضد الانتداب حتى جر ذيل فشله وانسحب من سورية الى غـير رجعة . لا ادعي بأن قوانا الذاتية قهرت فرنسا واخرجتها من البلاد عام ١٩٤٥ ، ولكنني اتشبث في ان مضي البلاد في مناهضة الانتداب من جملة الاسباب القوية التي تذرعت بها بريطانيا لانذار الجنرال دوغول لسحب قواه من سورية .

ولو كنا قابلين بالانتداب او حتى بوجود فرنسا بشكل من الاشكال ، لما كان ثمة سبيل لبروز تشرشل في الميدان مهددا وفارضا ارادته بتخلي فرنسا عن هذه البلاد .

ومن هنا تبرز فكرة ضرورة الاعتماد على صداقة احدى الدول الكبرى للحصول على دعمها عند الحاجـة واما الحياد المطلق والابتعاد عن التفاهم مع احد الفرقاء الاقوياء فانه في الغالب يؤدي الى اتفاق كلمة الجميع ضدنا كما حصل عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٠ حينما توازعوا الانتدابات في مؤتمر سان ريمو ويؤدي على كل حال الى وجودنا منفردين اذا عمد فريق الى التحرش بنا كما حصل عام ١٩٤٨ عندما وقعت الواقعة بين الدول العربية وبـين اسرائيل فالتفتنا ذات اليمين وذات اليسار فلم نجد غوثا ولا معينا .

فلو بقيت في سورية حكومة وطنيـة يرئسها الملك فيصل لاستطاعت ان تقف بوجه المستشارين والمفوض السامي اكثر مما

وتفتنه الحكومات المدنية لهؤلاء بمراكزها ومنافعها . هذا راي يقابله راي مخالف وهو ان وجود الملك فيصل كان من شأنه ان يهدىء الحال ويخفف حدة التوتر بين الشعب والحكام الافرنسيين ، بحيث تنطفىء جذوة الوطنية وتنعدم فكرة مقاومة الانتداب .

وسواء قلنا بذلك الراي او بعكسه فان الامير فيصل ذهب الى كتم اتفاقه مع كليمانصو ، وبذلك انصاع لراي « رجال الغيب » . فهل كان رضوخه هذا عن قناعته بصحة رأيهم ، ام انه وجد نفسه في الساحة وحيدا لا حول له ولا قوة ؟ انه كان قادرا على تأليف حزب قوي يعضده في سياسته ، قوامه رجال لهم في البلاد قول محترم ، مثل رضا باشا الركابي وعلاء الدين الدروبي والشيخ تاج الدين الحسيني وغيرهم ممن كانوا ينضوون تحت لواء وزعامة المرحوم والدي . فيؤلف منهم وزارة تستند الى اكثرية اعضاء المؤتمر السوري وتقف في وجه جميل مردم واخوانه . وهكذا تسير بالبلاد سيرة معتدلة تقربها من التفاهم مع الحكومة الافرنسية لتخفيف شرور الانتداب ، وتهيء الشعب لمزاولة الاستقلال يوم الحصول عليه ، بجهاز واستعداد كاملين .

رايي في اتفاق فيصل ــ كليمانصو

للدفاع عن هذه النظرية والاقتناع بصحتها لا بد للمرء من ان يراجع النصوص والوثائق ، فيطلع على اتفاق فيصل ــ كليمانصو ، وعلى المعاهدة المعقودة في ١٩٣٦ بين سورية وفرنسا على يد زعماء الكتلة الوطنية والتي صدقها مجلس النواب السوري بالاجماع ، ثم يقابل بين هذين النصين . عندئذ يجد ان احكام المعاهدة هذه لا تختلف في جوهرها مع الاتفاق المذكور ، وان كان في المظاهر والتعابير فروق تبدو كأنها كبيرة لاول وهلة .

فلنجرب تحليل هذه النصوص والفوارق :

الاتفاق : تؤكد الجمهورية الافرنسية اعترافها للاهلين الناطقين باللغة العربية في ارض سوريا من كافة المذاهب ان يتحدوا ليحكموا انفسهم بأنفسهم بصفتهم امة مستقلة .

المعاهدة : ان الجمهورية الافرنسية وحكومة الجمهورية السورية بناء على تصريح الحكومة الافرنسية امام عصبة الامم بسعدها عقد معاهدة مع الحكومة السورية معتبرة ما تم من التطور في سورية ونظرا للتقدم الذي تحقق في سبيل تثبيت سورية امة مستقلة ..

الاتفاق : يعترف الملك فيصل بان السوريين لا يستطيعون في

الوقت الحاضر نظرا لاختلال النظام الاجتماعي الناشيء عن الاضطهاد التركي والخسائر المحدثة اثناء الحرب ان يحققوا وحدتهم وينظموا ادارة الامة دون مشاورة ومعاونة امة مشاركة على ان تسجل هذه المشاركة من قبل جمعية الامم عند تكوينها فعلا . وباسم الشعب السوري يطلب هذه المهمة من فرنسا . ويعهد الامر بان يطلب من فرانسا وحدها المشاورين والمدربين والموظفين الفنيين لاجل تنظيم جميع الادارات الملكية والعسكرية .

المعاهدة : الحكومة الافرنسية تقبـــل مساعدة سورية مدة المعاهدة وفقا لنصوص الاتفاق الملحق وتعترف الحكومة السورية بأن استمرار بقاء حق المرور للطائرات الجوية للحكومة الافرنسية التى تجتاز الاراضي السورية وصيانتها في جميع الظروف هي من مصلحة التحالف .

ملحق المعاهدة : وضع بعثة عسكرية تحت تصرف الحكومة السورية ونظامها وطيرانها العسكري ، تحدد مهمة البعثة وتاليفها ونظامها بالاتفاق بين الحكومتين . ولما كان من المرغوب فيه ان يكون التدريب والتعليم واحدا في الجيشين فان الحكومة السورية تتعهد بان لا تستخدم سوى الافرنسيين بصفـــة معلمين او اختصاصيين . يطلب هؤلاء المدربون والاختصاصيون من الحكومة الافرنسية ويرجع امرهم في الادارة والانضباط العام الى رئيس البعثة العسكريـــة . ويجوز أن يعهد الى ضباط من البعثة العسكرية القيام بقيادة فعلية مؤقتة في القوة العسكرية السورية بناء على طلب موجه الى ممثلي الحكومة الافرنسية وموافق عليه منهم .

الاتفاق : سيقيم صاحـــب السمو الامير فيصل في باريز لدى ناظر الامور الخارجيـــة مفوضا ويكـــون مأمورا بتعقيب المسائل الخارجية التي تهم الامة السورية وسيعهد الى ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها في الخارج بتمثيل مصالح سورية الخارجيـــة وسيكون للمفوض السوري في باريز مندوبون لامره في لندن وروما وواشنطون ضمن نطاق كادر السفـــارة الافرنسية ووظيفتهـــم رؤية المصالح المختصة باحوال السوريين الشخصية وسيعهـــد للقناصل بمهمة القنصلية السورية .

المعاهدة : سفير فرنسي في دمشـــق وزير مفوض سوري في باريز .

(مراجعة النصوص من الملاحق .)

الاتفاق : يعترف الامير فيصل باستقلال لبنان تحت الوصاية الافرنسية وبالحدود التي سيعلنها له مؤتمر السلم .

المعاهدة : اعترفت ضمنا باستقلال لبنان بحدوده التي اعلنها الجنرال غورو عام ٩٢٠ (لبنان الكبير) وذلك عند ذكر المباحثات التي ستجري بين سوريا ولبنان بشأن المصالح المشتركة .

ولم يذكر في الاتفاق شيء يتعلق بشؤون النقد بينما ربطت المعاهدة النقد السوري بالنقد الافرنسي ربطا محكما على اساس التعادل القائم اذ ذلك وهو ليرة سورية = ٢٠ فرنكا افرنسيا .

وما يجدر ذكره اننا لو بقينا حتى الآن على هذا الارتباط لانهار سعر الليرة السورية اثر انهيار الفرنك الافرنسي الى التعادل الاتي : ليرة عثمانية ذهبية = ١٨٠ ليرة سورية بينما هي الان لا تساوي اكثر من ٣٠ ليرة سورية . وقد اتيت على بحث هذا الموضوع مفصلا في الجزء الخاص بالشؤون الاقتصادية والمالية من ذكرياتي السياسية .

وقد اعترفت المعاهدة المذكورة لفرانسا بقاعدتين جويتين ، كما اعترفت لها بحق استعمال الطرق ووسائط النقل الحديدية والمرافيء

ومن جهة ثانية ، اذا قارنا ما جاء في هذه المعاهدة من مجمل الاحكام فاننا لا نراها بعيدة عما طلب الجنرال غورو تحقيقه في ١٩٢٠ من شروط ذكرها في الانذار الذي بعث به الى الملك فيصل .

ومن ناحية ثالثة لا نرى اختلافا كبيرا بين نصوص هذه المعاهدة ونصوص المعاهدة التي وقع عليها حقي العظم مع دومارتيل في ١٩٣٣ ، وقامت قيامة مجلس النواب والشعب ضدها .

واليك ايها القارىء النقاط الجوهرية في النصوص الاربعة المشار اليها :

١ ــ وجود فرانسا في سورية كدولة حامية او منتدبة او صديقة او حليفة هو امر مقر به في النصوص كلها . وما الاختلاف في التسمية سوى تمش « مع موضة » الزمن . ففي تشرين الثاني ١٩١٨ لم تكن جمعية الامم قد خلقت ولا وضعت في التداول تعبير « الانتداب » . وفي ١٩٢٠ ورد ذكره لانه خلق في شرعة جمعية الامم في ١٩١٩ . اما في سنتي ١٩٣٣ و ١٩٣٦ فكان الزمن المنقضي على تطبيق الانتداب قد اظهر مساوئه فثارت الشعوب ضده ، ولذلك

استبدلت الكلمة بما اسمي « التحالف » ، وهو من حيـث الاسـاس يجيز بقاء عناصر الانتـداب ولو بشكـــل مخفف او مغاير بالاسم فقط .

٢ ــ الجيش واستخدام وسائل النقل والمرافيء : النصوص الاربعة وان اختلفت الالفاظ فهي لا تختلف في المعاني .

٣ ــ المسائل المالية : في انــذار غورو والمعاهدتين اعتراف بالنقد الســوري الذي اصدره المصــرف السوري ، وهو العامل الاقتصادي للانتداب . اما اتفاق فيصل كليمانصو فلم ترد اية أشـارة اليه . ولعل الحكومة السورية اذ ذلـــك كانت تمكنت من استبقاء النقد الذي وضعت اسسه في ١٩١٨ واصدرت عملة خاصة لسورية غير مرتبطة بالفرنك .

٤ ــ المستشارون : تختلف النصوص في كيفية مجابهة قضية المستشارين والاختصاصيين ولكنهـــا في مجموعها لا تنبذ الفكرة . فهي تقبل المبدا وتسعـــى لتحديد العدد وتختلف فيما بينها على ذلك فحسب .

والفروق بين هذه النصوص الاربعة ان كانت تتجلى في الميـــل لمصلحة سورية ، فالفضل بذلك عائد الى التضـحيات التي بذلها الشعب السوري في سبيل مناهضة الاستعمار . فالمظاهرات العدائية واقفال الاسواق اسابيع عديدة كل مرة ، والاحكام الصادرة واعتقال المئات من المشتغلين بالقضية الوطنية ، والثورات المسلحة التـــي قامت في حماة وغوطة دمشق وجبل الدروز وحوران ، بالاضافة الى المساعي السلمية التي كان الوفد السوري يقوم بها في محيط جمعية الامم في جنيف ، والمناقشات الحامية التي كان يواجهها مندوب فرانسا في لجنة الانتداب ، كل ذلـــك جعل قيـــود النصوص تخف تدريجيا بمضي الزمن . فما كانت عليه سورية في ١٩١٩ و ١٩٢٠ من حال اثر معركة ميسلون وانهزام فلول الجيش السوري لا يشبه بأي حال وجه سورية بعد ان اظهرت خلال ستة عشر عاما من مقاومة سلبية وايجابية ما رفع راس البلاد عاليا وجعل الافرنسيين يقتنعون بأن لا سبيل لهم الا باتفاق مع السوريين . وهكذا فعلوا عند عقد معاهدة ١٩٣٦ .

فهل كان بامكان المفاوضين السوريين ان ينالوا من الشروط ما هو اصلح مما حصلوا عليه ؟ اربما لا . لكن الذي نلومهم عليه هو ما اعلنوه اثر عودتهم من باريز . فسعد الله الجابري يقول : « لم يبق

لدى الافرنسيين سوى ان يعطونا مرسيليا . »

وفارس الخوري يصف المعاهدة بانها معجزة القرن العشرين.

فهذه الاقوال المخالفة للواقع ادت الى اعتقاد الافرنسيين بانهم تورطوا في منح سورية اكثر مما يجب ، وانهم اضعفوا مركزهم فيها . فاعترض العسكريون على المعاهدة واهملوا تقديمها لمجلس النواب ، مما حمل جميل مردم على السفر مرتين الى باريز لمحاولة اقناع حكومتها بابرام المعاهدة . لكنه وجد نفسه مضطرا لعقد ملاحق جديدة اعتبرت في سورية ضارة بالمصلحة . واعلن فارس الخوري رئيس مجلس النواب مخالفته لما جاء في النصوص الجديدة ، فلم تجرا الحكومة على تقديمها للمجلس ، وبذلك بقيت هي والمعاهدة الاصلية طي الملفات .

وهكذا ولدت المعاهدة ضعيفة هزيلة . ثم اوثقت بقيود ورباطات سدت منافسها ، فماتت غير مأسوف عليها . والغريب ان الفريق الذي طالب فيما بعد باحيائها وتثبيت العلاقات السورية الافرنسية على اسسها كان الجنرال كاترو الذي ناهضها حين ابرامها وبذل جهده لعرقلة ابرامها . اذ ان كاترو عام ١٩٣٦ لم يعد هو هو عام ١٩٤١ .

وفي هذه الفترة من الزمن كانت فرنسا مسرحا لخيول الالمان ، وكان رئيسها يعالج في فيشي امورها المحلية . اما الجنرال ديغول ، زعيم نهضتها ، فكان ما يزال في برازافيل بالكونغو يسعى مع شرذمة من فلول جيش فرنسا قوادا وافرادا ، لاستبقاء كيان وطنه في صف الحلفاء . وسورية لم تعد محتلة من قبل الجيش الافرنسي فحسب، بل جاءت الجيوش البريطانية واستولت على الشؤون العامة ولم تترك للافرنسيين سوى مقعد صغير يجلس عليه ممثل فرنسا وهو يميد من تحته ويتأرجح .

وكان ممثل بريطانيا الجنرال سبيرس لا ينفك يحاول زحزحة اركان النفوذ الافرنسي في سورية . فلما وجد كاترو وديغول الا مفر من التفاهم مع السوريين لاستبقاء ما يمكن من مخلفات الانتداب، سعيا لدى شكري القوتلي في ١٩٤٣ اي قبل الانتخابات العامة ، لاقناعه بالرجوع الى احكام معاهدة ١٩٣٦ ، لقاء تأييد انصاره من المرشحين للنيابة او على الاقل عدم مناهضتهم .

وتوصل الفريقان الى حل وسط لم يعلن رسميا في حينه ، لكنه اتضح فيما بعد حينما اخلف القوتلي بوعوده فانشى الافرنسيون

السر . واللعبة البارعة التي لعبها القوتلي هي انه طمئن الافرنسيين فانخدعوا باقواله ووعده ولم يعارضوا ترشيحه لرئاسة الجمهورية، مع ان عدد النواب الذين كانوا يتلقون الايحاء من الجنرال كوله لم يكن قليلا . ومن جهة ثانية ، بعث القوتلي دعاته ينشرون الدعاية له على انه خير من هاشم الاتاسي لتولي رئاسة الجمهورية لانه غير مرتبط مع الافرنسيين باي التزام في حين ان الاتاسي كان ارسل الى كاترو كتابا بقبول الرجوع الى احكام معاهـدة ١٩٣٦ . وكانت لعبة القوتلي ناجحة ، ولو انها كانت مطلية بطلاء التضليل والمراوغة. فابعدت الاتاسي عن قصر المهاجرين والجنرال كوله عن قصر الصالحية وتم الامر لمن احكم فصول هذه التمثيلية .

وفي انتخابات رئاسة الجمهورية في ١٩٥٥ لعب شكري القوتلي لعبة مماثلة ليظفر بالرئاسة . فاغرى عبد الناصر والامير فيصل بن عبد العزيز بدعم مشروعهما بضم سـورية الى جبهتهما لمناهضة العراق ، كما وعد العراقيين بان لا يعارض حلف بغداد . وكانت النتيجة ما اراد . اذ دعمته في الوصول الى الكرسي كل من مصر والسعودية والعراق ولبنان وامريكا وبريطانيا وفرنسا ، مع ان بين هذه الدول تنافرا شديدا وتعاكسا في السياسة السورية . الا انه استطاع بالخـداع والتضليل كسـب تاييد الملوك والرؤساء المتنافسين ودعم الدول الاجنبية التي كانت سياستها متقاربة ، وخاصة بشان حلف بغداد . اما في الداخل فقد ادى تضليله هذا الى كسب تأييد الخصمين اللدودين : رشدي الكيخيا ومخائيل اليان اللذين لم يتفقا يوما من الايام على شيء الا على انتخاب القوتلي . ولم يحصل هذا الاتفاق الا لسبب ارتباط هذين النائبين بالسياسة الانغلو اميركية .

ظل الامير فيصل تحت رحمة « رجال الغيب » حتى دعاه البريطانيون الى لندن في شـهر نوفمبر ١٩١٩ وابلغوه هناك بان الجيش البريطاني سوف ينسحب من سورية ونصحوه بالحاح بان يتفاهم مع الحكومة الافرنسية . لكنه هذه المرة ايضا لم يجرؤ على تغيير السياسة التي كان يفرضها عليه افراد جماعته بدمشق ، بل راح بناء على تخطيطهم يؤلف العصابات ويمدها بالمال والاسلحة للتحرش بالافرنسيين وازعاجهم . ولئن اذكت هذه الاعمال جذوة الوطنية في البلاد الا انها لم تثمر الا بايغار ضغينة الافرنسيين ضده ، فانقطع الامل بابقـائه على عرش سورية . ومنع الامير فيصل الافرنسيين من استخدام السكة الحديدية السورية لنقل جيوشهم

الى كيليكيا لمحاربة الاتراك ، ويا ليته كسب بذلك منة مصطفى كمال باشا ، وكانت النتيجة ان اضطر الافرنسيون للتفاهم مع الاتراك والانسحاب من تلك المنطقة.ثم توطدت العلاقات الطيبة بين الفريقين بزيارة فرانكلان بويون الى انقرة وتنازل فرنسا عن محافظة الاسكندرون فيما بعد . فلو دعم الامير فيصل آنئذ الحركة التركية الفتية التي حمل لواءها مصطفى كمال لحال دون تفاهم الافرنسيين معه ، ولما إنتهت قضية الاسكندرون على الشكل الذي انتهت اليه في ١٩٣٨ .

وهذا مثال آخر عن طيش رجالاتنا السياسيين من امثال « رجال الغيب » في المحاربة على جميع الجبهات ، دون استبقاء صديق او نصير .

تنصيب فيصل ملكا على سورية

في اذار ١٩٢٠ تقرر تنصيب الامير فيصل ملكا عن سورية . ولست ادري ماذا استهدف هو ورجال الغيب من وراء هذه الخطوة: هل كانت ترمي الى وضع الدول الاجنبية تجاه الامر الواقع ، ام الى اقامة حكم دستوري نيابي يجعل الحكومة مسؤولة تجاه المؤتمر السوري ؟ اما الاجانب ، سواء كان فيصل اميرا او ملكا ، فلا تتغير نظرتهم اليه، ولا يزيد في اعينهم اعتلاء تاج على مفرقه ، ولاتجعلهم يعدلون عن ما بيتوه بحق سورية من خطة وسياسة .

واما الحكم النيابي فكان « رجال الغيب » مسيطرين على فيصل كما كانوا مسيطرين على المؤتمر السورى ، لا سيما بعد وفاة والدي في ١٤ / ١١ / ١٩١٩ . ولربما قصدوا السيطرة على سير امور الوزارة مباشرة ، وذلك باصدار دستور وربط مقدرات الحكومة بالمؤتمر ومشيئته .

وقد جرت حفلة البيعة ببهو دار المجلس البلدي صباح ٨ اذار ١٩٢٠ . وقد دعينا للسراي الكبرى . وعندما تكامل عدد المدعويين سير بهم الى دار البلدية فغص بهوها بالنواب ورجال الدين والوجهاء والموظفين . وحضر الحفلة الكولونيل كوس الافرنسي ، الضابط المنتدب من قبل غورو لدى فيصل ، فاعتبر الناس حضوره دليلا على اعتراف فرنسا بالوضع الجديد .

ولم يكن في البلاد عرش يليق بالملك الجديد . فلما اعيت الحيلة رئيس البلدية ، حمدي الجلاد ، تبرع احد اعضاء البلدية ابو الخير القرا بتقديم كرسى من داره وكان مزينا بالصدف والعاج من النوع الذي كانت صناعة دمشق تتباهى به .

ووصل الامير فيصل في موكب حافل ، فعزفت الموسيقى ودخل دار البلدية واستوى على العرش . والقى رئيس المؤتمر السوري هاشم الاتاسي خطبة وجيزة تلى فيها القرار التاريخي الذي اتخذه المؤتمر باعلان المملكة السورية وتنصيب الامير فيصل ملكا دستوريا عليها . فاطلقت المدافع مئة طلقة والقى الملك كلمة وجيزة . ثم بدات الجموع تمر امامه فتبايعه بالمصافحة . وكانت الحماسة على اشدها والبهجة على اكملها . ولم يكن بين الحاضرين من جاء منافقا . الجميع يبدون فرحتهم الصميمة ويبتهلون الى الباري تعالى بأن يرعى استقلال البلاد ويحمي مليكها المحبوب . ورفع العلم الجديد على سارية واجهة دار البلدية وهو علم الثورة العربية ، وفيه نجمة بيضاء سباعية في المثلث الاحمر .

وفي اليوم التالي دعيت السـرايا للاشتراك في حفلة تنصيب الوزارة الجديدة . واجتمع في البهو الكبير جمع كبير . ثم حضر الرئيس الجديد وتلى الكتاب الموجه من الملك فيصل الى رضا الركابي المصدر بعبارة « وزير سمير المعالي السيد رضا الركابي » ، وهي ترجمة حرفية لما كان مالوفا في قصر بيلدز العثماني عند مخاطبة الصدر الأعظم : « وزير معاليسميرم . » واظن ان الذي اوحى بهذه الديباجة هو احسان الجابري الذي اختير رئيسا للبلاط الملكي ، فجرى على ما تعلمه حينما كان في دائرة التشريفات بالمابين العثماني اي في قصر بيلدز الذي كان مقرا للسلطان عبد الحميد .

اول وزارة وطنية في عهد الملك فيصل

واليكم اسماء الوزراء في اول وزارة دستورية :

الرئيس : الفريق علي رضا الركابي (من رجال الجيش)

رئيس مجلس الشورى : علاء الدين الدروبي (والي دمشق سابقا ومن رجال الادارة العثمانيين البارزين)

وزير الحربية : اللواء عبد الحميد القلطقجي (من كبار رجال الجيش)

وزير الداخلية : رضا الصلح (والد رياض الصلح)

وزير الخارجية : سعيد الحسيني (من كبار وجهاء القدس)

وزير المالية : فارس الخوري (وكان نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثان العثماني)

وزير الحقانية : جلال زهدي (وهو من رجال القضاء البارزين)

وزير المعارف : ساطع الحصري (وهو من رجال التعليم)

وزير التجارة والزراعة : جورج رزق الله .

وبعد يومين تقدمت الوزارة امام المؤتمر السوري لتلاوة بيانها، فنالت ثقة المجلس . وكان المجلس انتقل من البناية التي يشغلها امام جسر فيكتوريا الى بناية العابد بساحة المرجة .

ورغم ان رضا الركابي كان من اعضاء حزب الاستقلال ومن «رجال الغيب» فانه كان عاقلا بصيرا لا تتآلف طبيعته مع هوج رفاقه. لذلك اضطر للاستقالة ، فعهد الى رئيس المؤتمر السوري هاشم الاتاسي امر تأليف الحكومة الجديدة ، فجاءت على الوجه الآتي :

رئيس الوزراء : هاشم الاتاسي (رئيس المؤتمر السوري ومن رجال الادارة العثمانيين)

رئيس مجلس الشورى : علاء الدين الدروبي (ابقاء)

وزير الخارجية : الدكتور عبد الرحمن الشهبندر (من زعماء الوطنيين الشباب)

وزير الداخلية : رضا الصلح (ابقاء)

وزير الحربية : يوسف العظمة (من الضباط الشباب المتطرفين)

وزير المالية : فارس الخوري (ابقاء)

وزير الحقانية : محمد جلال زهدي (ابقاء)

وزير المعارف : ساطع الحصري (ابقاء)

وزير التجارة : جورج رزق الله (ابقاء)

وعندما تقدمت الوزارة الجديدة الى المؤتمر السوري لنيل ثقته (وكان المؤتمر قد انتخب الشيخ رشيد رضا نائب بيروت للرئاسة محل هاشم الاتاسي) جرت مناقشة حامية بين الحكومة والنواب المطالبين باعلان استعداد الوزارة للدفاع حربا عن استقلال البلاد. وكادت الوزارة تسقط لولا ان تداركت الامر واعلن وزير الحربية القائمقام يوسف العظمة باسمها ان وزارته هي وزارة دفاع .

وبدرت من الحكومة الجديدة بادرتان تنسجمان مع خطة الدفاع هذه ، وهما اعلان الجندية الاجبارية واصدار قانون بفرض التجنيد الاجباري. لكن ثمة ما يسمح للمرء بالتساؤل هل كانت الحكومة جادة في هاتين الناحيتين ، ام انها ارادت بهما مسايرة الرأي العام والهاء الناس ، او بالاحرى تخويفهم بطلبهم وطلب اموالهم لمصالح الدفاع حتى يرجعوا عن الحاحهم عليها وملاحقتهم اياها ؟

لا ريب في ان اعضاء الحكومة ، بمن فيهم وزير الحربية يوسف العظمة ، كانوا جميعهم — قانعين بان لا سبيل لصد اي هجوم قد تقوم به القوات الافرنسية لاحتلال سورية . فالقوى السورية

لا يمكن اعتبارها جيشا منظما مدربا يقوده ضباط متمرنون على فن الحرب . والمستودعات خالية الا من البنادق والعتاد المختلفة النوع والقياس والصنع — وكلها من مخلفات الجيوش — التركية والالمانية والانكليزية التي حاربت في الربوع السورية . والاراضي المتاخمة لتلك التي احتلها الجيش الافرنسي في البقاع وسواه لم يحفر فيها خندق لايواء الجنود ، ولم ينشأ فيها اي حصن . وما على القارىء الذي يهمه زيادة المعرفة عن هذه الحقائق الا مطالعة كتاب «ميسلون» لمؤلفه ساطع الحصري ، وزير المعارف ، في الحكومتين السوريتين اللتين تولتا الحكم منذ اعلان ملكية فيصل حتى خروجه من دمشق .

قد لا يكون في مقدور الحكومة اذ ذاك ان تخلق في اربعة اشهر جيشا يقاوم الجيش الذي هزم اكبر دولة محترفة لفن الحرب . وهذا امر غير مستغرب ولا يستوجب معاتبة الوزارة على عدم تحقيقه ، لكن الذي يستحق اللوم هو احجامها عن مصارحة الشعب بالحقيقة ولو كانت مرة مريرة ، وتضليل الراي العام والهاب حماسه ، وهي التي كانت قانعة في سرها بان البلاد لا تستطيع بهذا الجيش مقاومة الغزو الافرنسي . وكان فيصل ميالا للتفاهم مع فرنسا ولايجاد تسوية تجنب البلاد مرارة الانهزام في ساحة القتال ، وكان كبار الساسة المتقدمين في السن والخبرة والتجربة لا يعدمون وسيلة لايجاد مخرج يحفظ كرامة البلاد ويدفع عنها خزي الاحتلال والاستعمار ، ولو بقبول بعض التضحيات .

اما الحقل الخارجي فظل خاليا من اي تشبث لحمل احدى الدول الاوروبية على نصرة قضيتنا . صحيح ان الدول المتحالفة اتفقت على تقسيم البلاد العربية في مؤتمر سان ريمو المنعقد بربيع ١٩٢٠ ، وان امريكا ابتعدت عن مشاكل العالم وانطوت على نفسها ، وان روسيا كانت مشغولة في تركيز ثورتها والدفاع عن بلادها تجاه جيوش الروس البيض التي كانت تغذيها بريطانيا وفرنسا ، وانه لم يعد يحسب حساب المانيا والنمسا . لكن بريطانيا وفرنسا كانتا في واقع الامر عدوتين لدودتين تتظاهران بالصداقة وتخفيان الحقد الدفين . ومن عاصر عهد الثورة السورية في ١٩٢٥ يجد في آذان الساسة البريطانيين مرتعا خصبا لسماع شكاوى السوريين ، وفي دفائن عقولهم مراكز جاهزة ومستعدة لخلق المؤامرات والازعاجات لفرنسا في الشرق الادنى .

ويبدو لمن يتابع تاريخ الحوادث في سورية ما بين دخول الامير

فيصل اليها في ١٩١٨ ونشوب الحرب بين الدول العربية واسرائيل ، ان الساسة السوريين المسؤولين عن توجيه بلدهم وادارة شؤونها العسكرية والخارجية لم تتغير عقليتهم ولم تتبدل خطتهم من حيث تهيئة وسائل الدفاع وجعل البلاد قادرة على صون استقلالها . فكما جابهنا العدوان المنتظر من الجانب الافرنسي في ١٩٢٠ بضعف وهزال كذلك جابهنا العدوان الصهيوني الاستعماري على فلسطين في ١٩٤٨ بجيوش عربية ضعيفة في التدريب وفي الاسلحة والذخائر. واضعنا ، في الفترة التي انقضت ما بين نوالنا استقلالنا الحقيقي في ١٩٤٣ وبين دخول الجيوش العربية الى الاراضي الفلسطينية في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، الفرصة الذهبية التي فسحت امامنا لخلق جيش قوي بسلاحه متين بتمرينه . وكانت النتيجة في الحالتين واحدة : اندحار امام الجيش الافرنسي وفشل ذريع امام القوى الصهيونية ، اي اضاعة استقلالنا في ١٩٢٠ واضاعة الجزء الاكبر من فلسطين في ١٩٤٨ .

اذكر اني كنت في ١٩٤٨ وزيرا مفوضا في باريز اتلقى من الحكومة بدمشق البرقية تلو البرقية بلزوم تدارك الاسلحة والذخيرة، لكن بعد ان حلت الكارثة واشتبكت الجيوش بعضها مع بعض ، وبعد ان حظرت الدول تصدير الاسلحة الى البلاد العربية . وكان الاحرى ان يدركها الحماس منذ ١٩٤٦ ، حينما كنا قادرين على شراء الاسلحة من اي بلد اوروبي او اميركي ، دون قيد او شرط ؟

لقد بدأ تسليح الجيش السوري عمليا منذ اول صفقة عقدتها بنفسي مع الحكومة الإفرنسية في كانون الاول١٩٤٨ ، فوصل السلاح الينا على بارجة تخفرها مدرعة افرنسية في شهر شباط ١٩٤٩ . وتوالت الصفقات بعدها حتى توصلت منذ ١٩٥٥ الى الاتفاق مع حكومة الاتحاد السوفيتي وتشكوسلوفاكيا على مد الجيش السوري بما يلزمه من سلاح وعتاد ، فبلغت الصفقات المتعددة التي عقدتها مع الحكومتين المذكورتين حدا جعل جيشنا في الدرجة الاولى — بين الجيوش العربية — استعدادا وقوة .

فهل لم يكن بمقدور حكامنا في ١٩٢٠ و ١٩٤٦ ان يوجهوا انظارهم شطر الاتحاد السوفيتي لشراء الاسلحة ، ام ان الخوف من بعبع الشيوعية منعهم من ذلك ؟ وهل كانت الدولة المذكورة مستعدة لتلبية طلبنا في هذين التاريخين ؟ ليس بمقدوري ان اعطي جوابا اكيدا عن ١٩٢٠ ، ولكنني اجزم انه كان بالامكان الاعتماد على السلاح الروسي في ١٩٤٤ وما بعدها .

اما ناحية جهاز ادارة الجيش فكان ضعيفا بضباطه المتخرجين من المدرسة الحربية العثمانية ، المتمرنين في الجيش العثماني الذي انتقل من فشل الى فشل في جميع الحروب التي اشترك فيها واما افراد الجيش فواجب الحقيقة يقضي بالاعتراف بانهم لم يكونوا متحلين بفكرة الجندية على الاطلاق . اذ كان اكثرهم قد ذاق مرارة الهزائم المتوالية في حروب المملكة العثمانية ، فانكسرت معنوياتهم . واما الباقي فمرت الحروب وهو متوار عن الانظار هاربا من الجندية. فلم يكن من اليسير ، اذا ان تخلق في برهة وجيزة روحا عسكرية كالتي لا بد عنها في اي جيش .

واما المال فكان ايضــا بعيدا عن متناول يد وزير المالية . والمال ، كما يقال ، عصب الحرب . وهل يستطاع انشاء جيش والخزينة فارغة ؟ لقد حمل هذا النقص وزير المالية فارس الخوري الى التفكير بقرض داخلي يفرض على الاهلين ، على ان تحدد لجان خاصة نصيب كل فرد منه وفق ما تخمنه لديه من مقدرة مالية . غير ان هذا التدبير جاء متاخرا وفي الوقت الذي تاهب الافرنسيون للهجوم على سورية، بحيث أن نجاح القرض — على فرض النجاح — لم يكن يؤدي الفوائد المرجوة منه . وهذا برهان آخر على اننا ناتي دائما الى المحطة بعد سفر القطار .

اني اعتقد ان النقص الاكبر يمكن رده الى ضعفنا في الاخلاق والعلوم وفي سائر المقومات التي لابد منها لامة قادرة على الحياة وعلى الذود عن حياضها ، فنحن امة ويا للاسف ، لم نزل في دور الانحطاط في الحلقة المفرغة التي تدور فيها جميع الامم : صعود واستقرار ثم هبوط وركود . فهل وصلنا الى القعر فركدنا بانتظار حلول موعد الصعود ؟ اظن ، بل اعتقد ، اننا خرجنا من الحرب العالمية الاولى ونحن في مرحلة الركود في القعر ، واننا بدأنا بالصعود على درجات السلم ، درجة درجة . ولكن هزالنا يحول دون الاجراء المنظم ، فنلهث . وتخطىء قدمنا الدرجة فنقع ونرجع الى الوراء متقهقرين ، ثم نصعد الى القمة فنستريح من عناء التسلق ، وتستقر بنا الامور بهناء ورغد .

سبق ان ذكرت كم تدنت الاخلاق اثر الحروب والثورات التي ما انقطعت سلسلتها الرهيبة منذ ١٩١١ . ولم ينحصر هذا الانحلال ضمن نطاق معين . بل تجاوزه الى الامانة والصدق وحسن المعاملة وغير ذلك من المقومات الاخلاقية .

عوامل التفرقة واسباب الفساد في البلاد

ولربما كان حب المال والتفاني في سبيل اقتناصه اكبر سبب في هذا التدني ، اذ ان متطلبات الحياة ازدادت كثيرا بعد انتها الحرب العالمية الاولى وتضاعفت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . فتكاثرت المستلزمات وبات الناس بحاجة اكبر للمال يجابهون به هذا التدفق المتزايد من جيوبهم . فكيف يستطيعون مواجهة هذه الازمة ؟ ابالوقوف متفرجين على غيرهم ينفقون على البهج والمسرات وهم يتظلمون ؟ ام بالحصول على المال باية وسيلة كانت ليعيشوا شهواتهم مثل غيرهم ؟ ان الانسان يجب ان يكون ذا اعصاب قوية وعزائم صابرة حتى يرى هذا البحر من اللذائذ يسبح به غيره وهو على الشاطىء لا يشاركهم فرحاتهم .

ثم ان وسائل الترف والتسلية ازدادت اضعاف اضعاف ما كانت عليه في الماضي ، واساليب الاغراء تنوعت ولم يخترع احد علاجا قادرا على مقاومة هذه الاساليب الفتاكة كما اخترعت الادوية المتعددة لمقاومة الجراثيم بانواعها واشكالها .

ومن جهة إخرى ادرك اصحاب السلطان ان الشباب هم الفئة التي لا يستطيعون مقاومتها اذا ما هاجت وخرجت الى الشارع ، فهي كالسيل لا يرد له هدير . ولذلك عكفوا على اغراء كثير من الشبان بالمال يوزعونه عليهم راتبا شهريا او مكافأة او قرضا ، وراحوا ينظمون لهم الرحلات المغرية الى شتى البلاد . وهكذا وقع الكثير من شبان الجامعة في هذه الحبائل وانصرفوا عن الاهتمام بشؤون بلدهم الى الاستعداد للرحلات والى التزاحم على عضويات اتحادات الطلبة . ثم عملت بينهم الدسيسة والوقيعة ففرقت بينهم وجعلتهم فئات واحزابا لا يتورعون عن ايقاع الاذى بعضهم بالبعض الآخر والمشاجرة والضرب والجرح ، فيما الدساس يتفرج ويضحك لنجاح خطته الشيطانية المبنية على قاعدة « فرق تسد » .

ولم تقتصر هذه المفسدات على الطلاب ، بل راحت تلعب دورها الخبيث في اوساط الشبان المتعلمين منهم ونصف المتعلمين ، فاغدقت عليهم الوظائف ذات الرواتب السخية في الدوائر المستحدثة . ولم يشترط عليهم حيازة شهادة علمية او اجتياز امتحان ، فكانت هذه

الوسيلة من اسباب تدني كفـــاءات الموظفين وانخفاض الانتاج الحكومي .

وكذلك دخلت فئات التجار والصنـــاعيين في دوامة الاغراء والتهديد ، فراح الواحد منهم يعمل جهده لارضاء اصحاب السلطان بالنفاق وبالتاييد حتى يحصل على فائدة مادية في تجارته او صناعته او يحمي ، على زعمه ، مورد رزقه من خطر الاستيلاء والتأميم .

ويجب ان لا ننسى ذكر عامل كان له الشأن الكبير في تفرقة الكلمة وتفتت الجماعات وتراخي الناس عن حقوق البلاد ، اعني به خيبة الامل التي شعر بها الاهلون بعد ان تسلمت الكتلة الوطنية ادارة شؤون البلاد ، سواء في الفترة بين ١٩٣٧ و ١٩٣٩ ، أم في العهد الوطني الاستقلالي الذي بدأ في آب ١٩٤٣ . فقد ابلي رجال الكتلة السياسية المذكورة بلاء حسنا في قيادة الشعب بنضاله ضد فرنسا ، ، حتى ان بعضهم بذل الرخيص والغالي في هذا السبيل . ولكنهم عندما تسلموا امور الدولة بـــدت للناس مطامع بعضهم الشخصية وظهر للملأ عجزهم عن تولي الحكم واتقان فنه ، فانهار الحكم الوطني في ١٩٣٩ على يد المفوض السامي الافرنسي غبرييل بيو الذي ضرب ضربته عندما شعر بانخذال الحكم وانفضاض الناس عن الحزب القائم على ادارة البلاد . ثم انهار العهد الاستقلالي في ١٩٤٩ على يد حسني الزعيم عندما شعر بالنقمة السائدة ضد شكري القوتلي ورجال الحزب الوطني . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الحكم بيد المدنيين ، بل استلمه في الظاهر او بالخفاء وراء الستار فريق من الضباط باعوا انفسهم لدول اجنبية وصاروا آلة صماء في ايدي ممثليها في سورية ، يعملون حسب خططهم وتدريبهم . وكان آخر انهيارهم يوم اعلان الوحدة بين مصر وسورية ، حيث تداعى البناء وسقط فوق الرؤوس هادما كل ما كان العاملون المخلصون قد انشأوا في شتى الميادين ، خلال تلك الفترة القصيرة ، رغما عن الصعوبات والقيود التي كانت تغل ايديهم .

هذا جزء من كل ، ادى الى عجز سورية عن مقاومة كل غاز . ولنعد الآن الى متابعة ايراد كيفية تطور الامور في الفترة الاخيرة من حكم الملك فيصل .

لم يكن الفريق الاستعماري من ساسة فرنسا وقادتها ليرتاحوا الى بقاء نظام حكم قوي في سورية يلتف الشعب حوله ويعضده بشكل يجعل الحاكم السوري قويا في الوقوف ضد تحقيق مطامع الاستعماريين

وبرامجهم المالية والاقتصادية والثقافية في البلاد . وهـذا ما دعا حكومة مسيو ميلران — التي جاءت الى الحكم في فرنسا عقب حكومة مسيو كليمانصو — الى تعيين الجنرال غورو مفوضا ساميا ، وهو معروف بشدة بأسه وبارتباطاته الوثقى مع حزب اليمين ، ووضعت تحت تصرفه الملايين من الفرنكات لشراء الضمائر ، وزودت قواه العسكرية بالمعدات الحربية التي قهرت بها جيش المانيا والتي لا قدرة لسورية على الصمود في وجهها .

الانذار الفرنسي وسقوط عهد الملك فيصل

وبعث الجنرال غورو في الرابع عشر من تموز ١٩٢٠ بانذاره الشهير الى الملك فيصل ، يطلب فيه ان تقبل سورية بالانتداب الافرنسي وبمعاقبة من وقفوا في وجهه ، وان تسلم سكة الحديد من رياق الى الحدود التركية للجيش الافرنسي لاستعمالها في حربه مع الاتراك ، وان يقبل النقد الذي اصدره بنك سورية كعملة رسمية في البلاد وان يعمد الى تسريح الجيش السوري .

وصحا القوم عند وصول هذا الانذار واضطربت الاوساط السياسية ايما اضطراب . اما الملك فدعا الحكومة ورجال السياسة الى المشورة . وكان اعضاء الوزارة ميالين للتفاهم مع الافرنسيين لانقاذ ما يمكن انقاذه من دعامات الاستقلال ، خوفا من فقدان كل شيء وصيرورة البلاد مستعمرة افرنسية . اما رجال السياسة الذين يغلي في عروقهم دم الشباب المتحمس ويجيش في صدورهم شعور الوطنية المتطرفة — مع ان عقولهم كانت تخلو من ميزة تقدير الامكانيات، ووزنها بميزان التروي والتمحيص — رفضوا ان ينزلوا عند راي الوزراء المتئدين او يسمحوا للملك فيصل بأن يقود البلاد وفق سياسة حكيمة توفر عليها الشرور والمآسي . فثاروا عليه ، وقاموا بمظاهرات عنيفة ، وسعوا لاسقاط الوزارة في المؤتمر السوري لو لم يتدارك وزير الدفاع المرحوم يوسف العظمة الامر بتلاوة مرسوم تأجيل الجلسات .

غير ان الحكومة لم تتخاذل امام السيل الذي كان يهدد بجرفها وقررت قبول طلبات الجنرال غورو . فبعث اليه رئيس الحكومة السيد هاشم الاتاسي ببرقية رسمية تتضمن قرار الحكومة . غير ان هذه البرقية لم تصل الى بيروت . ولم يكشف حتى الآن عن سر عدم ابراق هذه الرسالة . وقد شاع ان حسن الحكيم ، وكان مديرا عاما للبرق والبريد ، عمد الى عدم ارسالها ، معارضة منه لسياسة الحكومة والملك . وقيل ايضا ان الافرنسيين انفسهم عطلوا الخطوط

البرقية لكي لا تصل الرسالة فتدخل فرنسا الى سورية فاتحة غازية. كما قيل ان ثمة سببا آخر لم يستطع احد اكتشافه . على ان واقع الامر هو ان الملك فيصل ، بعد ان تجنب دخول الجيش الافرنسي الى دمشق بقبوله شروط غورو ، عمد الى تسريح جيشه وفقا لتلك الشروط . لكنه فوجيء ببدء الهجوم الافرنسي ودخوله الاراضي السورية . وابلغه الكولونيل « طولا » ممثل غورو ان الجيش الافرنسي بدأ زحفه ، بناء على امر الجنرال غورو الذي لم يتلق برقية الحكومة السورية . فاجتمع مجلس الوزراء على الفور وقرر ايفاد ساطع الحصري وزير المعارف وجميل الالشي ممثل فيصل في بيروت للاجتماع مع غورو واعلامه بما حصل من موافقة الحكومة السورية على شروط الانذار وان رسالة القبول ارسلت ببرقية لم يعلم سبب عدم وصولها . وتوجه المندوبان فورا الى الحدود، ومعهما الكولونيل طولا ، فاخترقوا بسيارتهم سيل السيارات العسكرية والمدرعات التي احتلت سهل البقاع في طريقها الى وادي الحرير . ثم واصلت سيرها الى عاليه حيث كان الجنرال غورو في مركز قيادته . ولم تجد مساعي الحصري في اقناع القائد الافرنسي بوقف الزحف على سورية ، فرجع الى دمشق خائبا .

ولم يسع الملك فيصل ازاء ذلك الا النزول عند رأي المتطرفين. فالغى مرسوم تسريح الجيش وقرر التطوع العام واعلن حالة الحرب مع فرنسا . وعاد يوسف العظمة لجمع فلول جيشه والمتطوعين وارسالهم الى الغرب للوقوف في وجه الجيش الافرنسي . وكان المرحوم المشار اليه قانعا باستحالة مجابهة العدو والصمود امامه. فجاء الى صديق له وقال : « اني متوجه الآن الى الجبهة لاقدم للبلاد دمي استشهادا في سبيلها . واليك ابنتي الطفلة فاحمها وارعها بعنايتك . » وودعه والدموع تنسكب من عينيه . وسارت الجموع الى الجبهة ـــ اقول الجموع لانني لا استطيع وصفها بجيش منظم . فهي شراذم من الشباب والشيوخ دفعتهم حميتهم وغيرتهم على بلادهم للاقدام على تضحية يائسة لا ينتظر لها النجاح في رد العدو ولا يطلب منها سوى التشبث بتأخير هجومه بضعة ايام ، عسى الضمير العالمي يتنبه ويقف الى جانب شعب ضعيف يدافع عن حريته واستقلاله تجاه قوى عسكرية جبارة تريد السطو عليه وفرض سلطانها واستعمارها .

لكن ، يا للاسف ، فلا الجموع قدرت على الصمود ، ولا

الضمير العالمي هب من سباته . وكيف لقوى غير منظمة وغير مسلحة الا بالايمان ، وببعض البنادق المختلفة الصنع والتاريخ ، وبمدافع كان الاتراك يستعملونها لاطلاق حشوات البارود في مواقيت الصلاة بالاعياد وبايذان الغروب والفجر في اشهر رمضان ، ان تقف في وجه الدبابات والسيارات المصفحة ، وان تسقط الطيارات الافرنسية التي كانت تغير على الجموع وتبيدها بحمم قنابلها ورشاشاتها . ولم يشأ قائد الجيش يوسف العظمة ان يختبىء بمتراس او ان يبعد عن ساحة القتال،بل ظل واقفا على ذروة رابية يتلظى فؤاده بمشاهدة فلول جيشه تتراجع ويتساقط بين صفوفها الشهيد تلو الشهيد . فاراد ان يكون في عداد الشهداء . وآثر ان لا يعود الى دمشق حيا مدحورا ومغلوبا ، بل شهيدا منصورا على عدوه بثباته ومجابهة الموت ، ولتدخل فرنسا على جثته في جبهة الدفاع . حتـى لا يقال ان سورية استسلمت وخنعت ، وانما قهرت لانها كانت اضعف من فرنسا . والحرب يربحها القوي ، ولا عيب على الضعيف اذا غلب وسقط في ميدان الوغى شهيدا ، معززا ، مكرما . وقد كرمت سورية شهيدها فيما بعد واطلقتاسمه على ساحة مهمة من ساحات دمشق ، واقامت له تمثالا في حديقة وزارة الدفاع ، يشاهده كل داخل الى دمشق في وضع المدافع عن مدينته الشاهر حسامه في وجه المستعمرين . وما كان للعظمة ان يكرم بهذا الشكل لو لم يفد نفسه في سبيل بلاده ويمتشق سيف الدفاع على راس جيشه في ميسلون . رحم الله شهيدنا برحمته الواسعة . فقد كان من دعامات استقلالنا ومظهرا من مظاهر التضحية في سبيل الوطن .

معركة ميسلون واستشهاد يوسف العظمة

تعاقبت هذه الحوادث المفجعة وانا مشغول البال من جراء مرض زوجتي بالحمى ، اثر ولادتها ابنتنا «علبة» . وقد توفيت رحمها الله صباح يوم السبت في ٢٤ تموز . وكان يوما شؤما علي وعلى البلاد ، اذ دخل الجيش الافرنسي بنفس النهار الى دمشق . فكان حزني مزدوجا : على فقد الرفيقة التي اخذتها لمشاركتي الحياة ، وعلى البلاد التي فقدت استقلالها وحريتها .

وبهذا تمت المرحلة الاولى لحياة سورية المستقلة . واری الرجوع الان قليلا الى الوراء ، لاذكر حادثين كان لهما الاثر الاكبر في حياتي ، وهما : زواجي المبكر ، ووفاة زوجتي اولا ووالدي ثانيا . ولا اقصد لهذه المذكرات طابعا روائيا ، لكني ارمي الى نقل شعور الفرح والحزن اللذان غمراني في ١٩١٩ الى قارىء او قارئة يشاركاني

بهجتي ولوعتي ، عساني ادخل الى هذه الذكريات طابعا غير الطابع السياسي او القصصي الجاف .

كانت الزوجة التي اخترتها بنفسي لتشاركني مستقبلي تتردد مع امها واختهـا الى دارنا ، حيث كانت والدتي وعمتي واختي يستقبلنها كاهل واصدقاء . اذ ان والدتها كانت بنت خالة والدي .

عقد تم زواجي الاول ونهايته المفجعة

وكان هذا سبب اختلاطي بهن ، عندما كن يأتين لزيارتنا في دارنا . وقد علق قلبي بحب « سنية » على الرغم من انها كانت اكبر مني بخمس سنين . اذ طغا جمالها وخفة روحها على فؤاد الشاب اليافع الذي كنته . فصرت اترقب فرص مجيء آل راشد باشا مردم بك لانعم برؤية محط آمالي ، واتحين المناسبات لنذهب كلنا الى السيران في الغوطة او دمر . كان ذلك في اواخر ايام الحرب العالمية الاولى . وذات يوم فاجاني والدي امام والدتي بالحديث عن الزواج ، مظهرا منافع الزواج المبكر — وكنت لم اتخط السادسة عشرة من عمري — من حيث صيانة الاخلاق والتعجيل بتأسيس الاسرة . وكان هو بنفسه قد تزوج في ذات السن فتوفت زوجته ثم تزوج بوالدتي. وعندما كان والدي يتكلم في هذا الموضوع ويشيد بمحاسن الزواج، كنت افكر بمن احب واسال نفسي : هل يكتب لي تحقيق آمالي والحصول على موافقة والدي على الزواج بفتاة تكبرني سنا ؟ . وفي النهاية طلب مني ، رحمه الله ، الجواب ان لم يكن فورا فبمهلة معقولة . ولشد ما كان عجبه عندما تلقى مني جوابا ايجابيا واستعدادا للنزول عند رغبته . وخالط عجبه سرور وابتهاج ظهرا على سرائر وجهه ، فقال لي : « الله يرضى عليك ياخالد ويوفقك في حياتك . » والتفت الى والدتى التى لم تقل فرحتها عن فرحة والدي وقال لها : عليك الآن ان تخطبي له احسن بنت تناسبه .

وكانت العادة السائدة ان تزور والدة الفتى وقريباته دور العائلات المماثلة رتبة وجاها لترى الفتاة وتختبر خلقها وخلقتها ، ثم تنقل الى ابنها وصفا دقيقا لملامح الفتاة ، من حيث العيون والفم ولون الوجه وطوله او تدويره والقامة والهندام وطريقة المشي وكيفية تقديم القهوة ونغمة الصوت وطلاقة الكلام او الاستحياء . اما الطبع والاخلاق ودرجة التعليم والذكاء والشخصية الذاتية فلم يكن من المستطاع استجلاء خفاياها في زيارة رسمية لا تتجاوز نصف ساعة .

وكان العريس يكتفي بهذا الوصف ليكمل في مخيلته صورة للفتاة تبعد او تقرب من الحقيقة بنسبة مقدرة الشاب على التخيل

وبمقدرة الام على الوصف الدقيق الذي لا يخلو في بعض الاوقات من تجميل او تبشيع يناسبان استحسان الوالدة وموافقة الفتاة لهواها وذوقها .وكان والد الفتى من جهة ثانية يستعلم عن اخلاق اسرة الفتاة ومركزها الاجتماعي ويسرها المالي .

فاذا جاءت هذه الاستطلاعات موافقة لرغبة الوالد والوالدة والاهل ، ذهب الوفد النسائي ليخطب يد الفتاة ، فتستمهل والدتها ريثما تسال الوالد عن اسرة الخاطب — وفي بعض الاحوال عن الخاطب نفسه — من حيث المركز الاجتماعي والمقدرة المالية . فاذا كانت هذه مؤتلفة مع رغبات والد الفتاة وامها واهلها ، قيل لاهل الفتى ان يرسلوا رب العائلة ليزور اب الفتاة زيارة رسمية لطلب يدها والاتفاق بينهما على مقدار المهر المعجل منه والمؤجل ، وانواع القطع الذهبية والماسية التي ستقدم في الخطوبة وبصحبة العريس .

وكان المهر يتراوح بين عشرين ليرة ذهبية والف ليرة ذهبية بنسبة ثروة العائلتين ومركزهما الاجتماعي . وبعد ان يتم الاتفاق على الشؤون المالية ، يحدد يوم تحرير عقد الزواج في دار والدة الخطيبة ، ويدعى اليه الاصدقاء والاهل ووجوه القوم واركان الحكومة .

وتتم هذه المقدمات والعقود دون ان يتعرف الخطيب بخطيبته ، بل لم يكن يسمح له برؤيتها ولو من بعيد . اما هي فقد تقدم لها صورة خطيبها الشمسية فتكتفي بهذا الرسم الذي من شانه اظهار الوجه على اروع شكل .

واما الاختلاط بين الخطيبين قبل عقد النكاح فكان محظورا بتاتا ، مما يجعل التعرف على الطبائع والعقليات مستحيلا . وهكذا كان الزوج والزوجة كمن يشتري ورقة يانصيب .فاما ان تكون رابحة واما ان تكون خاسرة . وكانوا يعتقدون ان « النصيب » من صنع القدرة الالهية ، فيرتضون بما قسم لهم وتظل الروابط الزوجية متينة بفضل الانسجام الاضطراري الذي يحصل بين الفريقين . وكان الطلاق منبوذا في الطبقة العالية من القوم وتعداد الزوجات ايضا مستبعدا بين افراد تلك الطبقة. اما عند الطبقة الوسطى فلم يكن هذا الشعور متينا .

ولم يكن ليدور في خلدي ان والدي سيسير على سنة غيره ، فيبعث بوالدتي تجوب دور الوجهاء لتجد فتاة تستنسب زواجي بها. ولذلك جابهته فورا بعزمي على الاقتران بالفتاة التي اخترتها دون

الحاجة الى المراسم المعتادة . فتبسم والدي وقال لي انك من العصر الحديث . وهذه الفتاة تملك من السمعة الطيبة وجمال الخلقة ، ما يجعلها في مقدمة من ارتضيه لك ، غير انها تكبرك سنا ويحسن ان يكون الفرق بالعمر لصالح العروس لا لصالح العريس . ولما رأى مني اصرارا قال : « الله يوفق » . ثم التفت الى والدتي وقال لها : « لقد اجتزنا بفضل تقدمية ابنك المراحل الاولى لمراسم الخطبة . فما عليّ الآن الا ان اذهب توا الى صديقي راشد باشا واطلب منه يد ابنته . » وهكذا فعل . فامتطى عربته وسار الى دار المشار اليه وبادهه بدون مقدمات بما هو قادم لاجله . فارتبك الباشا واجابه بأن سنية جارية في دارك — هكذا كانت التقاليد في الكلام المتواضع — ولكننا كنا وعدنا بها ابن عمنا سامي باشا لولده حيدر . غير ان ابي لم يقبل هذا العذر واصر على طلبه ، فنزل صديقه عند رغبته لان احدا لم يكن ليرفض طلبا لوالدي بسبب النفوذ الكبير الذي كان يتمتع به في دمشق . وقرأ والدي الفاتحة وعاد الى البيت . وكنت على نار بانتظار رجوعه ، لكنني لم استطع الحصول على الجواب لانه مشى في جنازة عمه اسعد باشا العظم . وتبعته مع جميع افراد الاسرة وانا اسعى لتركيز نظري على نظره . فحانت منه التفاتة نحوي في المقبرة . وتلاقت النظرات ، فعرف انني تواق لمعرفة نتيجة مسعاه . فتبسم واوما لي براسه وغمزني بعينه مشيرا بنجاح المسعى . فعلا البشر وجهي وركضت اقبل يديه والدموع تنهمر من عيني وعينيه . وظن الناس من حولنا انني اعزيه بفقد عمه ولم يدر في خلدهم اني اشكره على تحقيق اكبر امنية في حياتي .

الواقع انه لم يكن لي آباء كثيرون لاقارن بينهم ، ولكنني اجزم بأن ابي كان ارأف اب واطيب اب واحسن اب خلقه الله . ولعلي في ذلك اعبر عن شعوري الخاص . فغيري يستطيع الادعاء بمثل ما ادعي . ولكن ماذا يهمني من كل ذلك ؟ فابي احسن اب وارأف اب . وليقل غيري ما يشاء . فبالحنان والحب تغتفر الانانية .

وصرت اجتمع مع خطيبتي — خلافا للعادات المألوفة — في دارها او دارنا ، وقدمت لها خاتم الخطوبة ولم يكن شائعا . ثم دعا والدي عددا كبيرا من الوجهاء واركان الحكومة لحفلة عقد القران بدار راشد باشا . جرت مراسم العقد امام المدعوين . كان والدي وليي ووكيلي ، وكان والد الخطيبة وليها . فجلسا وجها لوجه وبينهما الشيخ الذي تولى تلاوة التعابير المصطلح عليها : هل زوجت ابنتك

فلانة الى فلان بمهر قدره كذا ، معجله كذا ، ومؤخره كذا ؟ فيقول وكيل الزوجة : نعم زوجت ابنتي فلانة الى فلان بمهر قدره كذا الخ.. ويأتي دور وكيل الزوج فيقول : قبلت زواج فلانة من موكلي بمهر قدره الخ .. ويعود الشيخ فيقول لوكيل الزوجة : زوج وانكح موكلتك فلانة الى فلان بمهر قدره كذا ، فيقول الوكيل : زوجت وانكحت الخ .. ثم يردد وكيل الزوج : زوجت موكلي وانكحته فلانة ، الى آخره . ثم يقرأون الفاتحة . ويبدأ القراء بتلاوة السيرة النبوية والموشحات . وتوزع عند الختام على المدعوين صرات الملبس — ضمن الورق — الملون لا كما هو جار الآن اي وضع الملبس في علب مصنوعة من الزجاج او الخزف . ثم تقدم للضيوف البوظة او المهلبية حسب الموسم . وينتهي الحفل بالبهجة والسرور .

حفلة زواجي بحضور الامير فيصل والوجهاء

وقضينا الصيف في نعيم وهناء . وكان قد تحدد يوم العرس في ١١ ايلول ١٩٢٠ . وبوشر بالاستحضارات ، فجاء « جهاز » العروس وهو مؤلف من اثاث غرفة نوم وصالون من شغل دمشق ، اي ما يسمـــونه « مطعم » . وهـــو مصنـــوع من الخشـــب المنزل فيه قطع الصدف والعظم باشكال هندسية عربية ، لكنه لا يؤمن راحة الجالسين عليه . وفي عصر يوم العرس لبست البزة العسكرية التي اشار الامير فيصل على والدي بأن ارتديها وانتظرت حضور العروس . فلما وصلت في موكبها المؤلف من اقاربها ومدعويها استقبلتهم في الجناح الخارجي من الدار وسرت الى جانب عروستي وقد اسندت يدها على يـــدي . وانطلقت النساء بالزغاريد . ولما وصلنا الى باب الجناح الداخلي الصقت العروس قطعة من العجين على قوس الباب ، حسب العادات الجارية . غير ان هذه القطعة ما لبثت ان وقعت على الارض فأعادت لصقها ثانية . ثم جلسنا فى صدر القاعة الفسيحة على اريكة عــالية . ووقف حولنا الاهل والصديقات ، وكلهن من الجنس اللطيف ، ما عدا والدي وانا . وراحت فرقة الغناء تعزف وتغني جلوة العروسة وهي :

اسم‌الله ، اسم الله ياعروسـه   ياورد خيم علينا

وقد جئت على ذكرها كاملة فيما سبق .

وكان الجوق مؤلفا من الاخوات مكنو . وكانت كل واحدة منهن تعزف على آلة موسيقية وهن يغنين سوية . وعلا البشر وجه والدي وطفحت فرحته بما لم اكن اعهده به من اظهار شعوره . ورمى طربوشه الى العلاء حتى كاد يصل الى سقف القاعة وانطلقت دموعه

من مآقيها واختلطت مع دموع والدتي وهو يعانقها ويقبلها امام الجميع ، خلافا لما كان معهودا في ذلك العصر . وراح مع المدعوات يجود على المغنيات بالليرات الذهبية ، فيسمع رنين سقوطها في « صحن الجلوة » كلما تقدمت احدى الحاضرات لالقاء ما تجود به ، حتى تكدس مبلغ وفير من المال قابله جوق المغنيات بحماس متزايد وجود واكثار من الالحان المطربة العذبة . ثم جلا القوم من القاعة وبقيت لوحدي مع عروستي نتطلع الى بعضنا ولا نجد ما نقوله . وبعد فترة عاد الجميع يهنئونها بالعناق والقبل . وكانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي كان يستطيع الرجل ان يشاهد عددا « غفيرا » من السيدات بدون حجاب ، وان يطبع على خدودهن قبلات كما لن يفعل ذلك مرة ثانية طيلة حياته . فكأن وجود العروس الى جانبه يلبسه ثوب الطهارة والنزاهة . ام لعل النساء كن ينتهزن هذه الفرصة الوحيدة ربما في عمرهن ، ليقبلن رجلا ويلمسن كتفه !

وبعد انتهاء هذا الجزء من مراسم العرس ، توجهت مع والدي ولفيف الاهل والاصدقاء الى دار المرحوم محمود بك البارودي ، والد فخري بك البارودي ، لحضور حفلة « التلبيسة » . وكان المرحوم البارودي قد حصل على وعد والدي بأن يخصه بهذه الحفلة عند عقد قراني . واراد والدي الاستغناء عنها والاعتذار من صديقه ، الا انني رجوته ان لا يفعل . ومن كان في سني وقتئذ ، فانه يحب الظهور والحفلات التي تقام من اجله . وقد تبدلت عقليتي ، فيما بعد، وصرت اتجنب كل ما يجعلني في الصف الاول تحت الاضواء اللامعة.

وحضر الحفلة ما ينوف عن سبعمائة مدعو ، جاء على راسهم الامير فيصل ومعه اخوه الامير زيد وسائر الامراء ،والحاكم العسكري رضـــا باشا الركابي واعضاء حكومتــه وموظفيها ، والاعيان والوجهاء . وضاقت الدار الفسيحة بمن فيها . وانتصبت في صدر القاعة الرئيسية على مقعد بجانب الامير فيصل ، وفقا للعادة المتبعة باجلاس العريس في صدر القاعة . وبدات الجوقة الموسيقية ــ المؤلفة من رجال فقط ــ تعزف البشارف ، ثم الموشحات ثم الادوار الرائجة اذ ذاك . ولم تكن الالات الموسيقية المستعملة على «التخت» المنصوب في صحن الدار تزيد على عود وقانون ودربكة ودف . وكان هذا العدد القليل من الالات يضفي على الحاضرين جوا من الطرب والانشراح اكثر مما تضفيه الالات العديدة في الوقت الحاضر .

وطاف الاندال على المدعوين بانواع البوظة الشامية الشهيرة ،

وبالقهوة وشراب الليمون ، بينما كان شباب الحي يتفننون بترديد الاغاني الشعبية والعراضات .

وكان الامير فيصل قد اعتزم السفر الى باريز في الصباح ، فاعتذر وترك الحفلة مبكرا . وعلى الاثر عدت مع والدي الى الدار في عربة جلس معنا فيها الشيخ تاج الحسيني ، صديق والدي الحميم. وسرنا على رأس رتل من العربات حتى وصلنا الى دارنا بسوق ساروجه وهناك غيرت ثيابي ولبست بدلة سموكن على مرأى من الاصدقاء الذين اخذوا يداعبونني بوخز الدبابيس ، كما جرت العادة ، بينما كانت اصوات العراضات والزغاريد تملأ الفضاء . ثم دخلت مع والدي الى الجناح الداخلي ، حيث اخذت يد العروس وعدنا الى الجلوس على الاريكة المزينة بالزهور الاصطناعية وبالانوار الكهربائية .

وذكروا لي انه اثناء غيابنا في دار البارودي ، وبينما كانت العروس والفتيات يقمن « التفتيلة » ، اي السير حول البحرة الكبيرة سبع مرات والشموع في ايديهن ، انقطع السلك الذي كان معلقا عليه المصباح الكهربائي الكبير فوق البحرة وانكسر زجاجه . وانقطع التيار الكهربائي كله فساد الذعر وسكتت الموسيقى وخاف الجميع من شبوب الحريق . ويبدو ان احدى النساء الجالسات على السطح حول الدار، سببت قطع السلك عن قصد او عن غير قصد . وراحت المتشائمات من النساء يضفن الى هذا الحادث ما جرى عند دخول العروس اول مرة الى الدار، وهو وقوع «العجينة»، ويستعذن بالله من هذا الفأل غير الحسن . وقد تحقق فيما بعد هذا التشاؤم فتوفي والدي ولم يمض على العرس شهران ، ثم توفيت العروس نفسها بعد عشرة اشهر . وانقلبت الدار التي كانت يومئذ تشع بهجة وفرحا الى دار يخيم عليها سواد الحزن ولوعة الفراق .

فجيعتي الاولى بوفاة والدي

وهكذا لم يطل بي عهد الفرح والسرور الا اشهر معدودات ، وقضي على ما كنت احلم به من نعمة الحياة الزوجية الراغدة في ظل والد حنون الى ان تتفتح عيناي كاملة في مواجهة مصاعب الحياة روحا ومادة . ذلك انني كنت لم ازل في سن تنقصها الخبرة ومعرفة اساليب الجهاد في معترك الحياة . الا ان الله تعالى عوض عليّ بوالدة رؤوفة تاسمت والدي وشاركته المتاعب والمصاعب ،فاكتسبت خبرة ودراية واسعتين في ادارة شؤونها لا تتناسبان مع جهلها القراءة والكتابة وهو ما كانت مع بنات عصرها تتألم وتتحسر منه .

ولم يكن والدي قد دربني على ممارسة ادارة اي جزء من موارد رزقه بل كان اول ما فكر به هو حمايتي من مواطن الفساد . فمنعني من الاختلاط مع اي شاب شك في سلوكه ، وحال دون ارتيادي المقاهي والملاهي جميعها ، حتى دور السينما . ثم زوجني ووضع اساس اسرتي العتيدة على امل اكمال نواقص تدريبي وتمريني على الحياة فيما بعد ذلك . غير ان القدر لم يمهله فمات فجاة . ولم يترك له القدر حتى فرصة المرض ليزودني بنصائحه الثمينة عن معرفته العميقة بخفايا هذا العالم واسرار النجاح فيه .

وكانت حرقتي بفقده مزدوجة : انهيار عماد الدار وفراقه الابدي ، فضلا عن انقطاع املي في الافادة من خبرته وتجربته في الحياة .

فاكملت سيري على طريق الحياة وحيدا لا تقودني يد والد حنون شفيق ، اعمل على اكتساب الخبرة واستخلاص المفيد من المضر ، والحسن من السيء بقدر ما يستنتجه عقلي . ولهذا امسيت منكمشا على نفسي، شاكا في الجميع، وفي كل ما يقال، عديم الاعتماد على احد ، سيء الظن باقرب الناس واخلصهم .

واكثر ما عانيت من مرارة هو ان والدي لم يخلف لي من اصدقائه الذين غمرهم بفضله سوى صديق واحد،تبرع بالاشراف على اشغالنا وظل وفيا لهذه المهمة حتى توفي رحمه اللـــه . وارى من واجب الاعتراف بالفضل والاقرار بوفاء هذا الرجل لذكرى والدي ان اسجل هنا اني مدين له بما اكتسبت من معرفة تسيير اشغالي الخاصة ، وبما قام به من رحلات وكرسه من وقت في هذا السبيل . وهذا الرجل هو المرحوم كامل الياسيني .

جمع هذا الرجل الى المقدرة على تصريف الامور بحنكة ومعرفة كاملتين، ميزة الحديث الحلو والروح الانيسة في المجالس الخاصة . لكنه كان يبدو في المجالس العامة لمن لا يعرفه غليظ الجسم ، كئيب الوجه ، عابسه . فهو كان يخفي ، في الواقع ، وراء نظارته السوداء عينين تسترقان من دماغ محدثه خفايا افكاره ، ويملك خلف تجاعيد وجهه روحا رغدة تطلق النكتة الناعمة او اللاذعة دون ان تتحرك هذه التجاعيد . اما مقدرته على تصريف الامور وحل المشاكل فكانت فائقة .

وعندما بعثت والدتي وراءه وطلبت اليه ان يتولى الاشراف على شؤوننا وتوجيهي الى ممارسة هذا العمل ، لـم يتردد لحظة

عن تلبية رغبتها . وهكذا بذل وقته وجهده في سبيل خدمتنا عشر سنوات ، حتى اخذ منه الكبر قدرته على العمل . لكنه ظل يرشدني بنصائحه المخلصة .

وكان منذ بدء عمله معي قد رفض ان نعين له راتبا او مكافاة سنوية . وقال للمرحوم عطا بك الايـوبي — وكان المشار اليـه ايضا من خلصاء والدي واصدقائه المقربين — ان لمحمد باشا فضلا علي في حياتي المعنوية والمالية ، فما حصلت عليه من الثروة كان مما قدمه لي من مساعدة ودعم. فعلي ان ارد جزءا يسيرا مما حباني به ابو خالد من معروف . هكذا اجاب الياسيني على واسطة المرحوم الايوبي . وعبثا ذهبت محاولاتنا للتعويض عليه .

كان موقف الياسيني اول درس لي في الوفاء وتقدير المعروف ، تلقيته من رجل قد يكون لوالدي فضل عليه اقل ممـا كان لـه على سواه . لكن عرفان الجميل ظهر منه واختفى لدى الكثيرين .

ولم يقتصر انكار الجميل على اصدقاء والدي فحسب ، بل تجاوزهم الى من اسديت اليهم معروفا قابلوه فيما بعد بالجفاء او الاذى ، او على الاقل بالانكار والتجاهل .

ولا استطيع ان اصف الناس كلهم بعدم استحقاقهم المعروف ، كما جاء في بيت شعر مأثور . لكن الواقع هو انني آسف لعجزي في صناعة الشعر ، والا لعارضت هذا البيت بما مفاده ان كل معروف يجري الى البحر لتطفو عليه الامواج وتأكله الاسماك. وازعج ما لقيت في عمري من المشاكسات والمواقف المضرة بي ، مادة ومعنى ، هي تلك التي صدرت عن من ساعدتهم ومنحتهم عطفي وتأييدي وقدمت صالحهم على صالحي . وليت الامر في بعض الاحوال اقتصر على نسيان الجميل ، فهذا اهون من الاساءة الي وايقاع الضرر بي من قبل من حميتهم من الاساءة ومنعت عنهم الاذى والضرر .

وقد لا اكون الوحيد في التذمر من هذه الحال . فقد سمعت شكاوى عديدة ممن اصابهم ما اصابني. وكنت اخفف عنهم بذكر وقائع جرت معي وجعلتني اشعر بما يشعرون من مرارة . والانسان يفرج من كربته بذكر مصائب غيره . وقد يشمت بها لكي لا يبدو له انه وحيد في ما اصابه منها . اليس بشعا ان يرغب المرء في التفرد بالهناء والابتعاد عن المشاركة في الاحزان ؟

امضيت بين الحادي عشر من ايلول ١٩١٩ والرابع من تشرين

الثاني من العام نفســـه احلى ايام شبابي ، في جو مليء بالبهجة والفرح ، وتحت جناح اب وام يبصران نور الهناءة من خلال عيوني ويبذلان العزيز الغالي في سبيل مرضاتي ، وفي احضان اسرة حديثة العهد تعقد على المستقبل اطيب الاحلام واحلاها . وكيف لا يطيب العيش في هذا الجو ، والمرء خال من المسؤوليات ومن ثقل اعباء الحياة ، بفضل والد يؤمن للاسرة كلها ما تحتاج اليه من مستلزمات وكماليات على مستوى يتجاوز مستوى الاسر الاخرى في دمشق . صحيح ان تلك المستلزمات لم تكن لتصل في ذلك الحين الى ما هي عليه اليوم ، لكن لكل عصر مقتضياته ومستوى للعيش يختلف بمرور الايام وما يتولد فيها من مستحدثات تستوجب الزيادة في وسائل الترف ، بل حتى وسائل العيش العادي .

دامت هناءتي بعد الزفاف شهرين رفرف السعد فيهما على دارنا وسطعت شمس المرح قبل ان تأفل ليحل محل نورها ظلام الاحزان والاكدار . ومن كان يدري ان تلك الايام السعيدة سيعقبها في القريب العاجل، ليل حالك مدلهم، تعصف فيه رياح هوجاء تطفىء شمعتين كانتا تشعان على الدار ومن فيها بنورهما الحبيب ؟

كيف توفي والدي وشيع جثمانه

وفي ذات يوم ، كنت مع رفيقي فؤاد المحاسني ومنير العيطة عائدين من سوق الحميدية ، حيث اشتريت بعض الحوائج المدرسية استعدادا لافتتاح مدرسة الحقوق في اليوم التالي . وفيما نحن في طريقنا خالون من كل مكدر ، اذ باحدى خادماتنا تقترب مني وتقول : « عد ياسيدي فورا الى الدار . » فتشاءمت من هذا الطلب وسألتها عن السبب، فتهربت. لكنها كاشفتني في النهاية بأن والدي مريض وقد احاط به الاطباء . واسرعنا الخطى حتى دخلت غرفة والدي ، فاذا به مسجى على ديوان ، ووالدتي تحضنه ، وصديقه الصيدلي وانس ماهر يقدم له علاجا . فتعانقنا باكيين . وضمني الى صدره بشكل لم اعهده به قبلا ، وراح يقبل وجنتي والدموع تنهمر من وجهه وهو يقول : « ولدي خالد .. اين كنت ؟ .. كدت اقضي قبل ان اراك ! » فسألت والدتي عما جرى فلم تحر جوابا . وانتهزت خروج السيد ماهر الى الباحة فتبعته ، فافضى لي بان نوبة قلبية شديدة كادت تقضي على والدي الحبيب ، فاستدعى عددا من الاطباء وصفوا له العلاج اللازم . فسألته عما اذا كان الخطر قد زال ، فسكت قليلا ثم قال : « يابني ، الاعمار بيد الله ! » فتوجست خشية هذا الجواب وعدت الى جانب والدي امرك يده واقدم له ما يستطيع الحب البنوي

تقديمه من تشجيع نفساني في مقاومة الجسم لما يتهدده من خطر . ولم اجد زوجتي في الدار . وقيل لي انها ذهبت الى دار اهلها بزيارة. فارسلت وراءها لعلها تساعدني على تحمل هذه الازمة ، وتشاركني في تخفيف اثرها .

وكنت ارى على وجه والدي المسكين آثار الازمة ، واشاهد كيف كان يتنفس بصعوبة وهو مستند الى صدر والدتي التي كانت اكثرنا ضبطا لاعصابها ، مع انها لم تكن تستطيع توقيف عضلتي خديها من الاضطراب الظاهر .

وبينما كانت والدتي تقرأ وتدمدم آيات من القرآن الكريم حفظتها منذ صباها، وتشاركها في ذلك عمتي وهي تكفكف دموعها، كنت ارقب على وجه والدي تطور الازمة، وابتهل الى الله ان يزيل عنه كربتها ، وان يحفظ على راسنا هذا الوالد العظيم،واذ بي اراه قد جحظت عيناه فجاة وتلون وجهه حتى كاد يصبح ازرق غامقا . وجمدت آخر كلمة على شفتيه ، ثم ارتمى راسه الى الامام وراح يشخر ويزفر. فصاحت والدتي تطلب الصيدلي ماهر ، فجاء مهرولا. ولما راى ما راى اشار علينا بتمديد والدي على الديوان وطلب موسى على عجل . فركضت الى غرفة والدي لعلي اجلب له موسى حلاقة او شفرة ، فلم تجدهما عيناي بتأثير الاضطراب . وركضت الى الشارع ودخلت دكان الحلاق وطلبت منه موسى فرفض ان يعطيني واحدة ، اذ انه شاهد اضطرابي وظن بي سوءا. فعدت الى الدار مهرولا دون ان افهمه سبب طلبي او اشير عليه باحضار الموسى لتخليص والدي من يد الموت . ولما عدت الى الغرفة وجدت والدي مسجى وشخيره لا ينقطع. فركعت امامه افرك يديه ، واذ باختي تشدني من يدي الى خارج الغرفة . وظننتها تريد امرا فلحقتها الى غرفة بعيدة ، حيث اشارت على بالمكوث فيها وعدم الخروج منها ، خصوصا الى غرفة والدي . ولعلها ارادت من وراء ذلك ان تجنبني رؤية الوفاة . لكنني هربت من الغرفة وعدت الى جانب ابي ، فرايت مشهدا اليما لا انساه طول حياتي . فقد جمد والدي وانقطع شخيره وانقلبت عيناه وتبلورتا . وكانت والدتي تضرب بكفيها على ركبتيها وتبكي بلوعة وتندب زوجها ورفيق حياتها وعماد دارها . فسقطت على ركبتي ورحت اقبل يد ابي . وغبت عن الدنيا ، فلم استفق الا ويدان تجرانني الى الباحة الخارجية من الدار ، وهناك اجلسوني على كرسي . تطلعت الى من حولي فلم اتعرف عليهم ، واضعت صوابي . لكن منظر والدي

الاخير ظل جاثما في مخيلتي . كنت اشعر انه مات ، لكن الدموع انسحبت من عيني ، وجمد الكلام على لساني ، وصرت لا ارى سوى ذلك المنظر المفجع ولا اسمع من الاصوات سوى الولاويل . وكان الناس يتدفقون حولي ويحدقون اليكانني انا الجدير بالعناية لا والدي المتمدد على فراش الردى. وجاء الاصدقاء يبكون والحساد يتباكون . وامتلات الدار بمن فيها . وكيفما التفت لم ار سوى رؤوس واعين متوجهة كلها نحوي . ولربما اعتقد الكثيرون اني جننت او اصابني مكروه .

وشق على المحبين ان ابقى في هذه الحال ، افرح المبغضين واكدر المحبين . فرفعوني عن الكرسي وحملوني من تحت ابطي وذهبوا بي الى دار شقيقتي الملاصق لدرانا . فارتميت على الفراش واخفيت راسي في الوسائد . ثم وصلت زوجتي اخيرا ، فالتجأت الى حنوها . وهكذا شعرت بدفء العاطفة الصادقة ، ونسيت نفسي وما اصابني من مصيبة . وغبت مرة ثانية عن الوعي حتى هزني عامل روحي آخر ، ففتحت عيني واذ بي في حضن والدتي الحزينة وقد بدت مجللة بسواد مخيف . ولكنها ، خوفا علي من اشتداد حزني ، لم تشأ ان تنكأ جروحي، بل اخذت تحدثني كما تحدث ام ابنها الصغير ، او تماما كما حدثتني يوم سقطت من الشرفة والتقت فوجدتني في حضنها تقبلني وتربت على كتفي . ولولا الوضع غير الملائم، لكانت دمدمت لي الاغنية التي كانت تنشدها لي في طفولتي لانام. وخففت والدتي وزوجتي الكثير من آلامي، فغدوت اسبح ببحر من الخيال كانني في جنة ارضية وحولي الازهار والطيور والمياه تنساب في جداول فضية . وعاودتني الغيبوبة وهدأت اعصابي ، ثم استرسلت في غفوة متقطعة حتى الصباح .

وكان يتوجب علي القيام بدور كبير في مراسم تشييع جثمانه . الا ان حالتي الصحية وخوف اصدقائي علي خفف عني اعباء ثقيلة . وغصت الدار منذ الصباح الباكر بافواج المعزين ، منهم من بقي فيها ومنهم من ذهب ثم عاد ظهرا للاشتراك في التشييع . فلما حنا وقت سير الجنازة توجهت من دار شقيقتي الى دارنا وانتظرت وانا في حالة تشبه الذهول ، يحيط بي الاصدقاء والاقارب . وتعالت اصوات البكاء والنحيب والولاويل من داخل الدار ، عندما اخرج النعش محمولا على الاكتاف . فلما رايته اصابتني هزة عصبية . وصرت ارتعش . وكدت اقع على الارض لولا ان تأبط ذراعي رفاقي

المقربين . ثم سـرت خلف النعش ، والجموع الغفيرة ورائي ، واصوات المؤذنين تنادي بالتراتيل المعتادة . وسارت الجنازة في طريق سوق ساروجة الى الجامع الاموي ومنها الى المدفن العائلي في مقبرة الباب الصغير بحي الميدان . غير ان اصدقائي خشوا علي مغبة السير وراء النعش ، وانا على ما انا عليه من اضطراب . فنزلوا عند اشارة الاطباء واخرجوني من الموكب واركبوني العربة التي سارت بنا جميعا الى المدفن ، حيث انتظرنا الموكب .

وكانت التقاليد تقضي بان يشرف ابنـاء الفقيد على الدفن بأنفسهم ، وان يشتركوا في تنزيل المتوفي الى لحده الاخير . غير انني منعت من الاقتراب ، بحيث لم اشاهد جثمان والدي الحبيب يوارى في التراب . غير ان الله تعالى عوض علي برؤية هذا الجثمان الطاهر مرة اخرى في هذه الحياة الدنيا ، عندما بنينا له قبرا جديدا نقلنا اليه رفاته . وعندما فتحنا الصندوق وكشفنا جزءا من الكفن ، ظهر امامي وجه ابي وكأنه في سبات عميق . فلم يتغير من معالمه شيء . كان الجلد كأنه من الشمع والشعر لاصق به . وقد عجب من ذلك كل من اشترك معي بالنظر الى الجسد الذي كان مضى على وفاته ١٣ عاما . ولعل للصندوق الخشبي الموضوع فيه ، او لجفاف التربة ، الاثر الكبير في حفظ الجثمان . او لعل هنالك عوامل اخرى . وعلى كل حال ، فان الله تعالى من علي برؤية جسد والدي بعد ارتحاله بمدة طويلة . وهكذا شفيت غلتي .

وقفت عند باب المدفن اتقبل التعازي ، دون سائر اعضاء اسرتنا . ذلك لانهم كانوا على خلاف مع والدي قبيل ارتحاله ، لاسباب خاصة تتعلق بوقف آل العظم ورفضه تقسيمه خلافا لاحكام الدين القويم .

وفي المساء ، ذهبت مع الاصدقاء الى الجامع الاموي لحضور « الصباحية » . وهي حفلة كانت تقام لمدة ثلاث ليال متوالية في احد الجوامع ، يقرأ فيها القرآن المجيد وترتـل الاناشيد ثم يتقبل آل الفقيد تعازي الحاضرين ، كل واحد منهم بدوره . وهم يرددون امام اعضاء الاسرة عبارات التعزية المألوفة .

ثم عدنا الى الدار ، حيث وفد الذين كانوا في الجامع وانتشروا في قاعات الدار وباحتها . واديرت عليهم كؤوس المرطبات وفناجين القهوة مع السكاير .

وكانت هذه المراسم ، على حد تفكير ابناء ذلك العصر ، ترمي

الى مجالسة اقرباء المتوفي وعدم تركهم وحدهم يتلوعون اسفا وحسرة. ولا ريب في ان هذه الزيارات والمراسم كانت تشغل الاقرباء وتنسيهم، الى حد ما ، مرارة مصيبتهم .

وقد تقلصت الآن هـذه الحفلات والمراسم واقتصرت على التعزية مساء في دار الفقيد لمدة ثلاث ليال . واستغني عن حفلتي الاربعين ومرور العام الاول ، حين كانت تقام في دار المتوفي مآدب عشاء يدعى اليها مشايخ ودراويش المولوية ، فيفتلون الساعات بتنابيزهم البيضاء .

وبينما تكون الحلقة دائرة ، كان المنشدون يرتلون القصائد بمدح الرسول الاعظم وينشدون الاغاني المألوفة في مثل هذا المقام . وبعد الانتهاء يتقبل اصحاب الدار التعازي مجددا .

ولا يستطيع المرء تفسير اسباب هذه الحفلات ولا تبريرها فان كانت لذكرى مرور اربعين يوما او عاما على الوفاة ، فالاجدى اقامة حفلة تأبين يعدد فيها الخطباء مآثر الفقيد ، ثم تقرأ الفاتحة على روحه ، ويوزع على الفقراء والمحتاجين ما تجود به نفوس الاقرباء . اما ان يقتصر الامر على اطعام الناس انواع الحلويات والفواكه والاكتفاء بتلاوة القصائد والاناشيد ذات الطابع السخيف ، وعلى رؤية اجسام المولويين تفتل في الباحة مثل راقصات « الباليه »، فليس فيه تسلية للمصابين ولا اشباع لبطون الجائعين .

اما الآن فقد استغني عن حمل النعش على الاكف ، واعتيد نقل الجثمان بسيارة تتبعها سيارات المشتركين في الجنازة . وبطلت « الصباحية » في الجامع واقتصرت التعزية في الليالي الثلاث على زيارة دار الفقيد والمكوث خمس دقائق بعد تناول فنجان القهوة المرة، بينما يقرأ المشايخ آيات من الذكر الحكيم .

واما «التنزيلة» ، اي حفلة الغداء التي كان احد اقارب المتوفي واصدقائه يدعو اليها مشيعي الجنازة ، فقد زالت تقريبا .

الفصل الثالث

مشاهداتي في تاريخ سورية

يقال ان اعذب ايام المرء هي ايام الدراسة ، وقد يكون ذلك صحيحا لكن وصف السعادة الاقرب الى الواقع هو ما سمعته ذات يوم من المرحوم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر: «السعادة هي ان نكون منسجمين مع من حولنا » فأيام الدراسة بموجب هذه القاعدة، يمكن وصفها بأرغد الايام ، اذ كنا في المدرسة منسجمين مع رفاقنا ، لا تفرقنا نظرة اجتماعية او سياسية تحل البغضاء محل الوئام، ناجحين في دروسنا نؤدي الفحوص بما يساعدنا على اجتياز الصفوف الواحد تلو الاخر بدون اكمال او رسوب .

فالسعادة ، اذا ، ليست رهينة عمر معين ، ولا بيئة محدده بالذات ، ولا بلد دون اخر ، وانما السعادة في ان يكون الجسم صحيحا معافى ، وان تكون العقلية منسجمة على قدر الامكان مع عقلية الجماعات المعاصرة ، وان تكون ذات اليد كافية لتأمين النفقات الضرورية والاضافية ، سواء برزق حلال يعيش الانسان بمورده او بنتيجة ما يصرفه من المجهود الفكري او الجسدي . واما العوامل المعنوية التي لا غنى عنها ، فمعيشة هنيئة ضمن اسرة متفاهمة متساندة لا يهز كيانها ، من وقت لاخر ، خلاف في الامزجة او شهوة بالتحكم . واما خارج الاسرة فسعادة المرء تكون في اكثر الحالات منوطة بسعادة المواطنين ، وبالاستقرار الذي يجب ان يسود البلاد لينصرف كل شخص الى عمله مطمئنا الى المستقبل ، عارفا انه سيجني بنفسه ثمرات جهوده ومتاعبه . واما النظام الاجتماعي فبصرف النظر عن محاسن هذا وذاك ، فالمهم ان تستقر البلاد على نظام معين طويل الاجل . واني لازعم ان اي فرد من مواطني البلاد ذات النظام الشيوعي مطمئن اكثر بكثير من اثرى اثرياء دول امريكا الوسطى او الجنوبية ، او البلاد العربية جمعاء . فالمرء يعتاد على كل شيء ، ولو كان بصعوبة ومرارة . فهو بعد ان يعتاد على نظام

معين ينظم حياته على موجباته ، راضيا بالامر الواقع بقطف ثمرات الاستقرار الهادىء ، ينعم بسعادة منبثقة من انسجامه مع المحيط الذي يعيش فيه .

رايي في الطور الانتقالي بين نظامين مختلفين

اما الطور الانتقالي بين نظامين مختلفين اختلافا شاسعا ، فهو كالجسر الذي يهتز تحت المرء عند مروره عليه اهتزازا يحتاج الى كثير من التعقل والتروي حتى لا تلفظه هزة خارج الحواجز الواقية . فيقع في الهاوية ويجرفه التيار . واني لاذكر انى في صباي كنت اتابع اخبار المهاجرين من روسيا ممن كانوا يلعبون بالذهب والمجوهرات كما يلعب صبيان الازقة بعظام الحيوانات « كعاب » . وقد عاشرت فتاة روسية كان خجلها مما وقعت فيه من الفاقة يمنعها من أن تسرد لي حياتها السابقة . وذات مرة وقعت بيدي رزمة من رسائل مهترئة قديمة ، فوضعتها في جيبي وقلت لها : « ساطلب من احد الضالعين باللغة الروسية ان يترجم لي ما احتوته من اخبار » . فصاحت وارتمت تحت قدمي تتوسل ان اعيد اليها الرسائل فورا وكانت الدموع تنهمر من عينيها الجميلتين ، فاشفقت عليها وراعيت شعورها . وسلمتها الرزمة ، فعانقتني وظلت تبكي مدة طويلة . وكنت اقول في نفسي : « مالي اتدخل في ماضيها بدون حق فعلى فرض انها رسائل غرام فهي على اي حال ذكريات عفى عليها التاريخ » وصرت استدرج صديقتي للتحدث عن السعادة في روسيا قبل الحرب العالمية التي نشبت خلالها الثورة الشيوعية والتي كانت هي فيها في ريعان صباها فراحت تشبع نهمي بتلك القصص التي تشابه الاساطير ، وكنت في اكثر زياراتي لها اجدها مستلقية على السرير تنظر دون أن ترى ، وعيونها مليئة بلآلىء الدموع . فاسالها ما بها ، فتحدق عيناها في عيني وتسكت عن ما يتاكل جسمها وروحها من ذكريات ، ومن مقارنات بين ما كانت تسبح فيه من نعم وما وصلت اليه من بؤس حملها على العمل في الملاهي الليلية . تلك ذكرى تمر في مخيلتي كلما جاء ذكر ثورة نشبت في احد اقطار العالم ، او كلما نزح الناس قسرا عن مدنهم فأصبح الميسور منهم والثري سواسية في الفقر . اليكم مثلا قريبا منا ، هم الفلسطينيون اللاجئون . فلئن كانت مصيبة نزوحهم عن موطنهم ، تاركين وراءهم كل ما يملكون ، متاتية من احتلال بلادهم من قبل قوم اجانب ، فان مصيبة من صودرت امواله واستولى احد على اراضيه واسيئت معاملته لا تختلف بنتيجتها عن مصيبة الاولين ، من حيث انه جرد مما يملك ، سواء على يد مواطن

او غريب . هذا فضلا عن نظرة الاحتقار والكره التي يلاقيها من المسؤولين عن املاكه .

انا لا اقول بوجوب المحافظة على الانظمة التي لم تعد تأتلف مع الزمن ، ولا انادي بالعودة الى الاقطاعية والراسمالية المحتكرة ، ولا اشجع الاساليب التي ترهق الطبقة العاملة وتحرمها من ثمرات اتعابها . فانا منذ نشأتي السياسية ، وما زلت ، ارى التطور الاجتماعي امرا لا بد ولا غنى عنه ، ولكنني اكره الثورات المخربة — واية ثورة هي غير مخربة ؟ — خشية ان تهدم البناء ، فنجلس على الاطلال مغلولي الايدي لا نعرف ان نبني صرحا جديدا احسن من سابقه . واقول بأن كلفة تغيير الانظمة الاجتماعية لا يصح ان يتحملها ابناء جيل واحد اعتاد على نوع من الحياة وركز دعائمه عليها . فنأتي بيوم واحد ونهدم كل ما يملك ، تماما كما تفعل الزلازل والعواصف والسيول ، فتمسي العائلة بأسرها بين الاطلال ، هذا اذا ما عاجلها الموت .

فحرام ان يفاجأ ابناء جيل واحد بدك جميع ما بناه دفعة واحدة ، دون ان يكون قادرا على تدارك مورد جديد لمستقبل حياته . فثمة موظفون كبار في السن كانوا ضباطا في الجيش فصدر امر بتسريحهم وقطع رزقهم الا من راتب التقاعد غير الكافي،وهم ما يزالون في ريعان الصبا.ومن مارس وظيفة ما،وخاصة في الجيش ، لا يستطيع ان يغير طباعه المكتسبة فيتعلم فنونا وعلوما مضت الايام والسنون على الوقت الذي كان فيها قادرا على التعلم .

ويقال هذا عن الموظف الذي كان يأمر وينهي . فهو لم يعد قادرا ، بعد صرفه من الخدمة على استجداء العدل والانصاف من موظف اخر كان حتى الامس القريب يتلقى منه الاوامر بكل خشوع . فالقاضي ، مثلا ، لا يستطيع بعد صرفه من الخدمة الوقوف في المحاكم محاميا ، ولا تعقب مصالح الناس في الدوائر . فالعقدة النفسية الناجمة عن صرفه تجعل منه اتعس محام واعجز من يتعقب مصالح الناس في الدوائر .

وكذلك الضباط ، فبالامس القريب كانوا يصولون ويجولون ويصدرون الاوامر ، ومنهم من اشترك في انقلاب او ترأسه فانحنت امامه الرؤوس واعترفت به الدول . فكيف يقدر هذا الضابط بعد تسريحه ان يعيش في البلد الذي كان لعهد قريب تحت اقدامه ؟

فان اريد بالتسريح اصلاح الجيش — كما يقال بأن القصد من الاحكام الاجتماعية اصلاح المجتمع — فبالامكان ابعاد غير الصالحين عن المراكز الحساسة ، الا اذا كان القصد ابعاد فريق من الضباط عن هذه المراكز لئلا يستغلونها ضد الفئة المستولية على الحكم .

ثم ان تسريح الموظفين المدنيين والضباط بحجة عدم انضوائهم تحت لواء الحزب السياسي القائم ، عدا عن كونه يحرم الجهاز الحكومي والجيش من عناصر صالحة قادرة على القيام باعباء المهام الموكولة اليها خير قيام ، فانه يجبر الحكومة المسيطرة على املاء الوظائف الشاغرة بمن هم دون المسرحين . وبذلك يضعف جهاز الدولة .

رايي في التأميم والاشتراكية

ورايي فيما يتعلق بالاراضي والمعامل وسائر المرافق التي تلجأ الدولة الى تأميمها ، فان من الخير تخمين قيمها تخمينا عادلا تدفع قيمته فورا ، كما هي الحال في الاستملاكات الخاصة بالمصلحة العامة ، على ان تسدد الخزينة هذه القيم بقروض طويلة الاجل تضعها قيد التداول في الاسواق بفوائد معقولة . هذه الطريقة هي اسلم الطرق المؤدية الى الغاية المنشودة اجتماعيا واقتصاديا ، لا تلحق بالثقة المالية العامة اذى . فتبقى رؤوس الاموال في البلاد ، وتكرس لما هو داخل في القطاع الخاص . وهكذا يستمر الازدهار بفضل تعاون راس مال الدولة ، مع رؤوس الاموال الخاصة . وقد طبقت هذه القاعدة في كثير من الدول ذات الطابع الاشتراكي ، كانكلترا او فرنسا ، وادت للبلاد فوائد ، سواء من حيث تسلم الدولة وسائل انتاج المواد الاساسية ، او تسلمها وسائل النقل وبيوتات المال الكبرى . ذلك لانها لم تحرم اصحاب رؤوس المال من مجال حيوي لبذل نشاطهم في توفير ارباح تعود بالتالي الى توسيع الاعمال في القطاع الخاص مما يضمن للعمال ارباحا واجورا لا تقل عن ما هي عليه في القطاع العام .

ومن الطبيعي ان لا يقبل القائلون بالمبادىء الشيوعية والاشتراكية المتطرفة والغوغائية بهذه النظرية . فالشيوعيون لا يرون مجالا لبقاء النشاط الفردي الا موجها من قبل الدولة مباشرة في جميع القطاعات . اما رأس المال فيجب في نظرهم ان يكون محصورا بالدولة . وبذلك تصبح الدولة اقطاعية ضخمة ، تجعل الفرد في ظلها الة طيعة دون حافز او تفكير .

فما قصده ارباب النظرية الماركسية من اسعاد البشر لم يعط حسب رايي ، الثمرة المرجوة ، خلافا للاشتراكية المعتدلة ذات القواعد المنسجمة مع طبيعة البلد . فهي تضمن لجميع المواطنين حياة اسعد . واني اشبه الحياة في النظام الشيوعي بفيلم سينمائي غير ملون ، فلا تجد العين متعة في مشاهدة مختلف الالوان ، بل تقتصر على الاسود والابيض . هذا مع ان الموضوع هو واحد .

وما علينا الا ان ناخذ ما طبق في بلادنا من الانظمة التي اسموها اشتراكية لنرى انفسنا غير راضين عنها . فالخليط غير المنظم المنبعث من رواسب الحقد والحسد ، كما سعي اليه مدعو الاشتراكية في البلاد العربية ، قريب الشبه بتلك الانظمة الدكتاتورية المغلفة بشعارات الديمقراطية التي نسمع عن حوادثها الدامية في امريكا الوسطى واسيا وافريقيا .

ولا يمكن ان يحيا نظام يشبه الطير بجناحيه ، والحيوان المفترس بمخالبه وانيابه ، ولو علا جسمه ريش ذو الوان زاهية براقة ، او بح صوته بترديد الانغام العذبة ترديد الببغاء .

خلاصة نظريتي في السعادة

ساقني الى ابداء هذه الملاحظات في بحث السعادة ومفهومها ومداها واسبابها ، سعيي لدعم نظريتي بأن السعادة في العالم تشبه السراب الذي يركض وراءه الانسان . واذا احصينا عدد الساعات التي يعيش فيها المرء بسعادة كاملة لما تجاوزت رقما كبيرا بالنسبة الى عمره . وهي بالطبع نسبية من حيث الامن والحاجة والعقلية . الا تتصورون اسعد ساعات الجائع هي التي يتناول فيها ولو كسرة خبز ؟ او السجين حين اطلاق سراحه ؟ او الساعي وراء امنية تم له الوصول اليها ؟

فالمخترع عند نجاح تجاربه ، والفارس عند فوزه بالسبق، والتلميذ عند اجتيازه الفحص ، والعاشق عندما يصل الى محبوبه ، والسياسي عند نجاح حزبه او بالاحرى عند نجاحه ، والتاجر عندما تربح الصفقة التجارية التي عقدها ، والكاتب عندما ينهي مقالة ويرتاح لسبكها وايفائها غرضه ، والقائد عندما يعقد النصر على اعلام تطلعاته العسكرية ، والطفل عندما يضم الى صدره دميته المفضلة او يقبل والدته الحنون، كل هؤلاء واولئك يشعرون بما يسمى بالسعادة. وما هو في الواقع الا شعور متولد عن كسب معركة والظفر بها. وهو

شعور متحدر من حب التملك الذي هو ، عـلى كل حـال، بعيد عن المبادىء الماركسية الاشتراكية التي قد تولد الغيرة والحسد بما يفوق شعور اللـذة بالملكية في قلوب النـاس . ثم الا تسعى الاشتراكية لتمليك العمال والفلاحين معامل واراضي ، فتنتشر في نفوسهم حب التملك وتزرع فيها روح الدفاع عن المكتسبات . ولرب معترض بان الاشتراكية لا تملك اكثر مما يحتاج اليه العامل او الفلاح ، ولا تفسح المجال امام الملكيات الواسعة ، والجواب بان ما وزع من الاراضي على الفلاحين بسورية ما زادهم يسرا ولا كفل لهم دخلا سنويا اكبر. فما كانوا يأخذون من المنتوج هو بمعدل ٨٠٪ وما يزالون عند هذا الحد ، وكذلك العمال . فالارباح التي بداوا يأخذونهـا منذ ١٩٦١ لا تزال كما هي . وثمة فلاحون كثيرون يعيشـون الآن بـدون ارض. والذين سيولدون بعد الآن من اين سيؤنى لهم بارض جديدة ؟ واما المعامل فقد توقف انشاء ما كان منها قيد الانشاء ، كما صرف اصحاب الاموال نظرهم عن احداث معامل جديدة تجنبا للتاميم .

واذا كنا سننتظر ان تقوم الدولة بانشاء معامل جديدة تحـل محل الشركات الخاصة ، فاننا على كل حال ننتظر مستقبلا غامضا. وستقع عندئذ حتما تحت سلطان اقطاعية ضخمـة اكثر شرا مـن الاقطاعيات الصغيرة السابقة . وامامنا مثال واضح ، ولو كان على نطاق صغير ، وهو تسلط الحزب الحاكم اليوم على موظفي وعمال المؤسسات العامة ، وطرده من لم يكن منتسبـا لعضويته ، وتنزيل راتبه ، مع ان الامر لو كان صادرا من صاحب مؤسسـة خـاصة لاعتبر اخراج الموظف من عمله وتنزيل راتبه مخالفـا لمبدأ صيـانة الحقوق المكتسبة، ولعوقب صاحب المؤسسة على ذلك اشد العقاب، ولاعيد الموظف الى عمله وبنفس الراتب السابق . فاشتراكية الدولة اخطر على حقوق العمال والفلاحين وسائر الطبقات العاملة ، مـن حيث ان ليس من يحميهم من التعسف . فلا المحاكم تجرأ على اصدار اي حكم لمصلحة المغتصبة حقوقهم ، ولا البرلمان يستمع الى شكواهم ويجبر الحكومة على اعادة تلك الحقوق ، ولا المعارضة ترفع صوتها بالدفاع عنهم . فالحزب الحاكم المسيطر عـلى شؤون الدولة يعتبر المؤسسات ملكا للحزب وليست ملكا للدولة ، فيتصرف بهـا تصرف الاقطاعية الظالمة . ويسرح زيدا ويعين محله عمروا من منـاصري الحزب . ويرفع راتب بكر ويخفض راتب خـالد ، لا على قـاعدة الاستحقاق والكفاءة ، بل على موجبات الاستيلاء على مرافق الدولة

بواسطة موظفين حزبيين .

والإشتراكية نعطي اطيب الثمار عندما تكون جميع الاحزاب مشتركة في ايجادها ودعمها. اما اذا كانت وليدة حزب واحد يعارضه فيها حزب آخر ، فهي تصبح اداة مزايدة ووسيلة مكاسب حزبية تخرجها عن غاياتها واهدافها السامية .

وانا من القائلين ومن المدافعين عن تلك الاغراض الخيرة لرفع سوية الطبقة العاملة وتحسين حالها ، لكن لا اقول بالفوضى ولا بقلب النظام الاجتماعي راسا على عقب ، دون ان تفيد تلك الفئة من هذه الهزة الا خطبا رنانة ووعودا خلابة ، بينما تنحدر اقتصاديات البلاد الى ما يعود بالضرر على الجميع . وانني ازعم بانه لو ارتفعت الغايات الشخصية وزالت من القلوب الاحقاد ومن العقول الرواسب، ووضع ميثاق قومي اقتصادي اجتماعي ثقافي،لتقارب الجميع وشدوا الخناصر لانشاء دولة اشتراكية تضمن حسنات الاشتراكية وتبعد مساوئها.ولكن اين لنا ان نصل الى تحقيق هذا التضامن والتعايش، والاجنبي لنا بالمرصاد.فهوكلما ارتفع راسنا وبدا جسمنا يتعافى، انزل بنا ضربة جديدة تطرحنا ارضا وتجعل آمالنا تتبخر امام اطماعه وسياسته الاستعمارية،الرامية الى عدم السماح للعرب بأن يؤلفوا كيانا واحدا قويا يستطيع الصمود تجاه تلك السياسة وذلك الطمع وسيظل العرب يتحاربون الى ان تثبت اقدام اسرائيل وتصبح دولة يقطنها عشرة ملايين، والى ان يرتضى العرب ان يجرهم المستعمر من رقابهم كالكلاب . هذا اذا لم يخلق موحد للعروبة يتمتع بالاوصاف التي حباها الله لسيدنا محمد، فيتمكن من تأسيس الدولة الاسلامية العربية الكبرى ، ويرتضي بحكمه ويؤمن برسالته كل العرب . اما زعماؤنا الحاليون فينقصهم انيسلموا بانهم عبيد الله، جاءوا لينشروا دينه وقرآنه ، لا آلهة يحفظون هم قرآنهم ويطلبون من الناس ان يعبدونهم دون عبادة الله .

قاتل الله السياسة . فكلما سعيت لكتابة موضوع بعيد عنها ارجعتني اليها دوافع اصبحت اقوى من ارادتي . فهذا القسم من الذكريات قصدت تخصيصه لحياتي غير السياسية . ولكنني اجد قلمي ينحرف عن ارادتي ويغوص في مداد السياسة ويجول فيميدانها بحرية وصراحة . فاعتذر من القارىء عن هذا الانسياق غير المقصود واعود لذكر ايام دراستي في الجامعة السورية .

افتتحت كلية الحقوق بدمشق من قبل الحكومة التي كان اميرها،

الامير فيصل بن الحسين ، وذلك في اليوم الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩١٩ . اذكر هذا التاريخ جيدا لان المرحوم والدي توفي الى رحمة الله في اليوم ذاته ودفن جثمانه الطاهر في اليوم الذي كنت ساحضر فيه افتتاح المدرسة .

دراستي الحقوق في الجامعة السورية وذكرياتي فيها

وكان مدير المدرسة الاستاذ عبد اللطيف صلاح، وهو فلسطيني الاصل . وقد جمعته جاذبية دمشق مع من جمعت من الشبان العرب الواردين من كل قطر . وكان ثمة اربعة صفوف ، خصص الاول لمن انتسبوا للمدرسة لاول مرة ، وخصصت الصفوف الاخرى لمن سبق ان انتسب لمدرسة الحقوق في استانبول او بيروت ولم تسمح له ظروف الحرب العالمية باتمام دراسته ، فبينما كنا نحو خمسين طالبا في الصف الاول ، كان الصف الثاني والثالث والرابع لا يضم اكثر من خمسة عشر طالبا . واليكم بعض اسماء رفاقي في الصف الاول، ممن اكملت معهم الدراسة وحزنا معا شهادة الحقوق ، وممن اضطروا لمغادرة دمشق ، اثر دخول الافرنسيين اليها .

اذكر الاسماء بدون ترتيب مقصود ، وانما كما تخطر على البال:

فؤاد المحاسني ، مختار الايوبي ، موفق الحسيبي ، محمود النجار ، محمود عاصي ، عبد القادر شبل ، محمد الغصاب ، عبد الحميد الماريني ، يوسف يس ، جورج شاهين ، ابراهيم الشيشكلي ، سامي البكري ، مصطفى الرحيباني ، ايليا مرقدة ، جورج ريس ، سيمون يونس ، عبد الكريم جرجس ظافر ، صادق العظم ، صبحي الرفاعي ، هاشم سلطان .

اما الاساتذة فكانوا :

الاستاذ عبد اللطيف صلاح للحقوق الاساسية ، رفيق التميمي ثم عفيف الصلح للتاريخ السياسي، عبد الرحمن الشهبندر للاجتماع، الاستاذ الشيخ سعيد مراد لاحكام المجلة، توفيق السويدي للحقوق الرومانية ، عثمان سلطان للحقوق التجارية ، ابراهيم هاشم للحقوق الجزائية .

ثم انضم اليهم للصفوف العليا ، عبد القادر العظم للاقتصاد ، فارس الخوري للمالية واصول المحاكمات الحقوقية ، الشيخ سليمان الجوخدار للاوقاف ، الشيخ امين سويد للفقه الاسلامي ، محمد كرد علي للغة العربية ، كاظم الجزائري للغة الافرنسية ، شاكر الحنبلي للحقوق الادارية ، مصباح محرم للاصول الجزائية ، الشيخ توفيق الايوبي للاوقاف .

ويتجلى في قائمة اسماء الاساتذة انهم كانوا الصفـوة المختارة بين الشخصيات البارزة في العلوم الحقوقية والاسلامية . وكـانت المهمة صعبة في السنين الاولى ، لانه لم يكن في ايدي الطـلاب كتب عربية يرجعون اليها . ولأن الاساتذة لم يضعوا بعد مؤلفاتهم. وكان من يحضر منا درسا ما يسعى لاخـذ ما يمكن اخذه من ملاحظـات ويسجلها في دفاتر خاصة . ولم نكن ممرنين على الكتابة السريعـة، ولذلك كانت الدفاتر كسماء الخريف التي تسبح فيها السحب البيضاء. وكنا مضطرين للاجتماع ، بعضنا مع بعض ، لنكمـل ما نقص مـن فقرات وجمل . ان ما عانيناه من صعوبة ، هان على من اتى بعدنا، اذ بدا الاساتذة بطبع ما كانوا يلقونه علينا من محاضرات . فسهلت المراجعة ، ولو غاب الطالب عن المدرسة وقتا ما .

كان اعز استاذ علينا المرحوم فارس الخوري . فكنا نحبـه ونحب سماع محاضراته التي كان يلقيها بطلاقة وبلغة صحيحة ارفع من اللغة شبه العامية التي كان يستعملها كثـير من زملائه . هـذا التعلق بفارس الخوري ما كان يشوبه عند البعـض منا الا ما كـان يبادههم به من وخزات تخجـلهم امام رفاقهم . واذكـر على سبيل المثال ان الاستاذ الخوري كان ذات مرة يملي علينا محاضرته من غير تسرع لنستطيع تسجيل اقواله . فتوقف عن الكلام فجاة وسأل زميلنا الطالب صادق المعظم كيف كتب كلمة « عبء » ، ولم يكن ضالعا باللغة العربية شأن اكثرنا الذي تلقى دروسه باللغة التركية. فارتبك صادق وقال « عبيء » ، فسخر منه الخوري وقال : « الم تتعـلم قواعد اللغة العربية ؟ » فاحمر وجه صادق وظهر عليه انفعال نفسي واجاب : « لقد اخذت شهادة المدرسة الاعدادية بمدارس الترك ولم يكونوا يعنوا باللغة العربية » . واضاف : « هـل جئت يا استـاذ لتعليمنا اللغة ام لالقاء محاضرة في علم المالية ؟ » وادرك الخوري ان الامر قد وصل الى حد يخشى عنده مغبة ملاسنة كلامية تضعف هيبة الاستاذ في اعين الطلاب . فتلافى الامر وضحك وقال له : « الحـق معك . لكن لا بأس من ان تصحح ما كتبت بازالة حرف الياء فيستقيم الامر » . وراح يلقي على مسامعنا ما كان يفعله الاتراك لمحو كـل اثر عربي بقصد تتريك العرب وجعلهم ينسون قوميتهم. فحول بذلك مجرى الافكار . وعاد الصفاء يخيم في انحاء الصف . وقام صـادق واعتذر من الاستاذ على جوابه الحاد وانتهى الامر بسلام .

ومن الاساتذة من كان يدخل ويعطي المنصة ، فيغمض عينيه

ويتكلم بلا توقف ودون ان ينظر الى احد ، وذلــك حتى ينتهــي وقته فيسكت فجاة ويتوجه الى الباب بعد القاء تحية عثمانية على الطلاب الواقفين له اجلالا . هكذا كانت عادة الاستاذ مصباح محرم رئيس محكمة التمييز . واني ما ازال اذكره وهو يرتدي معطفا سميكا ويلف حول رقبته شالة كشميرية الصنع ويستند الى عصا غليظة ويسير منحني الظهر . فاذا ما اراد القاء التحية مد يده حيث تكاد تلمــس الارض ثم رفعها الى رأسه . اما المصافحة ، فكــان لا يعرفها كثيره من الذين عاشوا في العهد العثماني . وكنا نحن الطلاب نحتار كيف نرد تحيته ؟ انقلده ام نقبل على مصافحته وتقبيــل يده ، كمــا كانت العادة سائدة بين الكبير والصغير . فاما ان يتســامح معنا بتركنا نطبع على ظاهر يده قبلة التبجيل والاحترام ، واما ان يسحب يده قائلا استغفر الله . . . حسب تواضعه والمقام الذي يجيز له مد يده برسم التقبيل . هكذا كانت قواعد التحية بين الناس : الصغير يضم ازرار سترتهوكذلك يضم يديه الىصدره وينحنيانتظارا لتحيةالكبير . وعندها يهرع الى تقبيل الايدي وتلقي قبلات الكبير على وجهه او على كتفه. ونحن المخضرمين نذكر جيدا انه اذا دخل احد الى مجلس ما، اقدم على تقبيل المتصدر اذا كان ذا مقام رفيع ، بعد ان يلقي في طريق وصوله اليه عدة تحيات من الارض حتى الراس ، ثم يجلس . و عند ذاك يحيي بيده وقوفا او جلوسا سائر الحاضرين . امــا المصافحة بالايدي التي جرت العادة على اتباعها الان ، فما كانت معروفة ولا مستعملة . وقد تفشت بعد الحرب العالمية الاولى . فيدخل الضيف ويصافح الحاضرين واحدا واحدا ولو بلــغ عددهم الخمسين ، بينما ينتظر الجميع وصول دور المصافحة اليهم . وهذا امر مزعج فعلا . وهلا يمكن الاكتفاء بالتحية العربية الاصيلة ، اي السلام عليكم» ثم الجلوس في اي مكان خال ليجنب الناس الوقوف والمصافحة وقطع الحديث وتحري المحل المتناسب مع مكانة الداخل .

وكان الاستاذ عبد اللطيف صلاح ثقيل الظل، متعجرفا، مقطوع الصلة مع الطلاب ، لا تعرف شفتاه الضحك ، ولا التبسم . وذات مرة كنت جالسا الى جانب سامي البكري ، فراح من ضيق صــدره من محاضرة الاستاذ صلاح يهمس في اذني قصص الاولين والآخرين، فلاحظ الاستاذ ذلك . فقطــع حديثه وســال البكري اذا كان يعتبر المحاضرة غير مستحقة للانتباه. فاجابه بأنه كان يقول لي انني لا افهم ما يقوله الاستاذ ، لان له جيوبا في انفه تجعل صوته خفيفا . ورجا

الاستاذ ان يعمل عملية جراحية لازالة هذه العوارض ليصبح صوته جليا واضحا . فضج الطلاب بالضحك ، بينما اكتفى الاستاذ بشكر البكري على ملاحظته ، بكل لؤم وانزعاج .

وكنا لا نحب سماع محاضرات الاستاذ شاكر الحنبلي لسبب ليس له اية صلة بطول باعه في الحقوق الادارية التي كان يدرسها. فكنا اذا شاهدنا قامته الطويلة قادمة الى المدرسة ، لجانا الى غرفة وراء باب المدرسة واحنينا ظهورنا حتى لا يرانا الاستاذ وهو داخل الى الصف . فحدث ذات مرة ان دخل الاستاذ على غير انتظار الى الغرفة التي كنا مختبئين فيها ، وظهورنا منحنية . فرآنا على هذه الحال وعاتبنا قائلا : هذا اذا سبب عدم حضوركم محاضراتي ، افلا تعجبكم ؟ فخجلنا منه اي خجل ، لا سيما انه كان رقيق المعشر . واعتذرنا منه وتابعنا حضور محاضراته كلها منذ ذلك اليوم .

اما استاذ المجلة ، الاستاذ سعيد مراد ، فكان عالما متبحرا ولا شك . الا انه كان يعوزه اسلوب افهام الدروس لطلاب مثلنا يتلقون هذه العلوم لاول مرة في حياتهم ، ولربما كان مرد ذلك الى انه قادر على المناقشة مع زملاء في سويته العلمية . وكنت اضيق صدرا من الجلوس لسماع اقواله التي كانت بعيدة عن ادراكي وتفهمي، حتى قطعت الامل وصرت اجلس في الحديقة ريثما يتم الاستاذ درسه. وقد حقد علي الاستاذ وكتم غضبه حتى كان موعد الفحص، فاسرع بمبارحة القاعة عندما دخلت اليها . فاديت الفحص امام الاساتذة الآخرين واجدت الجواب . ولم يعد الاستاذ الا حينما تحقق انني انتهيت وتركت القاعة . فوضع لي علامة دنيئة لا تتناسب مع اجادتي التي لمسها زملاؤه . فسألوه عن سبب كسر معدل علامتي فقال : مهما كانت اجوبته صحيحة ، فانه لم يكن يحضر محاضراتي !

وكان الاستاذ عثمان سلطان لطيف المزاج محبوبا ، وخاصة انه كان يضحكنا عندما يبحث الفتحة ، فيذكر الساحب ويشير بباهمه الى تحت ، اما اذا ذكر المسحوب عليه فيرفع بباهمه الى فوق مستعينا بيده الثانية وباهمها لتصوير المبلغ المسحوب ، فكان ذلك حوارا بين باهميه ، بخفض الواحد ورفع الآخر . وكان يغلط احيانا بالاشارات ، فيتطلع الى الباهمين كانه يستوحي منهما الواقع . وكنا احيانا ندعي اننا لم نفهم جيدا ، فناخذ بباهمينا ونقلده بحركاته . فيجيب هو من اعلى منصته بحركات مماثلة ، مما كان يسبب انفجار الجميع بالضحك . وكان يضحك هو معنا ولا ياخذ دعابتنا معه على

سبيل المزاح او السخرية .

وخطر على بال الاستاذ محمد كرد علي في اثناء توليه المعارف في ١٩٢١ ، ان يخلق لنفسه بمدرسة الحقوق كرسيا جديدا لتعليم اللغة العربية . وكان الكثيرون منا ، بالفعل ، بحاجة لاتقان لغتنا ، ولكن الامر صعب علينا بعد ان وصلنا الى الجامعة دراسة « نصر ينصر نصرا » الى آخره. وشق الامر كثيرا على زملائنا الذين اتموا دراستهم الاعدادية في المدارس العربية الخاصة التي كانت موجودة في زمن الاتراك فراحوا يطرحون على الاستاذ اسئلة محرجة اعلى من سوية معرفته الخاصة باللغة العربية . فكان يتجادل مع الطلاب وهم يقيمون عليه الحجة فيضطر بنهاية الامر الى التسليم . واستمر الامر على هذا المنوال مدة من الزمن الى ان شعر الاستاذ بحرج موقفه فنزل عند ارادة ادارة المدرسة والغى الدرس وذهب في حال سبيله .

وكانت المدرسة تشغل الجناح الغربي من البناية المخصصة الآن لوزارة المعارف . فكانت الغرف السفلية الثلاث للصفوف الاولى والثانية والثالثة والغرف العلوية الثلاث تحت تصرف المدير والكاتب، والاخيرة للفحوص . ولم يزد طلاب المدرسة حينما اكتمل افتتاح الصفوف الثلاث على مئة وعشرين طالبا. فاين هذا الرقم مما وصل اليه عدد المنتسبين لكلية الحقوق ، وهو ما يزيد عن خمسة عشر الفا على وجه التقريب ؟ واحتلت الجامعة السورية ابنية الثكنة العسكرية بردهاتها الفسيحة ، التي كانت من قبل تستعمل كمضاجع للنوم وكصالات للطعام تتسع لجميع افراد الجيش الخامس الذي كان مركزه بدمشق .

كنا ستة رفاق : صادق العظم ومحمود النجار وفؤاد المحاسني وموفق الحسيبي ومختار الايوبي وانا ، نؤلف حلقة مسيطرة على صفنا ، وبالتالي على شؤون المدرسة . فنزور مدير المدرسة السيد عبدالقادر العظم، الذي حل محل عبد اللطيف صلاح بعد تركه دمشق هو وسائر العاملين بالحقل السياسي ، عقب دخول الافرنسيين سورية في تموز ١٩٢٠، وقلما كان المدير يرد لنا طلبا او اقتراحا . والجدير بالذكر اننا ، طيلة السنين الثلاث التي تضينها في المدرسة ، لم تحصل اية مظاهرة ولم يضرب احد من الطلاب . اذ كانت الفترة بين ١٩٢٠ و ١٩٢٢ هادئة، لم يظهر فيها سوى انتفاضة واحدة، هي عندما زار المستر كراين مدينة دمشق وقام الشهبندر مع من بقي

بدمشق من العاملين في الحقل السياسي باظهار معارضتهم للانتداب. غير ان مدرستنا لم تشترك في هذه الحادثة . وتقضي على الحركة دون ان ينال الطلاب اي اذى . ويعود ذلك الى ان عهد الملك فيصل لم يرافقه سوى حزب الاستقلال الذي ركز جهوده على المظاهرات والبرقيات والاجتماعات التى كانت تعقد في الاحياء ، معتمدا على وجهاء الاحياء من الارستقراطيين او البرجوازيين. ولم يدخل الطلاب كعنصر من عناصر الحركات التي كان يتولى خلقها وتوجيهها . باعتبار مجموع الطلاب في دمشـــق منتسبين الى المدارس الابتدائية او الاعدادية لفقدان الجامعة ، فقد كان صغر سن التلاميذ احد الاسباب الرئيسية في تجنبهم الاشتراك باعمال السياسة . اما الحزبيات فكانت معدومة لدى التلاميذ ولدى العامة ايضا ، لانه لم يمكن ثمة غير حزب واحد كما ذكرنا . فعندما لجأ الرؤساء الموجهون الى الاردن ومصر هاربين من وجه القوات الافرنسية ، اصبح الشعب كالجسم المشلول راسه . فانحلت الروابط ولجأ كل فرد الى مهنته، مبتعدا عن السياسة والميدان العام .

وكان عددا وفيرا من رفاقنا في مدرسة الحقوق من المنتسبين سابقا للنادي العربي الذي تألف لجمع شمل الشباب . لكنهم بعد تموز ١٩٢٠ ، صـــار الواحد منهم ينكر هذا الانتساب ويتهرب من الحديث في الشؤون العامة . وحينما زار الجنرال غورو مدرستنا في احد ايام ١٩٢١ ، وقف الطلاب جميعهم للتحية ولم تبدر منهم اية حركة معادية . وهذا يدلنا بوضوح على ان الشعب ، اذا لم يكن له زعماء تسير الجماعات خلفهم وتنفذ الخطط التي يضعونها ، فلا رجاء لمقاومة شعبية لمحتل اجنبي او ديكتاتور محلي . والشعب بمجموعه قوة كامنة ، اذا لم تدفعها قوة متحركة ، تبقى السنين الطوال في محلها . والثورات التي نشبت في انحاء العالم هل كانت وليدة ارادة الشعب او الجماهير ، ام ان زعماء سياسيين او عقائديين رفعوا اصواتهم واثاروا حماس الافراد ووجهوا مطامحهم نحـــو هدف استقلالي او اجتماعي،ولوحوا امامهم بمستقبل زاهر زاخر بالخيرات والبركات ، فسار الشعب وراءهم في ثورة جرفت كل ما وجدته امامها بدون تفكير ؟ والحركة الناجحة تسمى ثورة مباركة ، والفاشلة توصف بالعصيان . فينال القائمون بها انواع الاذى ، بينما يرفل اصحاب الحركة الناجحة بالنعم والمناصب وتسجل اسماؤهم في لوائح المجد في تاريخ الامة .

كان قرب موعد الفحوص السنوية حافزا للرفاق الستة الذين ذكرت اسماءهم للاجتماع يوميا لمراجعة الدروس . وكانت دارنا محل الاجتماع الدائم طيلة شهرين . كان كل منا يدرس وحده ثم يلتئم العقد ظهرا . ونبقى حتى الصباح ، يجيب كل منا على ما يطرحه عليه زميلنا محمود النجار من الاسئلة . وكان محمود المجلي في صفنا كله ، فكان يصحح الاغلاط وينبه الى ما ينسى احدنا ذكره . وكانت تتخلل ذلك كله نكات يطلقها هو ، او صادق ، او مختار ، او موفق ، او فؤآد ، فيطغى على اجتماعنا المـرح والغبطة ، مما خفف من اعباء الدرس الثقيلة . وكانت الاغاني الرائجة هي تلك التي وضعها سيد درويش . وقد حفظها محمود النجار كلها كما لو كانت جزءا من مواد الفحوص . وصرنا نردد معه كالكورس « سلمى ياسلامه » وغيرها من الاغاني السخيفة ، حتى اذا انتهت فرصة الاستراحة عدنا للدراسة بجدية ، وظللنا هكذا مدة ساعة ، ما لم يصرخ فجاة مختار او موفق ويبدا اغنية من الاغاني ، وذلك عندما يعسر على احدهما فهم الموضوع المبحوث ، مثل « يـا بو الكشاكش . » فيحتد محمود ، لكنه سرعان ما ينضم الينا في الفرفشة والغناء والتصفيق .

وتلك الاغاني السخيفة في اقوالها ، الركيكة في موسيقاها ، كانت على النمط الآتي :

يابو الكشاكش ايه جرا ياهل ترى
دقنك شابت بالمسخرة وامور الفشوره

رأيي في الموسيقى العربية والاغاني الشائعة

وبفخر المصريون بان بلادهم انجبت سيد درويش الذي قلب الموسيقى العربية والاغاني الشائعة رأسا على عقب ، وكانت له فتوحات وغزوات في عالم الموسيقى الحاضرة . وانا لا افهم مطلقا كيف ان اغنية كالتي ذكرتها يمكن ان يفخر بهـا موسيقيو العصر الحديث . والحقيقة ان سـيد درويش ضرب الموسيقى العربية الرائجة حتى لم يبق لها اثر . فجاء في اعقابه من شيدوا الموسيقى العصرية على قواعد فنية تطرب في الحانها ومعانيها . وفي مقدمة هؤلاء الاستاذ محمد عبد الوهاب والسنباطي في النغم ، ومحمود طه واحمد رامي في صياغة الكلمات . وذلك بالاضافة الى القصائد الغراء التي وضعها الاستاذ احمد شوقي ولحنت لام كلثوم ، فزادتها بعذوبة صوتها ورخامته ، رقة وتاثيرا على المستمعين. وبعد الفترة القصيرة ، نسبيا ، التي تصدر فيها عبد الوهاب وام كلثوم عرش

الغناء ، اي بين ١٩٢٥ و ١٩٤٥ ، جاءتنا قافلة جديدة من الملحنين الجدد والمغنيين الذين اكتسبوا عن غير استحقاق شهرة لا يستحقها منهم ، امثال فريد الاطرش وعبد الحليم حافظ ومحرم فؤاد .

الطرب والغناء والموسيقى بين الامس واليوم

وقد تعلق عامة الشعب بهذه الاغاني ، لا لانها تعبر عن روح موسيقية رفيعة ، بل لان في مقدور اي من الناس ان يفتح فمه ويتلفظ كلمات اغاني عبد الحليم حافظ مثلا ، مع شيء بسيط من النغم ، ليشبه اليه انه من سويته وعبقريته . ناهيك بالدعاية الواسعة التي التي ترافق مطربينا الجدد في الصحف والاذاعة والتلفزيون ، والوله والاعجاب حتى العبادة ، تظهرهما فتياتنا الكواعب نحو المغني الشاب ، او يظهرهما شبابنا الصاعد نحو المغنية الفتية ، لا سيما اذا كان الله حبا اولئك المطربين والمطربات بمسحة من الجمال العصري والجاذبية الجنسية . ومن يقلب صفحات الكتيبات المطبوعة المنتشرة الآن ، والحاوية كلمات الاغنيات العصرية ، لا يجد فرقا بينها وبين اغاني ما قبل الحرب العالمية الاولى ، مثل « عصفوري يما » او « على الروزنه » .

واعود فأذكر ان الموسيقى والغناء العربيين ، بعد ان تخلصا من السخافات التي كانت شائعة حتى عام ١٩٢٥ ، عادا اليوم الى ما يدانيها . ولم تكن فترة العشرين سنة (١٩٢٥ ــ ١٩٤٥) الا كصحوة الموت ثم لم يلبث الذوق العام ان عاد الى سباته ورقدته .

ولم تستطع النوادي الموسيقية في مصر ، على الرغم من امكانياتها الواسعة ، الوقوف تجاه التيار الجارف . وذلك تماما كما حصل في تقهقر الموسيقى الكلاسيكية وقلة الانتاج التي تشكو منها تجاه موسيقى الجاز الصاخبة . على ان هذه الاخيرة ، لو لم تكن مستندة الى الرقص الذي يستجلب وحده الشبان والشابات ، لما كان ليكتب لها النجاح والاستمرار . واظن ان سبب هذا الشيوع والبقاء هو في طباع الجيل الحاضر الذي لم يعد يعجبه كل ما هو بطيء . فلا ركوب الخيل او السير على الاقدام يستهويانه ، بقدر النشوة التي يشعر بها وراء مقود السيارة التي تسابق الريح ، او في ركوب الطائرة التي توصله في ساعة واحدة الى بلده . والاكل لم يعد يلذ الا خلف موائد السناك بار . واستبدلت الخيل والبغال والحمير التي كان يستعملها الفلاحون بدراجات نارية او عادية . فالسرعة والايجاز هما من مقومات الحياة العصرية ، فلا يصح استغراب عزوف الشباب عن الادوار القديمة او مقطوعات ام كلثوم التي تستغرق ساعة

وربع الساعة على الاقل . فهم بحاجة الى الغناء ، فيجدون في الاغـنية العصرية كلمات سهلة الحفظ ولا يشعرون باي عناء في اداء اللحن. ثم انها تنتهي بسرعة . فاللهجة العامية واللحن البسيط والسرعة تضمن للاغاني العصرية نجاحا كاملا في الاوساط الشعبية ومحيط الشباب الذي نشأ في عصر تسوده هذه الموسيقى ، لا سيما ان كثيرا منها مقتبس من الاغاني الافرنجية ، او هو بنفس الايقاع الذي تتميز به الموسيقى الراقصة . حتى ان اغاني أم كلثوم الشيقة لا تبعث في الشباب سوى الملل والازدراء ، بعكس فيروز التي لا ننكر حلاوة صوتها ومقدرتها على اداء الاغاني التي يلحنها لها الرحباني ، وهي مزيج من اغاني محمد عبد الوهـــاب القديمة واغاني الفولكلور اللبناني . اما سميرة توفيق ، ذات الوجه الحلو ، فمع قلة التنويع في اغانيها ، فهي تلاقي استحسان الجمهور من المسنين والشباب لجمالها اكثر من فنها الموسيقي . واذكر بهذه المناسبة ان ضابطين من اصحاب المقام الرفيع تزاحما على هذه المغنية ، فسمح لها إحدهما بدخول سورية لاحياء حفلة في فندق بلودان . لكن الثاني اصدر امره بمنعها . وكادت تحصل مشاجرة بينهما ، الا ان اصدقاء الطرفين تدخلا في الامر فسوي ، ودخلت المغنية الى سورية . لكن الجفاء والحقد بقيا في قلب الضابطين حتى تمكن احدهما من ازاحة الاخر عن منصبه .

ومن بين المطربات ذوات الصوت الرخيم والوجه البسيم ، نستطيع ان نذكر المرحومة اسمهان التي لمع اسمها خلال الحرب العالمية الثانية كعميلة انكليزية ، وكمطربة وممثلة سينما . ولكنها انطفأت فجاة بحادث سيارة قيل انه كان مفتعلا . وعلى اي حال ، فاني على يقين من انها كانت ستحتل مركزا مرموقا في الغناء ، لو امد الله بحياتها ، رحمها الله .

اما المغنين القدامى الذين استمعت الى صوتهم ، فمنهم الشيخ سلامة حجازي . وقد حضرت في صيف ١٩١٣ احدى الروايات التي قام بتمثيلها مع جورج ابيض في مدينة زحلة . وما يزال صوته يتردد في اذني ، لا لانه اعجبني ، لكن لنوع من الغناء اختص به واشتهر ، في عهد كان المستمعون يطربون فيـــه لرجفة الصوت المفتعلة ويعتبرونها قمة الفن .

وكذلك استمعت الى ابي العلاء ، وهو يغني مع ام كلثوم في ١٩٢٦ والى جانبهما عدد من المرددين دون ان ترافقهما اية آلة

موسيقية . وكان الشيخ سعيد الصفطي يغني الادوار القديمة فيثير حماس الجمهور بشكل لا يقل عن حماس جماهير اليوم لعبد الحليم حافظ مثلا . ومنيرة المهدية وفتحية احمد من المطربات اللاتي تبوان عرش الشهرة حتى ١٩٢٥ ، ثم جاءت ام كلثوم مباشرة فانحسرت اسماء كل مطرب امامها وانزوت .

وفي ١٩١٩ جاء دمشق جورج ابيض وفرقته . فكان فيها من غنى مونولوجات بدأت بالانتشار منذ ذلك العهد ، منها « انا رايت نفسي ببستان » .

ثم بزغ نجم محمد عبد الوهاب في مصر ، بفضل احمد شوقي الشاعر الشهير ، وراح اسمه يذكر على كل لسان . واذكر ان اول مرة سمعته فيها كانت في ١٩٢٩ على مسرح العباسية . كان صوته رفيعا كجسمه النحيل . وهو ، والحق يقال ، ذو عبقرية موسيقية واسعة ، رغم ان اكثر اغانيه كانت مقطوفة من زهور الموسيقى الافرنجية . الا انه كان يقتبس تلك الالحان الافرنجية ويمزجها باللحن الشرقي ، فيكسب هذا اللحن عذوبة من جراء ابتعاده عن الترديد على وتيرة واحدة. واعتقد ان عبد الوهاب هو اعظم موسيقي شرقي في العصر الحاضر ، كما كان احمد شوقي اكبر شاعر معاصر .

وتبع عبد الوهاب في الشهرة فريد الاطرش . وهو سوري من جبل الدروز ، وشقيق اسمهان . وكانت اول اغنية اندفع بها الى الامام « يلرتني طير » ثم تابع طريقه كملحن ومغن ونجم سينمائي . واكثر عشاق صوته من الفتيات .

ومن المطربات القدامى « ليلى » وكانت تزوجت عبده الحمولي . وقد كانت لاسرتي معها صداقة متينة، فلما زرتها في ١٩٢٥ في القاهرة، آنستني بلقائها واعتذرت عن اسماعي بندة من غنائها لانها كانت وصلت الى الكهولة ولم يعد لها طاقة على الغناء . انما كانت معجبة بام كلثوم التي بدأ اسمها يتدرج صعدا في سلم المجد الغنائي . وقد تنبأت لها بمستقبل براق .

حياة اللهو والمرح في صباي

وكان لي صديق اسمه رضا جوخدار ، رحمه الله ، معجب بالموسيقى وذو صوت رخيم ، طالما سمعناه مع رفيقه العواد الماهر شفيق شبيب ، وكان لدى جوخدار مجموعة نادرة من الاسطوانات القديمة ، وكلها من نوع الادوار التي كان يلعبها الصفطي ، وابو العلاء ، وعبد يحي حلمي ، وزكي مراد . كما كان لوالدي صديق اسمه مصطفى بك سليمان بك ظل محافظا على وداده ، فياتي كل

مساء لنسهر معه وبعض الاصدقاء ، كالاستاذ المرحوم حسن التغلبي ، وفؤاد الهاسني ، ومنير العيطة ، وكامل الياسيني ، وكان مصطفى بك ماهرا بالعزف على العود ، وهو الذي دربني على ما اعرفه من الموسيقى الشرقية والحانها . فصرت اذا سمعت لحنا اعرف فورا اذا كان من مقام البيات او الرصد او السيكاه مثلا . وكم ليلة كنا نذهب انا واياه الى دمر وحدنا ، فيمسك بعوده ويسترسل في العزف حتى بزوغ النهار ، وانا ممدد على مقعد امامه استمع اليه واغفو في بعض الاحيان . وعندما يبلغ به التعب مبلغه ، يقول لي : « قم لنأخذ قسطا من النوم » ، ويذهب كل منا في حال سبيله . كان محبا للموسيقى الى درجة انه يفضل ان يكون وحده فيعزف الساعات العديدة دون كلل او ملل ، ولا يستعين الا بلفائف التبغ يستهلك منها كل ليلة اربعين او خمسين سيكارة ، وبالقهوة الحلوة ايضا . وكان لا يذوق الشراب اطلاقا . رحمه الله هو والتغلبي والياسيني ، فهم الذين كانوا يلازمونني كل ليلة نسهر فيها مع غيرهم من الاصدقاء . فابعدوني عن طريق المقاهي وملاعب القمار ، اذ كانت سهراتنا مقتصرة على سماع الموسيقى والاناشيد والنكات وقصص التاريخ . وكنا في ايام الاعياد نذهب الى دمر او القواص حيث نقضي ايام العيد ولياليه بالمرح والسرور البريئين .

فلئن كان لهذا المحيط فائدة من حيث تجنيبي الملاهي غير المحتشمة ، فقد كان له ، من جهة ثانية ، اثر في انكماشي عمن اتعرف اليه وانكفائي ضمن حلقتي الخاصة . ومن ذلك نشأ جمودي وبرودي في مصادقة الناس ، بينما ارى اناسا كثيرين سهلي المعشر ، تقوم بينهم وبين من يتعرفون اليهم صداقة منذ اللحظة الاولى . اما انا فقد ترعرعت في هذا المحيط المنعزل وصرت ، اذا ما تعرفت الى شخص ، بقيت علاقاتي معه سطحية ، غير صميمة . فانتهى الامر الى اتهامي بالتكبر والعجرفة ، في حين ان الحقيقة لا تخرج عما ذكرت . فاني رجل غير اليف ، لا يحب رفع الكلفة بينه وبين الناس ، ويظل منكمشا عنهم . وهو طبع صقله محيطي في مطلع عمري . اذ كان والدي ، رحمه الله لا يريد ان اعاشر احدا ، خوفا عليّ وعلى اخلاقي ان يفسدها رفيق غير مشهود لـه بسويته الاخلاقية . ولا اذكر ان المرحوم والدي اوصاني بصداقة احد غير السيد شكري القوتلي . وقد كان والده صديقا حميما له ، غير ان اية صداقة لم تتوطد بيني وبينه ، دون ان اعرف لذلك سببا . وكذلك اوصاني

المرحوم والدي بمصادقة نجلي المرحوم حسين حلمي باشا الذي كان صدرا اعظم . لكن برغم كوننا منتسبين الى مدرسة واحدة،وهي غلطه سراي باستنبول ، فقد ظلت علاقاتنا باردة جامدة . وكذلك ربيت في حجر والدتي وصرت اذهب معها في زياراتها لصديقاتها كما لو كنت بنتا . واستمر الحال الى ان انتسبت الى مدرسة الحقوق وتوفي والدي ، فاخترت لنفسي شلة من الاصدقاء الذين ذكرتهم . وكنت موفقا في هذا الاختيار . على انني بعد ان توفي منهم من توفي ، وانصرف الاخرون الى اعمالهم التي لم تعد تسمح لهم بملازمتي ، بقيت وحيدا ولم اعقد صداقة جديدة ، فيما عدا الرفاق الذين لم تتمكن بيني وبينهم الصداقة الى الحد الذي خصصته للاولين .

ولربما كان هذا الطبع موروثا عن والدي فانه ايضا — مع مباشرته جميع الناس واتصاله بهم كزعيم شعبي — لم يصادق غير نفر قليل كانوا يلازمونه ليل نهار . وهم مصطفى بك سليمان بك ، وكمال الياسيني اللذان ذكرتهما فيما سبق ، وعاطف فوق العادة ، جارنا في حارة داور اغا ، والشيخ توفيق المنيتي ، والمرحوم سليم نصاب حسن ، وكان شاعرا مهذبا وذا حظوة كبيرة لدى والدي . حتى انني اذكر انني دخلت مرة عليه ، وكان يصلي فهمست بأذن والدتي ان خبرا ورد الآن ان سليم قد توفي بحمى التيفوس خلال الحرب العالمية الاولى ، فشهقت والدتي . وادرك الامر والدي فنفرت الدموع من عينيه وقطع صلاته وقعد يندب رفيقه ويبكي عليه، وقد بلغ منه التاثر اكبر مدى .

واعتاد والدي استقبال ضيوفه كل يوم ، من الصباح حتى الظهر . فيأتيه المئات من وجهاء القوم واصحاب المصالح يرجونه التوسط لحل مشاكلهم . فكان يشير الى احد الاصدقاء بأن يرافق صاحب المشكلة الى المركز المختص ليوصي به . وعندما يحين وقت صلاة الظهر ، كان المرحوم والدي يرمي بنربيش اركيلته ارضا فيقوم جميع الزوار فورا وينصرف كل منهم في سبيله . ويدخل الى « الجواني » ، وهو القسم من الدار المخصص للسيدات ويتناول معنا طعام الغداء . وكان المرحوم يجلسني الى يساره ، ثم يجلس والدتي وشقيقتي الكبرى . وتجلس على يمينه شقيقتاه وشقيقتي الصغيرة . ولم يتغير هذا الترتيب البروتوكولي حتى لو كان ثمة مدعوة من الاقرباء . واستمر الحال هكذا حتى تزوجت في ١٩١٩ فحرت بامري ، هل اترك زوجتي تجلس في آخر المائدة وحدها وابقى انا محتفظا بمقعدي قرب والدي ؟ فاخترت ان اجلس الى جانبها في

المؤخرة ، فارتاحت هي رحمها الله لرقتي في مجاملة شعورها . ولم يطل هذا الترتيب الجديد اكثر من شهرين اذ انتقل والدي الى اعلى عليين وصرنا نتناول طعامنا في غرفة اخرى صغيرة نجلس فيها على الارض . وكان الطعام يقدم لنا بصحون عادية موضوعة في منتصف الحلقة . وذلك وفقا لقواعد الحزن الذي فرضته والدتي على حياتنا الجديدة . وقد لبست السواد هي وكل من في البيت . وصرنا نجلس في غرفة مفروشة بمقاعد حول الجدران ، مغطاة باقمشة سوداء . وكان على الارض سجادة مقلوبة على وجهها وعلى الشبابيك قماش اسود . وهكذا انقلبت حالة الفرح ، على اثر زفافي ، الى حالة الحزن المبكية . واصبحت دارنا كأنها مهجورة نجتمع كلنا في احدى غرفها . وكان يسود البيت سكون وهدوء مخيفان .

وكان والدي المرحوم يأخذ قسطا من النوم بعد الغداء ، ثم يقوم لصلاة العصر ويقعد في مدخل الدار القديم من حارة داوراغا . فيأتي لعنده جاراه مصطفى بك وعاطف افندي . وبعد ان ينتهي من نفس الاركيلة التي كان مولعا بها ، يمتطي مركبته وبرفقته احد اصدقائه وانا ، ونذهب حسب الموسم الى دمر او بستان القواص بالغوطة ونبقى هنالك حتى قرب المغرب . واذا لم يقم بهذه النزهة ، كان يتوجه مشيا حتى مخزن صديقي منير العيطة ويجلس فيه ساعة من الزمن . هكذا كانت عادة الوجهاء . اما النزهة بالمركبة او الجلوس في احد المخازن في سوق الحميدية او السنجقدار ، اذ لم يكن بدمشق ناد راق يستطيع من كان بمقام والدي ارتياده . اما الزيارات للاصدقاء فلم تكن مألوفة فيما عدا قبل الظهر او ليلا .

وكانت مركبتنا من اجمل المركبات الخاصة ، يجرها جوادان ازرقان جميلان اعجب بهما الشريف حيدر عندما جاء دمشق في مطلع الحرب العالمية الاولى . فطلب من والدي ابتياعهما فلبى والدي طلبه . فشكره الشريف وارسل مع احد مرافقيه ثلاثمائة ليرة عثمانية ذهبا ، تمنع والدي عن قبولها . لكنه نزل عند اصرار الشريف وقبضها . فسألته : «لماذا تبيع الجوادان ونحن لسنا بحاجة لقيمتهما ؟ واني لنا ان نعثر على غيرهما في هذه الايام التي صادر الجيش التركي جميع الخيول ؟ » فاجابني : « ان حيدرا ياتي مقامه في الدولة بعد الصدر الاعظم ، باعتباره شريفا لمكة المكرمة ــ وكان قد عين في هذا المقام اثر ثورة الشريف حسين ــ فكيف نخالف له رغبة ؟ »

وهكذا كان القوم ، يحترمون الكبير ولا يردون مشيئته .. وقد استحال الحصول على جوادين ، فجلب والدي من القرية كديشا وبغلا ، الاول ابيض والثاني احمر . وكان المضحك ان الحوذي لم يستطع تعليمهما الاقلاع بالمركبة ، اذ كانا يحرنان ، فينزل اليهما ويجرهما مسافة ثم يسرع لامتطاء المركبة . وكنت في اثناء ذلك امسك بمقودهما حتى لا يجنحا . وكثيرا ما كنت اعاني من هذه المشكلة عندما اخرج من المدرسة لامتطي المركبة ، فيضحك رفاقي الذين تجمعوا لجر الحيوانين ، الى ان ضقت بالامر ذرعا . فطلبت من والدتي ، وكان والدي مسافرا في استنبول ، ان تستبدلهما . فاشتريت جوادا انكليزيا اسود ، وراح الحوذي يكدنه مع فرسي الانكليزية . فتحسن ـ ، لا سيما بعد ان اشترى والدي بعد الحرب مركبة جديدة ذات دواليب من المطاط . فكنت تسمع الجوادين دون صوت الدواليب . وعندها بدت عجرفة الحوذي واعتزازه بمركبته الجميلة وبجواديه الاسودين ، فصار يقود المركبة وكانها مركبة ملك الانكليز . وعاد نشاطه ومرحه ، بعد ان مر في فترة الكديش والبغلة المنحوسة التي قصمت ظهره وانزلت عليه الكآبة . وكان يعتريه الاستحياء من عبور الطريق وهو يقود هذين الحيوانين البشعين .

وبعد عودة والدي من نزهة بعد الظهر وتناول العشاء ، يجلس مرة اخرى في قاعة الاستقبال في القسم البراني من الدار . فيتوارد الاصدقاء الاخصاء الى جلسة مرح ومزاح لا يحضرها غريب . وتدوم السهرة الى نحو منتصف الليل ، حين يرتمي نربيش الاركيلة مرة اخرى ، فينصرف الزوار . وفي تلك السهرات كان والدي يتلقى من رفاقه اخبار البلد اليومية ، فيضع الخطة للعمل بعد ان يتشاور مع جماعته في اليوم التالي ، فيتوزعون العمل . وهؤلاء كانوا وجهاء البلد واصحاب النفوذ والكلمة المسموعة ، كل في حيه . اذكر منهم : الشيخ تاج الحسيني ، عبد القادر الخطيب ، يحي الصواف ، مسلم الحصني ، احمد القضماني ، محمدالمجتهد ، الياس عويشق ، ناصيف ابو زيد ، يحي لينادو ، وغيرهم . فكانوا يؤلفون مجموعة متراصة يتزعمها والدي ، اشبه ما تكون بالحزب السياسي . وكانوا يدافعون عن مصالح البلد المحلية ، دون ان يمسوا سياسة الدولة العثمانية العامة ، بل كانوا يساندونها تجاه الجماعات التي كانت تتصل بالافرنسيين وبالانكليز وتعمل لفصل البلاد العربية عن الكيان

العثماني . وكان والدي شديد الايمان والعصبية للاسلام . وكان يردد ان العرب لم يصلوا بعد الى مستوى يستطيعون فيه ايجاد كيان مستقل يقف تجاه المطامع الاجنبية . فكان من هذه الجهة ضد الاستعمار .

امــا الاتراك ، فمــا كان يعتبرهم مستعمرين لبلادنــا بل يعدهم قوما يجب عليهم التفاهم مع الاقوام الاخرى الداخلة في الامبراطورية العثمانية ، كالارمن والاكراد وغيرهم .

ويتبين الآن صدق حدس والدي، عندما نشاهد ما هو قائم الان بين العرب من عداء واعتداء على السيادة ، وما انحدرت اليه اوضاع الدول العربية التي اقتطعت من جسم الامبراطورية العثمانية .

والدي ولمحة عن مسيرة حياته السياسية

لم اكن حتى مجيء الامير فيصل الى دمشق اعنى بالسياسة حتى من بعيد . لكن المحيط والجو الذي خلقه فيصل ، وارتيادي النادي العربي ، وسماعي المحاضرات والخطب الحماسية التي كان يلقيها الخوري اسطفان او الدكتور شهبندر ، طور تفكيري وجعلني من المتحمسين للعروبة والديمقراطية . وكنت انقل الاقوال التي اسمعها الى والدي وادافع عنها . لكنه كان يهز براسه شكا في المستقبل الذي كنت اتصوره زاهيا براقا ، اما هو فكان يقول لي ، وخاصة في اواخر ايامه ، ان لا بد من مجيء الافرنسيين الى هذه البلاد فتصبح كالجزائر والمستعمرات الافرنسية الاخرى . وكان منقبض الصدر كثيرا ويردد اللوم على الزعماء السياسيين الشباب، مثل مردم والشهبندر والشيخ قصاب ، ويقول : « لقد استبدلنا بالافرنسيين الاتراك .. وعلى اي حال ، فالدولة العثمانية كانت دولة اسلامية . »

واذكر ، انــه في اليــوم الذي سبــق وفاته ، قــال لي : « اشهد علي ، يابني ، باني ســوف لا اشتغل في السياسة منذ الساعة . » وذهب صبيحة اليوم التالي الى البستان هربا من الاجتماع مع الناس . وعاد ظهرا وتوفي قبيل الغروب . رحمه الله ، واسكنه اعالي جناته .

وكان رحمه الله زعيم دمشق وسورية غير المنازع . حتى ان الامير فيصل جرب ان يعاكسه بالانتخابات للمؤتمر السوري ، ففاز والدي وجميع افراد قائمته ولم ينجح واحد من المعارضين له . وكذلك عندما اجتمع المؤتمر السوري ورشح الامير فيصل هاشم الاتاسي للرئاسة تغلب عليه والدي وفاز بها . وبعد وفاته انفرط عقد جماعته

ولم يتمكن احدهم من الاستيلاء على زمام الزعامة . وانتقم منهم الزعماء الشباب وصاروا يشاكسونهم حتى استحكم العداء بين الطرفين لدرجة انه عندما انسحب الملك فيصل ، اثر فشل قواه في ميسلون وابعاده عن سورية ، هرب جميع الذين كانوا يعملون الى جانبه . فخلا الجو لمناوئيهم الذين تعاونوا مع الافرنسيين ، ان لم يكن جميعهم فاكثرهم . فتبؤوا المناصب وظلوا يمارسون الهيمنة حتى عاد الوطنيون الى استلام الحكم في ١٩٣٦ . وكان اكثرهم مهارة واقدرهم الشيخ تاج الحسيني ، فجمع حوله الكثير من الجماعة . وبفضل سمعة والده الحسنة وبالاساليب المختلفة ، توصل الى تبؤ رئاسة الحكومة من ١٩٢٨ حتى ١٩٣١ ثم من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٦، ثم رئاسة الجمهورية من ١٩٤١ الى ١٩٤٣ ، حين انتهت اعماله السياسية بوفاته .

وكم كنت اود لو استطعت نشر كتاب تذكر فيه الاعمال المجيدة التي تولاها المرحوم والدي في خدمة بلاده . وقد كلفت صديقه المحامي ناصيف ابا زيد ، وكان يدعي الشعر ، ان يضع هذا المؤلف وسلمته ما وجدته من وثائق ومراسلات تصلح ان يرجع اليها عند تاليف الكتاب . ومضت الايام والسنون والاستاذ يعدني بالانجاز . ثم ارتحل الى عالم الابدية وضاعت المستندات .

وبهذه المناسبة اذكر ان والدي تلقى دروسه في المدرسة الاعدادية بدمشق ، فبرع باللغة التركية . ثم عين كاتبا في قلم الولاية بمعاش شهري قدره ثمانون غرشا . ثم تدرج بما كان يمتاز به من ذكاء ورفعة بين اقرانه ، فعين عضوا في مجلس ادارة ولاية دمشق ، ثم خلف اخاه خليل باشا برئاسة البلدية . فبقي في هذا المنصب سنين عديدة تولى خلالها انشاء المستشفى الوطني،وكان المستشفى الوحيد في هذه البلاد.ثم ساهم مساهمة فعلية فياستجرار مياه الفيجة بالقساطل الفولاذية الى دمشق وتوزيعها بالمناهل العامة على انحاء البلد . فصار الاهلون يشربون ماء عذبا نقيا ، بدلا من مياه الانهر القذرة او مياه الآبار التي كان يندر ان تخلو دار واحدة منها . ثم كلف بادارة مصلحة السكة الحديدية الحجازية ، فقام بادارة المؤسسة من اول اعمالها حتى وصول الخط الى المدينة المنورة . وقد لا تبدو هذه المشاريع عظيمة في اعين الجيل الحاضر ، الا انها بالنسبة لذلك الزمن كانت اعمالا جبارة افادت اهالي دمشق فوائد صحية كبيرة ، وتجارية واسعة .

وكان ولاة دمشق الاتراك يعتمدون كلهم علىَ والدي ، فيستعينون بخبرته ومقدرته على حل المشاكل وتسويتها . وكان مركزه المقرب لدى ولاة الامور حافزا له لخدمة بلده وسكانها ، فحاز بذلك ثقة الناس وارتباطاتهم به . ومن هنا نشأت زعامته لدمشق .

ثم انتخب مرتين لعضوية مجلس النواب العثماني عن ولاية دمشق، فكان يسافر الى العاصمة في مطلع تشرين الاول من كل عام ويعود في شهر نيسان . وتولى نيابة رئاسة المجلس وكان مسموع الكلمة في دوائر الدولة في العاصمة ، نظرا لترؤسه كتلة النواب العرب الذين كانوا يقربون الثمانين نائبا .

وفي تموز ١٩١٢ ، اشترك كوزير للاوقاف في وزارة المشير احمد مختار باشا التي ضمت فحول رجال الاتراك ، فضلا عن الصدور السابقين ، كسعيد باشا وحسين حلمي باشا وفريد باشا وغيرهم . ولم تعمر هذه الوزارة طويلا ، اذ استقال رئيسها على اثر هجوم طلاب جامعة استانبول على الباب العالي ومطالبتهم باعلان الحرب على دول البلقان ، وما تبع ذلك من تقهقر الجيش العثماني ورجوعه حتى ابواب العاصمة .

ثم عاد لمزاولة عضوية البرلمان العثماني ، فكان يضطر للسفر من دمشق الى استانبول عن طريق البر ، بعد ان اشتركت تركيا في الحرب وانقطعت البواخر عن ارتياد المرافىء التركية . ولم يكن الخط الحديدي قد انجز بين دمشق والعاصمة ، فكان الركاب يتركونه ويمتطون عربات تجرها الخيول لاجتياز جبال طوروس الشاهقة مرتين ، حتى يصلوا الى شواطىء البوسفور .

واذكر جيدا اننا كنا نقضي ايام عيد الاضحى في احدى القرى التي كنا نملكها في حماة ، واسمها خطاب . وكنت ارافق والدي مع ابن عمته بديع بك المؤيد ، نائب دمشق ، وبعض الاصدقاء . وعندما جاءتنا الصحف تخبر بوقوع الحرب بين تركيا ودول الائتلاف المثلث، وهي روسيا وفرنسا وبريطانيا ، ظهر الكرب على وجه والدي وقال لنا : « هذا بدء انهيار الدولة . »

وخلال الحرب ارسل جمال باشا كلا من والدي وعبد الرحمن باشا اليوسف والشيخ اسعد الشقيري بقطار خاص الى المدينة المنورة ليعملوا على استجلاب العشائر الى جهة الدولة ، واقناعهم بعدم فائدة التحاقهم بالشريف حسين الذي كان اعلن الثورة العربية .

ذهب والدي غصبا عن ارادته ، اذ كان يخشى ان ينفيه جمال باشا الى بلاد الاناضول كما نفى سائر الاسر الشامية . ثم عاد من المهمة وعرض على الباشا الوضع في الجزيرة العربية ونصحه بان يجد طريقة يعيد بها الحسين الى حظيرة الدولة ، والا فالبلاد العربية كلها ستنفصل عنها عند اول هجوم يقوم به الانكليز على سورية .

ولم يأخذ الباشا بهذا الراي ، واستمر على طغيانه وبطشه بالامة العربيـــــة حتـــى ضـــاق صـــدر اوليـــاء الامر في اســـتانبول ، مما كـــــان يحمله اليـــهم النـــواب العرب من اخبار الظام والتعســـف ، فاضطروا بنهاية الامر الى اعـــادة جمال باشا الى وزارة الحربية ورفع يده عن البلاد العربية .

والدي يزور الامير فيصل ويعد بتأييده

وعنـــدما تـــدهور المـــوقف العسكري في جبهـــة فلسطين وباتت ســـورية كلهـــا على وشـــك السقوط اخـــيرا في يد الجيش البريطاني ، عـــاد زعماء جمعيـــة الاتحاد والتـــرقي التي كانت تمسك بزمام الامر في تركيا الى الصواب وارسلوا الوالي السابق تحسين بك ليتفق مع العرب على منحهم لامركزية ادارية . لكن ذلك جاء متأخرا

ولم يكد تحسين بك يصل الى حلب حتى دخل الامير فيصل دمشق وتبعه الجيش البريطاني . فسارع والدي بالسفر الى استانبول تجنبا لمساوىء الفوضى التي تعقب دخول الجيوش المعادية الى بلد ما .

لكن اصدقاءه اقنعوه في حمص بعدم متابعة سفره الى العاصمة التركية ، لا سيما ان الفوضى كانت تذر قرنها على اثر هروب اعضاء الحكومة والحزب ، مثل طلعت باشا الصدر الاعظم ، وانور باشا وزير الحربية وقائد الجيش العام ، وجمال باشا ، وجميع زملائهم.

فانتظر والدي دخول الجيش العربي والبريطاني وهدوء الحالة وعاد الى دمشق بمركبة ومعه عبد الرحمن باشا اليوسف الذي كان عائدا من استانبول ، ولفيف من ابناء عمنا القاطنين في حماه

واثر وصول والدي الى دمشق زار الامير فيصل وكان بينهما معرفة سابقة ، فرحب به واكد له انه يريد التعاون مع سائر المواطنين بدون تمييز بين من التحق بالثورة او من بقي في البلاد. فارتاح والدي لهذا التصريح ووعده ببذل كل نفوذه لدعمه ومقاومة نوايا الدول الاجنبية السيئة بحق البلاد العربية . وصارا يجتمعان باستمرار ويتشـــاوران .

وقـد اخلص المرحـوم والدي لفيصل خـاصة انه كـان ينتسب الى الرسول الاعظم ويمثل فكرة اسلامية كانت تطغى عند والدي على فكرة العروبة التي لم يكن يعتبرها رابطة قوية يمكن الاعتماد عليها . بل كان يرى ان فكرة الوحدة الاسلامية هي اوثق رباطا واكثر متانة . وعلى ذلك كان ينظر الى تفكك الامبراطورية العثمانية كضربة قاصمة للوحدة الاسلامية .

غير ان محيط الامير فيصل،المؤلف من شباب متحمسين للعروبة، كانوا يدسون ضد والدي لدى الامير فيصل ويظهرون نظريته هذه كانها خيانة للفكرة العربية . وكان رضا باشا الركابي يخشى مزاحمة والدي له في منصبه ، ولذلك كان يغذي هذه الدسائس ، يعاونه فيها جميل مردم وشكري القوتلي واحمد قدري ومعين الماضي وغيرهم ممن كانوا يجتمعون سرا ويقررون سياسة البلاد ، حتى اطلق عليهم اسم « العشرة المبشرة » . وزاد حقدهم على والدي عنـدما نجح على راس قائمته بالانتخابات التي جرت في تموز ١٩١٩ للمؤتمر السوري، بينما لم ينجح احد منهم ، مما ابعدهم عن ذلك المجلس الذي صار تحت نفوذ والدي .

ولـم تسـتقر لهم الامـور فـي المجلـس حتى توفي والدي ، فانتخبوا محله هاشم الاتاسي ، ثم الشيخ رشيد رضا ، فكانا رئيسين مطواعين وجها اعضاء المؤتمر الى ما تريده الحكومتان المؤلفتان في عهد الملك فيصل .

واشد ما اندم عليه هو اني ، بسبب صغر سني ، لم استطع الافادة من خبرة والدي . فقد توفي رحمه الله ولم اتجاوز السادسة عشرة من عمري . وكان والدي ينظر الي نظرته الى شاب لم يكتمل نضوجه ليفاتحه او يبحث معه الشؤون العامة . وهكذا لم يحطني منذ شبابي الا كأب رؤوف يرشدني ويدلني الى الصراط المستقيم ويجنبني مواقع الخطأ.وهذا ما جعلني ارتاب من كل امر واتوجس فيه الشر ولا اقدم عليه حتى يطمئن قلبي تمام الاطمئنان .

وبقيت هذه العادة مستحكمة على عقليتي.فحالما اسمع بخبر ما التعليقات السيئة والشبهات فاحسب للامر الف حسـاب بروح تراودني متشائمة.وقد حال مركب النقص هذا دون افادتي من كثير من النصائح والارشادات التي كان يقدمها لي حتى اقرب المقربين الي .

وانفـرط عقـد رفاقي الاول بوفاة احدهم وبانهماك الآخرين

بعملهم او بوظيفتهم فعاشرت لمدة قصيرة ابناء عمي جواد وتحسين وسعيد اليوسف واخاه . وذهبنا سوية الى بيروت ، فقضيت معهم بعض السهرات في المطعم الافرنسي ، حيث كانت الفنانات الروسيات والافرنسيات يطربن الحضور باغانيهن الافرنجيـة ويمتعن عيون المتفرجين برقصات وهن شبه عاريات . ولم آلف هذا النوع من التسليات التي كانت طابع سهرات بيروت الغالية . وقد عزفت عنها بعد ان جرى بيني وبين احدى الفنانات الروسيـات حادث ازعجني حتى طفح كاس تحملي ، فقطعت كل صلة لي بذلك الوسط وانزويت اقضي الصيف وحيـدا في دمر ، اقـرأ الكتب التاريخية الحديثة واستمع الى الموسيقى الشرقية والغربية على الاسطوانات، حتى قامت ثورة ١٩٢٥ ، وتذفت دمشق بقنابل الافرنسيين فاحترق الكثير من البيوت . وهرب الناس الى حي الصالحية، تلتجىء فيه كل اسرة عند اسرة صديقة . فتركت دمشق على النحو الذي ذكرته في مطلع هذه الذكريات وذهبت الى القاهرة ، حيث مكثت اربعة شهور .

اقامتي في مصر ابتعادا عن اخطار الثورة السورية

وكانت القاهرة والاسكندرية في ذلك العهد ، تطفح كل منهما بالازدهار والخيرات . فترى الشوارع مكتظة باغلى انواع السيارات والمخازن مليئة بالبضاعة النفيسة ، والمسارح تعج بالمعجبين بفن الريحاني ويوسف وهبي ، والمقاهي تكـاد تتصدع من وفرة عدد المستمعين الى منيرة المهدية وام كلثوم في مطلع حياتها الفنية . كما كانت الفرق الاجنبية تأتي، الواحدة تلو الاخرى، وتظهر على مسرح الاوبرا او الكوميدي الافرنسية . وكان المتفرجون يتبارون بلبس اجمل البدلات ، مما جعل مشاهدتهم لا تقل بهجة عن مشاهدة المسرح والممثلين .

اما المطاعم ، فكان منها الافرنجية كمطعم سان جيمس بشارع فؤاد ، وشليتو بشارع الفي بك، وهما من الدرجة الممتازة، الى جانب مطاعم الفنادق الكبرى ، مثل شبرد وكونتيننتال وسميراميس . اما المطاعم العربية فكان في مقدمتها تلك التي تقدم اللحـم المشوي . وكان الحاتي ، بالموسكي ، في رأس المطاعم الشهيرة التي تكاد لا تجد فيها مكانا . اما المقاهي الافرنجية ، فكان في مقدمتها محلات عزولي والليمونيا . واما المقاهي المحلية ، فما كانت تدانيها ، لا من حيث الزبائن ولا من حيث ما يقدم فيها من مشروبات .

وكانت نزهاتنا في القناطر الخيرية وفي الجزيرة والاهرام .

وتمركزت قيادة الثورة السورية في القاهرة ، وكان يرأسها الامير ميشال لطف الله ، ومن اعضائها شكري القوتلي والشهبندر وفوزي البكري والحاج اديب خير وغيرهم. وما لبث ان دب الخلاف بينهم ، فألف الشهبندر لجنة تستوحي خطتها منه ، والف شكري القوتلي لجنة اخرى . وهكذا ظل الخلاف يستحكم حتى انتهت الثورة وعاد السياسيون الى دمشق في ١٩٢٨ . وفي ١٩٣٧ انكشف النزاع بشكل ظاهر وعاني ، فراح الشهبندر يخطب ضد الكتلة الوطنية ويعمل ضدها حتى فرضت عليه الاقامة الجبرية في بلودان . وانتهى الخلاف باغتيال المرحوم الدكتور شهبندر واتهام جميل مردم وشكري القوتلي واطفي الحفار بتدبير هذا الامر ، فهربوا الى العراق . غير ان المحكمة الخاصة التي الفها الافرنسيون برأت ساحتهم وحكمت بالاعدام على شاب من آل عصاصة واثنين آخرين . ونفذ الحكم فيهم .

وبقيت في اثناء اقامتي بالقاهرة بعيدا عن هذا المحيط السياسي واكتفيت بتقديم بعض المساعدات المالية للوفد السوري الفلسطيني الذي كان يعمل في جنيف برئاسة الامير شكيب ارسلان يعاونه رياض الصلح واحسان الجابري .

رايي في المظاهرات الشعبية لاستقبال الزعماء

وذات مرة شاهدت في الشوارع تجمعات كثيرة استوضحت عن غايتها فقيل لي بان الملك فؤاد سيعود اليوم من الاسكندرية الى القاهرة . فذهبت مع احد ابناء البكري الى فندق كونتيننتال وجلسنا على سطيحته المطلة على ساحة ابراهيم باشا . وكانت الجماهير مزدحمة بين المحطة والقصر ، على النمط الذي تزدحم به اليوم لمشاهدة موكب الرئيس جمال عبد الناصر . فما ان اطل الموكب الملكي ، تتوسطه مركبة مكشوفة يجلس فيها الملك فؤاد والى جانبه رئيس وزرائه زيوار باشا ويحيط به الجنود والفرسان ، حتى دوت الساحة بالتصفيق وارتفعت اصوات تنادي : « يعيش الملك .. ويحيا سعد .. » وكانت زعامة سعد زغلول لا تدانى ، لكن الملك كان يرفض دعوته لتاليف الحكومة . وهذا الحماس والهتاف كنت اذكره عند مشاهدة مثيله في استقبال عبد الناصر . فكان ينادى به زعيما ، تماما كما كان ينادى بالملك فؤاد وسعد زغلول ، ثم بالملك فاروق والنحاس باشا . ولذلك كنت ، وما ازال ، لا اقيم وزنا للمظاهرات الشعبية التي يدعى بأنها تمثل اتجاه الجمهور وتعلقه بالزعيم الفلاني او بغيره .

وفي دمشق شاهدت من المظاهرات الحماسية ما لا انساه . فجمال باشا وانور باشا مع انهما شنقا نحـــو ثلاثين زعيما وطنيا واضطهدا العرب قوبلا بزغاريد النساء وحشود الاهلين تحت زخات المطر المتواصلة ، ثم لقي الامير فيصل استقبالات منقطعة النظير ، لا سيما عنـد عودته من فرنسا لاول مـــرة . فكانت السيارات والمركبات تؤلف مع المشاة سيلا عارما وصـلت مقدمته الى قصر الامارة في الصالحية ، بينما ظلت مؤخرته في دمر تنتظر دورها لتدخل في المسيرة . ثم استقبل الجنرال غورو فاتح دمشق بشكل غريب غير منتظر . اذ هجم شباب آل الطباع على مركبة الجنرال وفكوا رباط الخيل وجروها ثم حملوها ، والجنرال ينظر الى هذا المشهد وعيناه لا تصدقان ان دمشق التي حاربته نحو سنتين تستقبله بهذا الترحاب والحماس . ولم يدر في خلده ان الجماهير تسوقها الزعماء . فلما خلا جو دمشق من الزعماء الوطنيين انفرط عقد التنظيم والتوجيه ، وصار زعيم كل عشرة اولاد يقود مظاهرة ، فتندفع الجماهير خلفه بالانسياق الغريزي لا بالتفكير والتعقل .

ثم اذكر ان دمشق اضربت بحجة غلاء سعر الكهرباء . فسارت المظـــاهرات في الشوارع وكاد زمام الامور يفلت من يد موظفي الانتداب . فاعتقلوا بعض الزعماء السياسيين كفخري البارودي ونسيب البكري وابعدوهم الى الجزيرة . فلما هدات الحالة وسمح لهم بالعودة الى دمشق كان لفخري البارودي استقبال ضخم لا يقل عن استقبال الامير فيصل الذي ذكرته آنفا . اذ سارت الجموع من بلدة دوما الى دمشق ، والبارودي محمول على الاكتاف يحيي الجماهير ويخطب فيهم حتى بح صوته وتشققت ثيابه ووصل الى داره منهوك القوى . وكذلك استقبلت دمشق الوفد السوري عند عودته من باريس ، حيث ذهب لعقد معاهدة تحالف مع فرنسا . وعلى الرغم مما حوته تلك المعاهدة من شروط مجحفة ، كان استقبال الوفد بالغ الذروة في الحماس وكثرة الجماهـــــير المتدفقة لتحيته وتأييده .

ثم حظي شكري القوتلي بمهرجانات صاخبة في جميع البـــلاد السورية ما كانت اقل اهمية مما سبقها . وحينما جاء عبد الناصر تدفقت الجموع نحو قصر الضيافة تنادي باسمه وتردده ، ثم تواكب سيارته . وقد تعلق بها المتحمسون من الشبـــاب حتى انكسرت السيارة واضطر لتغييرها . وقوبل الرئيس عبد الناصر في رواحه

ومجيئه في البلدان السورية بحماس مماثل ظن انه انفرد به ولم يحظ بمثله احد في الماضي ، فاعترته هزة التعالي ونشوة الظفر . وخيل اليه ان سورية ارتمت تحت اقدامه وتعلقت بذيول وحدته ، فكان هذا الشعور ، بل الاعتقاد الراسخ ، اول خطأ وقع فيه . ولو انه طلب من احد المعمرين ان يروي له قصص الاستقبالات والاحتفاءات التي قوبل بها من جاء قبله ، لما انخدع بهذا السراب ، ولهان عليه الامر عندما انفصلت سورية عنه ، ولخفف من غلوائه واستماتته للعودة الى دمشق حاكما ، ولترك اهل هذه البلد يتخبطون فيما بينهم دون ان يشغل باله وينفق من اموال الخزينة المصرية ما انفقه. وهو لو فعل لارتاح واراح .

عودتي من مصر الى بيروت وسكناي فيها مع والدتي

بقيت في مصر حتى منتصف شهر آذار ١٩٢٦ ، ثم عدت الى بيروت التي كانت والدتي استأجرت فيها دارا لسكناها ، بعيدا عن شرور الحركات العسكرية الافرنسية في سورية ، وما كان يقوم به بعض زعماء الثورة من رؤساء الاحياء من خطف الاثرياء من دورهم ليلا لقاء فدية تتناسب مع ثروة المخطوف . وهكذا هرب من دمشق كل من خاف ان يلقى هذا المصير . فاكتظت بيروت والقرى المجاورة باللاجئين السوريين على اختلاف نزعاتهم . فاخترع بعض الزعماء من الثوار طريقة جديدة لابتزاز الاموال ، هي تهديد اصحاب الاراضي في الغوطة بقطع اشجارها اذا لم يفتدوها بالمبلغ الذي يفرضونه عليهم ، وبدأ التذمر يدب في النفوس من هذه المعاملة السيئة . اما الاموال اللازمة للثوار فما كان اهل المدينة يقصرون في ادائها تاييدا لعمل قومي ذي شان . لكن فرض الاتاوات وخطف الشبان في الليالي الحالكة وتسييرهم المسافات الطويلة مشيا على الاقدام ، وعيونهم معصوبة وحياتهم مهددة ، ما كان ليلقى ردة فعل ايجابية لدى الناس . وذلك خصوصا عندما تفرقت كلمة الزعماء وصار بعضهم يحتفظ لنفسه بما كان يجود به المهاجرون السوريون واللبنانيون القاطنون في امريكا وسائر البلاد . فزالت في عيون الناس تلك الهالة المقدسة التي كانت الثورة محاطة بها في مطلعها ، وانكشفت عيوب الزعماء ومطامعهم ومزاحماتهم وكيد بعضهم لبعض . حتى ان منهم من استسلم للافرنسيين ، ومنهم من خلق اية حجة للسفر وترك ميادين العراك ، كما هو شان العرب دائما . ومنهم ، يا للاسف ، من يبدأون بداية حسنة ، لكنهم لا يلبثون ان يتفرقوا فيتقاتلون ويتركون الساحة للغريب .

وعندما كنت في بيروت قامت الفرق العسكرية الافرنسية بهجوم شامل على جبل الدروز فاحتلت السويداء وسائر المدن . ولجأ زعيم الثورة الى قريات الملح في الاردن ، وخضع غيره ، فكادت الثورة ان تنطفيء . واصدر المفوض السامي امره بتعيين الداماد احمد نامي بك رئيسا للدولة ، وبتأليف حكومة ، نصف اعضائها من الزعماء الوطنيين ، وهم فارس الخوري ولطفي الحفار وحسني البرازي ، والنصف الاخر من يوسف الحكيم واثنين آخرين من المعتدلين . ولم تنجح مساعي هذه الحكومة لانهاء الثورة بشكل يؤمن ربحا ، ولو قليلا ، للوطن . فقد قذف الافرنسيون ، ذات ليلة ، حي الميدان في دمشق بالمدافع واحرقوا الدور وهجموا على الاهلين يوسعونهم قتلا وضربا . واستقال الوزراء الوطنيــون فسيقوا الى المنفى في الحسكة . ثم انتهت الثورة دون ان تنال البلاد بواسطتها اية فائدة ، سوى انها اذكت الروح الوطنية واظهرت للملأ ان سورية لا تخضع امام الانتداب الا بقوة السلاح الغالبة .

زيارتي للاسكندرية والقاهرة وانطباعاتي عنهما

قضيت صيف ١٩٢٦ في برمانا ثم عدت الى الاسكندرية عن طريق البحر في باخرة افرنسية فخمة . ولاقيت اختي في فندق سان استفانو برمل الاسكندرية وهي في طريق عودتها من فرنسا ، حيث جرى لها تركيب رجل اصطناعية بدلا من رجلها التي بترها الاطباء، اثر مرض انسداد الشرايين . وكانت المرحومة طلبت الي ان ارافقها الى فرنسا ، فلم توافق والدتي على سفري خوفا من انتستهويني مباهج باريس . واين الآن مَن يسمع كلام امه او ابيه ، فيصرف النظر عن سفرة ممتعة ويبقى في بلده ؟ وكانت الاسكندرية كالقاهرة تبهر الانظار وتنعم بالازدهار . وعندما عدت الى القاهرة بعد ثورة ١٩٥٢ وجدتها كئيبة محزنة تسود جوها الكآبة . فالشوارع قــذرة ، والمحلات التجارية خالية خاوية الا من بعض المصنوعات المحلية التي لا تشابه البضائع الافرنجية التي كانت المخازن تعرضها للبيع وهي تعــج بالزبائن ، رجالا ونساء محجبات من مختلف الطبقات ، يشترون ما طاب لهم من اجمل المصنوعات . وكان شارع قصر النيل يشابه شارع الشانزيهليزه في باريس ، من حيث مخازنه وما يعرض فيها من التحف الاثرية والمفروشات الكلاسيكية والبضائع التي يقبل عليها المترفون من الاثرياء . فتتداول الاموال بين الايدي وتترك في كل منها جزءا كافيا لتأمين معيشة صاحبها . اما الان فقد زالت عن هذا

الشارع تلك البهجة ، فلم يعد الثري او حتى متوسط الحال يستطيع الانفاق ما بوسعه . فاغلقت المحلات المعروفة وحل محلها بقالون او باعة المنتوجات المحلية القطنية الرخيصة .

وحل بالقاهرة ما حل بموسكو او بيتروغراد ، فأصبحت الحياة العامة ترتدي طابع التقشف او الحزن . فلا الوجوه هي تلك التي كنت تشاهدها ، ولا الجو هو ذلك الذي كان يسود عاصمة مصر . واذكر انني عندما وصلت الى القاهرة ، لاول مرة ، حللت بفندق بسيط قرب المحطة ، وبقيت معتكفا في سريري يومين اشكو نزلة صدرية . فجاءني في مساء اليوم الثاني ابن عمي المرحوم هشام بك العظم ، ابن المرحوم الشهيد شفيق بك الذي شنق مع قافلة الزعماء العرب في عهد جمال باشا ، وقال لي : « لم انت قابع في الفراش ؟ » فوصفت له ما اشكو منه ، فقال لي : « قم فسآخذك معي لاعرفك بالقاهرة . وثق بأنك تعود الى الفندق معافى . » فسرت خلفه في سيارته التي اجتازت شارع عماد الدين الذي كان يحوي مسارح القاهرة الرئيسية . واخترقنا شارع فؤاد ، ثم ساحة الاوبرا ، ثم شارع قصر النيل حتى وصلنا الى مقهى غروبي في سليمان باشا ، وكانت الاضواء المشعة في الطرقات وعلى واجهات المخازن تبهر العيون غير المعتادة على هذه الانوار الخلابة . وقد تعب عنقي من الاتجاه يمنة ويسارا والى السماء لمشاهدة الابنية الشامخة التي لم تكن معروفة بدمشق او بيروت . ودخلنا قاعة الرقص في غروبي وكانت مستديرة الشكل احتشد على موائدها الشبان والشابات . فيقومون الى الرقص ثم يعودون الى موائدهم بعد ان يكون بلغ بهم التعب مبلغه . ثم انتقلنا الى الساحة السماوية التي تجاور قاعة الرقص وجلسنا الى مائدة نتمتع بالطقس البديع وبالجو المشع بهجة وسرورا . وقد خلبتني هذه المناظر واصبحت اشبه نفسي بقروي اتى المدينة ، ففغر فاه امام مباهجها . ولم تكن المراة المصرية قد تحللت بعد من الحجاب ، ولذلك كنت لا ترى سوى السيدات المسيحيات او اليهوديات . اما المسلمات فكن يقبعن في دورهن ولا يظهرن حتى امام اقارب ازواجهن . ودعاني ابن عمي للغداء عنده في اليوم التالي حين جاء ليرافقني بسيارته حتى داره . وفجاة توقف امام مخزن ودخل اليه وخرج بعد هنيهة حاملا اكياسا تحوي انواع الفاكهة وزجاجة عرق . ووصلنا الدار فادخلني الى مكتبه . وظننت انه سوف يقدمني لزوجته ، لكنه لم يفعل بل دعاني لغرفة الطعام

حيث اكلنا وحدنا . واحتسى من زجاجة العرق ما طاب له فترنم وضحك وقال لي : « اتعرف لماذا اضحك ؟ » فقلت : « لا » . قال : « زوجتي تمنعني من شرب الخمر على انواعه ، غير اني انتهز فرصة وجود مدعو عندي لأدعي انه هو الذي افرغ الخمر في جوفه فتنطلي عليها الحيلة . » واسترسل بالضحك طويلا . فقلت له : « هكذا ادركت الآن تمسكك بحجب النساء عن معاشرة الرجال ! » فقال : « ان الامر لا يحتاج الى كثير من الذكاء . فلــو كانت زوجتي غير محجبة لاضطرتني الى مرافقتها الى الملاهي والى دور الاصدقاء ، وعندها تحول دون قضاء وطري في الشراب ! » واردف مبتسما وملتفتا الى الباب قوله : « وفي مغازلة النساء ! » وكـــان المرحوم هشام من احلى الناس معشرا ، خفيف الدم ، لطيف المزاج ، يحب المزاح والمرح . وكان الى جانب ذلك حائزا على شهادة دكتوراه في الحقوق من باريس ، امتهن المحاماة في القاهرة وتبوأ مركزا مرموقا بين زملائه . ثم تزوج وخلف ابنتين ، لكنه لم يكن مرتاحا في حياته الزوجية لانه نشأ في اوروبا وترعرع فيها واعتاد على طراز الحياة السائدة فيها . ولم تكن زوجه في مثل طباعه . اذ نشأت في محيط ارستقراطي متحفظ ، لا تساير زوجها ، ولا تسعـــى للتوفيق بين طباعهما وعاداتهما ، ولتكييف حياتهما بما يؤمن لكل منهما قسما مما يرضيه ويطيب له . فاخذت الكآبة تحل في صدر هشام محل المرح ، والصمت محل الثرثرة الحلوة ، وصار يعمل على التهرب من الدار ليجد في الخمرة او المقاهي ما ينسيه شقاءه وبؤسه . وكان كثير المورد ، كثير الانفاق ، يأتي كل صيف الى ضهور الشوير في لبنان فيهتف لي ولبعض اصدقائه فنتراكض للاجتماع بـــه ومرافقته في فرحته . وتوفي رحمه الله ولم يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، فبكيناه واحتفظنا بذكراه حتى الان ، وبصورته مطبوعة في قلوبنا وهو يزهو في جلوسه وسيره كأنه ممثل سينمائي شهير . وكان يحب الاناقة في اللباس ، والرقة في الكلام ، والبذخ في الحياة ، ذا تربية راقية ، وذكاء مفرط ، ووجه وسيم ، وابتسامة دائمة ، واوضاع وحركات يدوية يتمنى الكثير من الممثلين لــو يستطيعون تقليدها . وكان كريم النفس ينفق بدون حساب ، حلو الحديث رقيقه ، يراعي شعور مخاطبه ويتواضع امامه بكل عذوبة . وخلاصة القول اني اعده مثالا للشاب الكامل الذي اتصوره .

وكان له اخ يكبره سنا ، هو المرحوم واثق بك المؤيد . وكانت

تجمعهما كثير من الخصال الحميدة ، لكنه كان مفتقرا الى النعومة والرقة اللتين يمتاز بهما هشام . على ان واثقا كان اميل الى فرض ارادته ، بعناده اللامتناهي وبجرأته على الحكام ، حتى الافرنسيين منهم . وكان عفيف اليد ، مات في حالة من البؤس المادي لا تتناسب مع ما خلفه له والده من الثروة ، ومع ما كان يستطيع ان يحصل عليه لولا استقامته وعفته وكرهه الرشوة . وقد بدأت معرفتي به منذ ١٩٢٨ ، حين توليت وزارة الداخلية برئاسة احمد نامي بك . واستمرت اتصالاتي اليومية به حينما عين حاكما اداريا لمدينة دمشق (امينا للعاصمة) وعينت انا عضوا في المجلس البلدي ، وذلك من ١٩٢٩ حتى بداية الحرب العالمية الثانية . وكنت مع الاستاذ سامي الميداني والدكتور يحيى الشماع نؤلف جبهة تختلف في اكثر القضايا مع واثق بك ، فيشتد النقاش ويصل الى ما يقرب الخصام الشخصي ، فيلجأ المرحوم الى اخذ راي سائر الاعضاء وكانوا كلهم تقريبا اميين . فيبدأ بمطالبة العضو سليمان بك العظمة برايه ، فيتمتم هذا بعض العبارات الغامضة لانه في الواقع يستصوب راينا ، لكنه يخشى الوقوف في وجه الحاكم . ويشدد عليه هذا الاخير ويقول له : « رايك ... رايك ؟ » فيخضع المسكين امام الضغط ويقول بصوت يكاد لا يكون مسموعا : « من رايكم سيدي ! » ويلتفت نحونا كأنه يشهدنا على الضغط الذي اضطره للموافقة . فنضحك كلنا والحاكم معنا ، فنقول له : « قبل رايكم بالاكثرية ، فلا حاجة للتصويت والاحراج . » لاننا كنا نعلم ان سائر الاعضاء لا يقلون عن سليمان بك رعبا ومسايرة . وساكمل رواية عضويتي في بلدية دمشق ، حينما يأتي دورها بالتسلسل الزمني .

عودتي الى دمشق في السنة التالية ونشاطي الاجتماعي

عدنا الى دمشق في ١٩٢٧ وكنا نقضي سهراتنا ، اما عند جارنا محمد علي بك العابد الذي ارتقى الى رئاسة الجمهورية في ١٩٣٢ ، واما عندنا حيث كان يوافينا ابن عمي صادق والمرحوم عارف الخطيب والمرحوم عبد الوهاب المالكي . والاول جاء ذكره في سرد حياتنا المدرسية في كلية الحقوق ، وكان لطيف المعشر كثيرا . اما الثاني ، فكان من خريجي المدرسة الملكية باستنبول ومن اوائل تلاميذ صفه . وكان يجيد اللغة العربية ويحفظ الشعر العربي ، وله طراز خاص في الكلام الذي يغلب عليه الطابع الفصيح . وقلما كان يستعمل اللهجة العامية . وكان يتصف بخفة دمه ، ولطيف حديثه ، وتأنقه باللباس على زي شباب ما قبل الحرب العالمية الاولى ،

وبالذكاء المفرط ، واطلاعه الوفير على الشؤون القانونية والادارية . وكان من عيوبه حبه للعب القمار الذي كان يجيد منه لعبة البوكر فيربح فيه اكثر مما يخسر، وميله الى المشروب لدرجة تفقده توازنه، وعناده في الدفاع عن رايه والتمسك به مهما اقيمت ضده الحجج الصحيحة . اما القمار فكان رفقاؤه فيه صادق العظم ، ومحمد علي العابد ، وعبد الوهاب المالكي ، وكذلك في احتساء الشراب . واما جلسات المباسطة وتبادل الآراء فكنت اشاركهم فيها . وكنا نذهب للنزهة في دمــــر .

ولم يكن عبد الوهاب اقل منهما لطفا ومعشرا طريفا ، غير انه كان حاد المزاج ، لا يطيق الجدل . فكان يتركنا وينصرف بــدون ســـبب .

مشاركتي في انشاء النادي السوري الفرنسي والغرفة الزراعية

وفي تلك الفترة من الزمن اراد الافرنسيون ان ينشئوا ناديا سوريا ــ افرنسيا يشترك فيه كبار موظفيهم وضباطهم مع وجهاء المدينة وكبار موظفيها ، فدعيت الى دار المستشار بورتاليس الذي كان يتقن العربية ويقطن في دار البارودي الكبيرة لحضور اول اجتماع نعقده اللجنة التحضيرية المؤلفة من محمد علي العابد ، وواثق المؤيد ، ومستشار البلدية المشار اليــه ، ومسيو دافيد مندوب المفوض السامي بدمشق ، وقنصل بريطانيا المستر هول . فوافق الجميع على الفكرة وباشرنا بتحقيقها على اساس اصدار اسهم يشترك فيها المؤسسون من اعضاء اللجنة وغيرهم . فجمعنا نحو عشرة آلاف ليرة سورية ، واستأجرنا دارا في حي الشهداء على طريق الصالحية . وتولى احد المهندسين الافرنسيين مسيو ايكوشار شؤون التاثيث على الطراز العربي . وانتسب للنادي مئتا عضو مع عائلاتهم . وصرنا نرتاد النادي كل مساء لنلعب البريدج ونرقص على انغام الغراموفون . وتوطدت علاقات حسنة بين السوريين والافرنسيين : لكن حلقات الافرنسيين ظلت لا تجالس حلقــات السوريين ، فلم يكن الامتزاج كاملا بين العنصرين .

غير ان ارتياد النادي بدأ يخف تدريجيا ، الى ان صفي نهائيا ولم تمض على افتتاحه سنتان .

وفي ١٩٢٧ سعيت لدى الداماد احمد نامي بك، رئيس الحكومة، للحصول على موافقته بتــاسيس غــرفة زراعيــة تعنى بشؤون المزارعين . فوافق واصدر مرسوما اسند بموجبه عضوية الغــرفة لكل من السادة عارف القوتلي ، وامين الدالاتي ، وشمسي المالكي،

ونسيب حمزه ، وكامل الياسني ، وسعيد اليوسف، وجورج شاوي، وصبحي الحسيبي ، وسعيد حمزه ، وانا . واخترنا للرئاسة عارف القوتلي، ولنيابة الرئاسة سعيد اليوسف، ولامانة الصندوق شمسي المالكي . واختارني زملائي لامانة السر . فاستأجرنا مكتبا في زقاق البوص ، خلف سوق الحميدية . وعنيت بتأسيس الغرفة وتنظيم اعمالها . وقد قامت الغرفة بمراجعات ادت الى فوائد حسنة . غير ان اقبال المزارعين على تسجيل اسمائهم بها ودفع الاشتراك السنوي لم يكن كافيا لتوسيع دائرة نشاطها كما كنت ابغي ، فظلت مستمرة على اعمالها ضمن حدود امكانياتها .

وقد عقدنا مؤتمرا زراعيا عاما اشترك فيه مندوبون عن سائر البلاد السورية . فتناولنا بالبحث شؤونا هامة تتعلق بهذا الشأن . وبهذه المناسبة عرفني صديقي فخري البارودي بالشاب نجيب الريس وكان في مطلع حياته العامة ، فنسق لنا القرارات وصحح عباراتها . ثم زرنا رئيس الدولة وقدمناها له . وتكلمت امامه باسم المؤتمرين ، فوعدنا بدرس مطالبنا وتحقيق ما يقتضي تحقيقه بسرعة ، الا انه لم يف بوعده وذهبت جهودنا مع الريح .

وكنت اتردد من حين لآخر على الداماد واسهر عنده واتفرج على لعبة الشطرنج وكان بارعا فيها . وكان الداماد ذا مطامع واسعة ، في مقدمتها تبوء عرش سورية . وكان من وزرائه الاستاذ يوسف الحكيم فيتملق له ولا يخاطبه الا بكلمة اميري . واقمت للداماد حفلة سمر ليلية في باحة داري بسوق ساروجه ، حضرها وزراؤه: يوسف الحكيم ، ونصوحي البخاري ، وشاكر الحنبلي ، وعبد القادر العظم، وغيرهم . وطرب لسماع الموسيقى الشرقية وتصدر حلقة المدعوين، وراح يختال تيها وقد تصور انه اصبح اميرا يجلس حوله الندماء والشعراء . وكان مطواعا للافرنسيين ، يأتمر بأمرهم ولا يعصاهم . وتسلط عليه الحكيم والحنبلي ، بفضل ذكائهما، وراحا يسيران دفة الامور على هواهما . لكن هذا لا يمنعني من القول بأنه لم يبد من حكومة الداماد ما يسيء الى البلاد ، كما انها لم تترك اي اثر تحمد عليه ويذكر لحسابها .

ثم جاء لرئاسة الحكومة الشيخ تاج الدين الحسيني ، ومعه في الوزارة حمد الالشي ، وسعيد المحاسني ، ومحمد كرد علي، وغيرهم .وباشرت الحكومة بالانتخابات للجمعية التأسيسية. فتكتلت العناصر بزعامة المرحوم فوزي الغزي باسم الكتلة الوطنية . وجمعت

جميع العاملين في الحقل الوطني ، كفخري البارودي ، وجميل مردم، ولطفي الحفار ، وشكري القوتلي ، وفارس الخوري واخيه فائز الخوري ، وزكي الخطيب .

وتألفت القائمة التي تسندها الحكومة وسلطات الانتداب برئاسة الشيخ تاج ، من سعيد المحاسني ، وشاكر الحنبلي، وفوزي البكري ، وعبد القادر الخطيب ، وسعيد اليوسف . واشتد الزحام بين القائمتين . وهنا لعب الشيخ تاج لعبة ماكرة ، فاتفق سرا مع فوزي الغزي على مهادنة شخصية ، فلا هو يعاكس قائمة الكتلة الا في الجهر ولا هم يعاكسونه . وبنتيجة الاقتراع فاز الشيخ تاج وسائر اعضاء القائمة الوطنية ، عدا اربعة . فجرى البالوتاج ، فتدخلت السلطة الافرنسية بكل قواها عندئذ ، ففاز سعيد الغزي، وفوزي البكري ، وعبد القادر الخطيب .

وعندما اجتمعت الجمعية التأسيسية لم يكن للوطنيين اكثر من ١٧ مقعدا من اصل ٧٠ . ومع ذلك فقد سيطروا على الموقف وفازوا برئاسة الجمعية لهاشم الاتاسي ، والفوا لجنة للدستور برئاسة فوزي الغزي ، وضعت نصا لم يعجب الافرنسيين ، فطلبوا شطب ست مواد . فرفضت الجمعية ذلك رغم خطاب القاه فيها الشيخ تاج داعيا لقبولها ، فما كان امام الافرنسيين الا حل الجمعية واصدار الدستور مضافا اليه المادة ١١٦ التي احتفظ فيها الافرنسيون بكل ما اولتهم اياه جمعية الامم في شرعة الانتداب من حقوق وصلاحيات . وهكذا انتهت التجربة الثانية للتفاهم بين الوطنيين وسلطة الانتداب، دون اية نتيجة ايجابية .

وعندما جرت الدورة الاولى للانتخابات ــ وكانت تجري بين الناخبين الثانويين الذين ينتخبهم من لهم حق الانتخاب ــ كنت عضوا في البلدية ومدعوا للاشراف على صندوق الانتخاب الذي جرى في بهو البلدية الكبير بحضور سائر اعضاء البلدية والمرشحين ، وكان من بينهم زميلنا سامي الميداني . فلما سألناه عن حظه بالنجاح ، اكد ان ما يقرب من خمسماية ناخب ثانوي اقسموا له اليمين بانتخابه وهو بذلك ضامن للنجاح ، باعتبار ان مجموع الناخبين في دمشق كان نحو ٨٠٠ ناخب . وعندما فتحت الصناديق وبوشر بقراءة الاسماء ، لم نسمع اسم سامي ولا مرة . فسألناه الخبر فقال : « سيظهر اسمي في القريب بين الاوراق الباقية » . وتم فرز الاصوات وتعداد ما نال كل مرشح فيها ، ولم يكن لسامي سوى صوتين . فغشينا من الضحك

عندما قال لنا : « الصوت الواحد هو صوتي ، اما الثـاني فصوته احدكما ، اي خالد والدكتور شماع ، فمن منكمـا لم يصوت لي ؟ » فقلنا: « اتحاسبنا على صوت وقد ضاع عليك الخمسمائة صوت التي اقسم اصحابها بانتخابك ؟ » وكان يرغي ويزبـد ولا يتمالك بنفـس الوقت من مجاراتنا في الضحك حتى جلبنا انتباه مجموع الحاضرين. وراحوا يسالوننا عن السبب ، فما كان منا الا ان هربنا من القاعـة وذهبنا الى فندق امية ، حيث طلبنا من سامي ان يدعونا الى العشاء. فقال : « الا تكفيني مصيبتي الواحدة ؟ » وقضينا السهرة كلها في الحديث عن هذا الموضوع الذي كانت العبرة فيه ان هناك من يقسم لك الايمان وهو عالم سلفا بانه سيحنث بها .

مدينة دمشق عندما كنت عضوا في البلدية

كان زملائي في مجلس البلدية سامي الميداني ، والدكتور يحيى الشماع ، وزكي سكر ، وزكي الكزبري ، وسليمان العظم ، وعمـر شمدين ، ويوسف لقباد ، وعزت الشاوي ، وابو انور قصاب باشا ، والياس عويشق ، وزكي المهايني . ولم يكن هؤلاء الاعضاء ، ما عدا الميداني والشماع وانا ، حائزين اية ثقافة او اختصاص . وكـانت وجاهة كل واحد منهم في حيه السبب في اختيـاره . ولذلك كـانت المناقشات محصورة بيننا وبين الحاكم الاداري ، واثق المؤيد. فكان يصل النقاش في بعض الاحيان الى حد بعيد والى ارتفاع اصـواتنا الى خارج بهو الاجتماع . ورغما عن ذلك ، فحينمـا كـانت تنتهي الجلسة ، كنا نحن الاربعة نركب فيسيارة واثق بك ونذهب سوية الى النادي وكأن شيئا بيننا لم يحصل ، مما كان يثير استغراب سـائر الاعضاء ، ويحملهم على الظن بان مناقشتنا لم تكن جدية بل مبيتة.

لقد هدم الآن بناء البلدية وكان قائمـا بـين سراي الحكومة وساحة المرجة ، وذا طبقة واحدة . وكان كله مبنيا من الخشب. وقد شيده المرحوم والدي قبيل ستين عامـا ونيف ، حينمـا كان يتولى رئاسة البلدية . فجاء آية في الجمال ، بحسب العـرف المعمـاري السائد عندئذ ، وبالنسبة الى ان دمشق لم تكن تحوي من الابنيـة العصرية سوى دار الحكومة والمستشفى الوطني ، وهما ايضا مـن آثار والدي الانشائية . وابناء جيلنا يذكرون ان سـاحة المرجة التي سميت فيها بعد باسم ساحة الشهداء تخليدا لذكرى من شنقهم جمال باشا من الزعماء السياسيين الوطنيين ، كانت محاطة من الشمال ببنايتين عتيقتين ، احداهما لادارة البرق والبريد والى جانبها الدوائر

القضائية كلها . واما في الجهة الشرقية ، فكانت ثمة بناية قديمة خشبية مستعملة كمسرح وصالة سينما باسم « الزهرة ». وكانت الى الجنوب بناية قديمة تحتها دائرة حكومية . وقد اشتراها عزت باشا العابد وهدمها واشاد محلها البناية القائمة الان ، والمعروفة باسم المنزل (اذ ان الجيش التركي كان يستعملها خلال الحرب كدائرة للاعاشة والاسكان) . وكانت الى جانب هذه ابنية خشبية واطئة . واما الى الغرب فكانت هنالك دائرة البلدية تحتل جانب مجرى نهر بردى الذي كان مكشوفا ، ثم غطي في عام ١٩٦١ . وكان يتفرع من هذه الساحة شارع السنجقدار ، وهو الطريق المكتظ بالمارة والذي فيه الفنادق العربية ذات الساحة السماوية الوسطى، مع بركها ونوافيرها ، والمخازن والمطاعم الجيدة . وكان الى شمال هذا الشارع سوق علي باشا ، الموصل بين الساحة وساحة التبن، وهو سوق مسقوف مخصص للدكاكين التي تبيع الفواكه، وفيه بعض المطاعم . وكان الى شمال الساحة زقاق يؤدي الى البحصة، وعلى ناصيته فندق الشرق القديم الذي احترق في ١٩٢٠ وشيد محله فندق امية . واما الى الجنوب فكان هنالك زقاق اسمه « طلعة رامي » (شارع رامي حاليا) يوصل الساحة بشارع جمال باشا الذي فتحه الاتراك خلال الحرب ، وكان ساحة كبيرة امام قيادة الجيش يدخل اليها من قنطرة امام سوق الحميدية . وكان مركز القيادة يسمى المشيرية استعمله الافرنسيون خلال عهد الانتداب كمركز لدوائر مندوب المفوض السامي ، ثم هدم وشيد مكانه قصر العدل الحالي. اما شارع سعد الله الجابري ، فقد بديء به خلال الحرب وانتهى بانتهائها ، ولم يكن على جانبيه اية بناية . ثم انشأ شخص بيروتي اسمه ابو عباس منيمنة مقهى ارضيا تعلوه صالة مسرح وسينما اسماها « العباسية » . وظل هذا الاسم مطلقا على البنايةالجديدة التي شيدت لحساب الخط الحديدي الحجازي ، وفيها فندق سميراميس وسينما العباسية . وكان هنالك جسر ضيق اسمه جسر فيكتوريا فوق نهر بردى ، يوصل ما بين مركز الحكومة وطريق الصالحية . وقد زال اثره اليوم بعد تغطية النهر . وكنا اذا قطعنا هذا الجسر نلقى الى يميننا فندق قديم اسمه «اوتيل فيكتوريا » المشاد تمجيدا لاسم ملكة بريطانيا الشهيرة ، ثم الى جانبه فندق المشرق او فندق خوام ، باسم صاحبه السيد خوام . واستعمل الفندق الاول كمركز لقيادة الجيش الرابع واقام فيه جمال باشا طيلة وجوده في دمشق . اما فندق خوام ، فكان ذا طابع شرقي تتوسط غرفهوباحاته

ساحة سماوية في وسطها بحرة من الماء . وكان هذا الفندق يتقاسم المركز الاول مع اوتيل « داما سكومي » الكائن في البحصة ، لكنه احترق قبل سنتين . واذا تابعنا مسيرنا راينا الى يسارنا صفا من الدكاكين يقطنها صانعو سرج الخيل الافرنجية ومصلحو المركبات وبائعو ادواتها ، وذلك الى ان نصل الى بوابة الصالحية ، ساحة يوسف العظم حاليا ، التي لم تكن تحوي من الابنية سوى بناية المستشفى العسكري الذي هدم وانشأت محله بناية تشغلها بعض الوزارات والدوائر .

اما طريق الصالحية ، فكان في مطلع القرن الحالي خاليا من الابنية ، تقطعه بين البساتين حتى تصل الى محلة الجسر الحالية ، حيث تجد بعض الدور ، ثم تتدرج صعدا في طريق المهاجرين دون ان تجد على جانبي الطريق دارا . واما حي المهاجرين فقد انشأه الاتراك حينما جاء اللاجئون من الاراضي التي احتلها الروس في القفقاس . وكانت دوره مؤلفة من طابق واحد وغرفتين من الطين (الدك) ، ولم يكن في ذلك الحي من الابنية سوى دار الوالي ناظم باشا التي اصبحت فيما بعد قصرا جمهوريا ، ودار مصطفى باشا العابد التي تبعد عنها قليلا .ثم انشئت الدور عندما اسست شبكة خطوط الترامواي وسهل النقل . فبدأ سكان دمشق يتركون المدينة القديمة ويسكنون في احياء الصالحية ، والمهاجرين ، والشيخ محيي الدين الجديدة . ثم زاد اتساع هذه الاحياء بفتح الشوارع الجديدة خلف طريق الصالحية ، حتى وصل الى الحد الحالي بشارع المالكي .

وكان من واجب بلدية دمشق ان تعنى بتوجيه توسع المدينة ورسم مخطط الطرق الحديثة حتى لا تسود هذه الاحياء الجديدة فوضى العمار كما حصل في المدينة القديمة . فاستقدمت البلدية المهندس التخطيطي الشهير دانجه ومعه المهندس ايكوشار ، فوضعا مخططا عاما للمدينة ، وحددا طراز البناء واوصافه بحيث تشاد الحدائق حتى لا تلتصق الدور بعضها ببعض ، كما حصل في الابنية التي شيدت ما بين ١٩١٩ ـــ ١٩٢٨ . وبفضل مخطط دانجه اصبحت مدينة دمشق تزهو باحيائها الحديثة ، وبحدائقها العامة ، وبحسن تنسيق شوارعها ، والاشجار المغروسة على جنباتها ، مما تحسدها عليه مدن الشرق العربي كله .

وعندما تقدم واثق بك الى مجلس البلدية طالبا التصديق على الاتفاق المعقود بينه وبين مسيو دانجه،عارضناه خشية ان يكون الامر

مدبرا لنقلع مهندس افرنسي . وبقينا على معارضتنا مدة طويلة حتى اخذ القرار بالاكثرية من دوننا . لكن النتيجة كانت ولله الحمد على غير ما خشيناه .

اهتمامي بالحركة التمثيلية والرياضية

وفي ١٩٢٩ جاءني بعض الشبان المتحمسين لفن التمثيل والتمسوا مساعدتهم على انشاء جمعية تضم الهواة والمحترفين . فدرسنا الموضوع مليا ، لكننا وجدنا ان عدم تقبل المحيط ظهور السيدات بدون حجاب على المسرح ، لا يمكننا من اخراج تمثيليات كاملة ، فصرفنا النظر عن المشروع .

ثم اتصل بي لفيف من الشبان الرياضيين طالبين مساعدتي لتأسيس فريق للعبة كرة القدم . وكان في مقدمتهم سامي الشمعة ، وروحي الخياط ، وغيرهما . فأسسنا ناديا استأجرنا له ملعبا بشارع بغداد ، وانفقت عليه من جيبي مبلغا غير قليل . وجرت اول مباراة بين فريقنا الذي سميناه بفريق معاوية وبين فريق نادي بردى الذي كان يرأسه البكري . وكم كان استغرابي عندما لاحظت انه لم يحضر لمشاهدة المباراة سوى عدد لا يتجاوز العشرين شابا ، بحيث لم يصل دخل الحفلة الى ما كنا ننتظره لتأمين مورد يكفي حاجة الفريق .

وكانت الغلبة لفريقنا، فربحنا الكأس الذي كنت تبرعت بتقديمه للفريق الفائز. غير ان حماس الاعضاء بدأ يخف بعد ما لمسوه من عدم اقبال الناس . وانتهى الامر بانفراط عقد النادي وذهاب كل عضو في سبيله .

وعندما نشهد الآن مباراة تجري في ملعب دمشق واقبال الناس، شيبا وشبانا ، على الحفلة اقبالا شديدا ، ونقارن بين نوع المتفرجين وعددهم في الحفلة التي اقامها نادي معاوية ، نلمس التطور الكبير في الاقبال على الرياضة . وفي زمن شبابي ، لم يكن في البلد اي ناد رياضي عدا نادي بردى للفوتبول . اما الان فعدد الاندية يكاد لا يحصى . وتنوعت الالعاب وتعددت ، حتى بلغ المنتسبون لهذه النوادي وللكشافة عددا ضخما. وهذا التضخم بدأ يظهر منذ ١٩٤٣، اي من بداية الحياة الاستقلالية .

واستمرت وزارة الشيخ تاج حتى ١٩٣١ ، حينما عزم الافرنسيون على اجراء انتخابات نيابية ، ولكن بنية تزوير نتائجها ليتسنى لهم جمع مجلس نواب يقر معاهدة مع فرانسا وفق اغراضها. وكنت قد مللت المشاحنة مع واثق بك في اجتماعات مجلس البلدية ولم اعد احضرها . فلما اعلن موعد الانتخاب ، وكان كالعادة يجري

تحت اشراف مجلس البلدية ، عزمت على الحضور الى البلدية عند فتح الصندوق وفرز الاصوات . وكان قد شاع ان الافرنسيين اتفقوا مع واثق بك على استبدال الصندوق بصندوق مماثل محشو باسماء من يريدون انجاحهم ، مثل حقي العظم ، ورضا الركابي ، ومحمد علي العابد .

فما كان مني الا ان اتصلت هاتفيا بمستشار البلدية وشكوت اليه عدم ابلاغي موعد اجتماعات مجلس البلدية ، مما دعاني الى عدم الاشتراك في الجلسات . فوعد باجراء اللازم ، ولكنه ادرك ان قصدي هو عزمي على حضور جلسة الانتخاب ، فاخبر واثق بك ، فجن جنونه وهدد وتوعد بانني ، اذا حضرت الى البلدية ، فانه سيطلق علي رصاص مسدسه .

ولم اعر تهديده اي اهتمام . وفي اليوم التالي دعاني بديع بك المؤيد — وكان يرأس الوزارة بالوكالة بعد ان انسحب منها الشيخ تاج ، وهو ابن عمة والدي وصديق حميم له ولنا — وقال لي بطريقة النصيحة ان اعدل عن الذهاب الى البلدية. فتجاهلت ما كنت سمعته من التهديد وسألته عن السبب ، فجرب عدم ذكر الحقيقة . ولكنه في الاخير اضطر للبوح بها . وعندها قلت له : « اشكرك على اهتمامك بي وحرصك على ان لا يصيبني سوء ، ولكنني عازم على حضور الجلسة مهما كلفني الامر . وسابرق للمفوض السامي والى جمعية الامم بهذا التهديد الذي يؤيد صحة الاشاعات الرائجة بان الحكومة ستزور الانتخاب ... وليكن ما يكون » . فارتبك بديع بك واصفر لونه وراح يسايرني ويرجوني ان لا اوصل الامر الى هذا الحد وان لا اقف في وجه الافرنسيين هذا الموقف السلبي . وكنت في الواقع اشعر بانني لا اقوم باي عمل لخدمة بلدي ، ولا اشارك المجاهدين والعاملين في سبيله ، فاحببت ان ادخل المعترك ووجدت تلك المناسبة فرصة قيمة . فاصررت على رايي وبارحت غرفة بديع بك وهو يشدني من زندي ويرجوني التريث وعدم التهور . لكني افلت منه وانصرفت .

ولم تشأ الحوادث ان ارى ما سيكون في يوم الانتخاب . اذ قامت مظاهرات عنيفة في سائر انحاء البلاد ، حملت الافرنسيين على تأجيل الانتخاب في دمشق . لكنهم اجروه في سائر المدن والقرى، فنجحت في حلب قائمة صبحي بركات والشيباني تؤيدها سلطة الانتداب ، وفشل سعدالله الجابري والدكتور كيالي ورفاقهما .

فلما هدأت الافكار ، ابعد واثق بك عن البلدية وجرت انتخابات

دمشق . ففاز بها علي العابد ، وحقي العظم ، وجميل مردم . وكان الاتفاق قد حصل مسبقا بين الكتلة الوطنية والمندوب السامي فوضعت قائمة مشتركة نجحت على الشكل الذي ذكرت . وابعد رضا باشا الركابي بموجب الاتفاق نفسه .

واجتمع مجلس النواب في حزيران ١٩٣٢ ، وكان مرشحا لرئاسته صبحي بركات، تؤيده مجموعة نواب حلب واقضيتها ويسنده المندوب الافرنسي .

اما نواب دمشق وحمص وحماه واقضيتها فقد انقسموا كتلتين ، الاولى يرأسها هاشم الاتاسي ،وهي تضم النواب الوطنيين، والثانية يراسها حقي العظم مرشح مسيو دافيد المندوب الافرنسي في دمشق . وبالتصويت ، فاز صبحي بركات باكثر الاصوات التي تفرقت على ثلاثة مرشحين . فشعر المندوب بدمشق ان انتخاب رئاسة الجمهورية الذي كان موعده في اليوم التالي سيجري على النمط نفسه ، فيفوز فيه صبحي بركات مرشح عدوه المندوب في حلب . فجرت اتصالات في الليل بين كتلتي دمشق ، لعب فيها جميل مردم دورا هاما وحمل محمد علي العابد على تخصيص مبالغ طائلة ودفعها باسم النواب . وعندما عقدت جلسة المجلس لم يكن بركات قد علم بالمؤامرة التي جرت في الليل ، فكان يبتسم من فوق سدة الرئاسة التي كان يشغلها ويوزع اللفتات ذات اليمين واليسار كمن هو مطمئن الى النتيجة اطمئنانا كاملا . غير ان هذا المرح ما لبث ان حل محله الكدر ، ثم الغضب ، عندما بديء بتلاوة الاوراق الانتخابية وهي تحمل احد اسمين فقط ، اسمه واسم محمد علي العابد . فادرك عندئذ ان ثمة لعبة جرت في الخفاء ، لكنه لم يعد قادرا على تلافي الفشل . وفاز العابد باكثرية الاصوات واضطر بركات لاعلان النتيجة بنفسه. وهنأ الفائز غصبا عنه . وامتطى محمد علي العابد سيارة الرئاسة في موكب اوصله الى دار الحكومة في المرجة ، حيث تلقى تهنئة الموظفين وسائر المهنئين .

وتالفت الوزارة ، في اليوم التالي برئاسة حقي بك العظم . واسندت وزارتان لممثلي الكتلة الوطنية ، هما جميل مردم ومظهر رسلان . وكان هذا التلاقي تشبثا جديدا من الكتلويين بالتفاهم مع الافرنسيين . الا ان هذا العهد لم يطل ، فاضطر مردم ورسلان للاستقالة . فجاء الشيخ تاج كرئيس للوزارة ومعه جميل الالشي وغيرهما . وظلت هذه الوزارة في الحكم حتى كانون الاول ١٩٣١ ،

عندما سمعت لاجراء انتخابات نيابية . فثارت الجماهير بدمشق ووقع عدة جرحى ، مما اجبر سلطة الانتداب على تأجيل الانتخاب . وتولى الحكم مؤقتا وكيل المندوب السامي بدمشق،بمعونة بعض الوزراء في الحكومة السابقة .وعندما استقرت الامور ،جرت الانتخابات بدمشق ثم اجتمع مجلس النواب ، فانتخب صبحي بركات رئيسا ، ثم محمد علي العابد رئيسا للجمهورية ، كما ذكرت آنفا .

واراد المندوب السامي مسيو بونسو ان يخطو خطوة فيتسوية الاوضاع بين سوريا وفرانسا بمعاهدة ثنائية الطرف تحل محل المفروض فرضا . ووضع بذلك مشروعا عرضه على وزارة حقي العظم فتقبلته صاغرة ،وعرضته على مجلس النواب الذي لم يكن عدد النواب الكتلويين فيه يتجاوز سبعة عشر نائبا . وكانت الجلسة صاخبة انتقم فيها رئيس المجلس صبحي بركات من الافرنسيين الذين خذلوه بانتخاب رئاسة الجمهورية ، فساند النواب الوطنيين عندما قام احدهم جميل مردم الى المنبر وتلا مضبطة وقع عليها ما يقارب الخمسين نائبا برفض مشروع المعاهدة اصلا وفصلا .

وكان وكيل المندوب السامي ادرك المؤامرة ، فاعتلى المنبر من سلمه الثاني وراح يتلو قرار المفوض السامي بحل مجلس النواب . وكان ذلك منظرا عجيبا : خطيبان على المنبر ، اولهما يتلو مضبطة النواب بالرفض ، والثاني يقرأ قرار المفوض السامي بحل المجلس . وعندما انتهى كل منهما من تلاوة الوثيقة التي في يده ، اعلن صبحي بركات ان مجلس النواب رفض مشروع المعاهدة . واحتج مندوب المفوض وتمسك بقرار المفوض ، فاجابه الرئيس بان المضبطة قرأت قبل تلاوة القرار . وهكذا ساد الهرج والمرج بين النواب ورفعت الجلسة .

واستمرت المظاهرات الشعبية ، التي بدأت قبل الجلسة ، عدة ايام . ثم انتهت باعلان الزعماء الكتلويين ان مشروع المعاهدة قد رفض، ولو انحل مجلس النواب بعد ذلك .

ثم استقال حقي العظم وخلفه الشيخ تاج مرة ثانية . وظلت حكومته تعالج القضايا العادية دون التطرق الى بحث المعاهدة . واستمر محمد علي العابد برئاسته ، رغم كل ذلك ، حتى مطلع ١٩٣٦ .

وفي ذلك التاريخ بدأت حركة شعبية ترمي الى التحرش بالسلطة تحت ستار المطالبة بتنزيل سعر التيار الكهربائي . فألفت في كل حي

لجنة لتشرف على مقاطعة الشركة ، سواء في ركوب قاطراتها او في استهلاك النور . ثم تطورت الامور الى مظاهرات شعبية تصادم فيها الشبان والاطفال بالجيش الافرنسي الذي رابط في انحاء المدينة. وسقط جرحى كثيرون في المعارك التي كانت فيها الحجارة سلاح المتظاهرين ، يقذفون بها افراد الجيش والشرطة الذين كانوا يردون عليهم باطلاق رصاص بنادقهم .

واعتقلت السلطة عددا كبيرا من مثيري الاضطرابات ، مثل فخري البارودي ونسيب البكري وغيرهما ، ونفتهم الى الحسكة . غير ان المقاطعة استمرت ، وكذلك المظاهرات والمصادمات الدموية، الى ان دعا المفوض السامي هاشم الاتاسي الى بيروت ، واتفقنا على ارسال وفد يمثل الحكومة والكتلويين لعقد معاهدة تسوى فيها الاوضاع . واعلن هذا الاتفاق في ١ آذار ١٩٣٦ ، فقوبل بحماس الشعب ، مما زاد في علو مكانة الكتلويين . واستقال الشيخ تاج وخلفه عطا الايوبي. وتألف الوفد من هاشم الاتاسي رئيسا، وفارس الخوري وجميل مردم وسعد الله الجابري عن الكتلويين، ومن ادمون حمصي والامير مصطفى الشهابي عن الحكومة التي كانوا قد اشتركوا فيها . وسافر الوفد الى باريز محاطا بدعم الشعب كله، وحاملا آماله بعقد معاهدة تنهي الانتداب وتنال بها سورية استقلالها.

وعندما بدات جلسات المفاوضة لم يجد المندوبون السوريون تحمسا واهتماما منْ الجانب الافرنسي لعقد معاهدة تقبلها سورية. وكانت الانتخابات النيابية الافرنسية وشيكة الحصول ، فانتظر الوفد حتى ظهرت النتائج الدالةْ على فوز الجبهة الشعبية المؤلفة من الراديكاليين والاشتراكيين والشيوعيين .

المعاهدة السورية الفرنسية في ١٩٣٦ ومحتوياتها الاساسية

وكانت هذه الاحزاب ميالة الى التفاهم مع سورية وانهاء تسلط الجنرالات والقواد العسكريين .وظهر ذلك اثر التبدل الوزاري في اول جلسة عقدها المتفاوضون ، اذ وجدوا عند رئيس الوزارة ليون بلوم — اليهودي — وعند مسيو فينيو ، رئيس الوفد الافرنسي ، استعدادا حسنا ونوايا طيبة . فسارت المفاوضات بخطى سريعة، رغم العقبات التي كان يقيمها في الطريق ، المتصلون بالاحزاب اليمينية وضباط الجيش . وانتهت الامور باتفاق يتضمن المعاهدة الاصلية وعدة ملاحق وكتب متبادلة .

ورغم ان النصوص ليست الآن تحت نظري ، فاني اذكر النقاط الاساسية مع ملاحظاتي على بعضها :

١ ــ تعترف المعاهدة باستقلال سورية وسيادتها .

٢ ــ تتضمن المعاهدة تحالفا عسكريا بين سورية وفرانسا مدته ٢٥ سنة ، تضع سورية بموجبه جميع وسائل النقل والمطارات والمرافىء تحت تصرف الجيش الافرنسي ، طول مدة الحرب . وعلاوة على ذلك ، فهي تعطي الدولة الافرنسية الحق باقامة قاعدتين عسكريتين طيلة مدة التحالف .

٣ ــ يبقى النظام النقدي الذي اوجده الانتداب سائدا ويبقى التعادل الحالي بين الفرنك والليرة السورية كما هو ، اي بمعدل ٢٠ فرنكا مقابل ليرة سورية .

٤ ــ تحتفظ الشركات الافرنسية بامتيازاتها وفي مقدمتها البنك السوري .

٥ ــ تسعى حكومتا لبنان وسوريا للتفاهم على كيفية ادارة المصالح المشتركة (الجمرك ، المرافيء ، وغيرها) . فاذا توصلتا الى ذلك استلمتا تلك المصالح ، والا فهي تبقى بادارة الافرنسيين .

٦ ــ تبقى الامتيازات الاجنبية .

٧ ــ يمثل فرانسا في سورية سفير ويمثل سورية في باريز وزير مفوض ، وتتولى فرانسا تمثيل سورية في سائر الدول الاجنبية .

٨ ــ تبقى خاضعة للقيادة الافرنسية ، القطعات المؤلفة من سوريين ولبنانيين بالتعاقد ، وتكون هذه القوى نواة الجيش السوري في المستقبل .

٩ ــ تسقط فرانسا مطالبها بنفقات الانتداب ، وتسقط سورية مطالبها بالتعويض عن الاضرار التي خلفتها الثورة السورية .

هذه اهم البنود التي كانت تحتويها تلك النصوص . وهي في جملتها بعيدة كثيرا عن آمال الشعب بالحصول على استقلاله وسيادته ، لا سيما في قضية التحالف العسكري وبقاء القواعد ، وفي ابقاء التعادل النقدي وحقوق الشركات الافرنسية (ومنها البنك السوري الذي كان محصورا فيه حق اصدار النقد السوري) .

وكذلك بقيت المصالح الاقتصادية الجوهرية تحت سلطة الانتداب ، كالجمارك وغيرها . اذ لم يكن ثمة شك بان الحكومة اللبنانية خاضعة دائما لسيطرة الافرنسيين وتوجيهاتهم . فهم لا يتركون سبيلا للتفاهم بين سورية ولبنان ، لتبقى هذه المصالح تحت يدهم .

وكذلك القطعات العسكرية ، فان بقاءها تحت قيادة الافرنسيين يحرم الحكومة السورية من قوة تعتمد عليها .

وعلى الرغم من هذه النواقص التي كان اكثرها مذكورا في معاهدة بونسو ـ حقي العظم ، فان الكتلويين استعملوا سلاح الدعاية الواسعة لاظهار محاسن هذه المعاهدة . ووصل الامر باحدهم ، وهو فارس الخوري ، الى نعتها بأنها « معجزة القرن العشرين » .

وتهيأت جماعات الكتلة لاستقبال الوفد العائد من باريز باكثر ما يمكن حشره من المواطنين . وبدأت المظاهرات الترحيبية منذ وصول الوفد الى محطة حلب . وانتشرت اللافتات كلها تنادي بنيل سورية استقلالها وبتمجيد الوفد الذي حقق المعجزة . وكذلك كانت عشرات الالوف تنتظر في المحطات مرور قطار الوفد لتحييه وتمجد المعاهدة . وفاق استقبال دمشق اي استقبال جرى في بلد آخر . وكاد اعضاء الوفد يقضى عليهم من جراء ضغط المستقبلين حولهم لمعانقتهم ومصافحتهم . وعندما وصل الوفد الى دار الحكومة، استقبله فيها مسيو دومارتيل . وكان هاشم الاتاسي يحيطه بالترحيب والاهتمام ويناديه باسم حضرة السفير .

وفي اليوم التالي القى فارس الخوري محاضرة عن المعاهدة في قاعة الجامعة السورية، ففصل بنودها واشاد بها كانتصار ساحق احرزته سورية على الانتداب . وخرجت الجماهير من قاعة المحاضرات بعد ان تعبت ايديها من التصفيق .

وعندما هدأ الحماس نوعا ما وعاد فارس الخوري الى مزاولة رئاسة مجلس ادارة شركة الشمينتو ـ وكنت مديرها العام ـ تسنى لي ان ابدي له ملاحظاتي على المعاهدة ومآخذي عليها . وذكرته بكل ما كنت اكتب اليه وهو في باريز، من ان اهم قضية يجب تسويتها هي استلام مصلحة الجمارك لتستطيع سورية رعاية اقتصادياتها وحماية منتوجاتها الزراعية والصناعية . وصرحت له بان عدم الاتفاق مع الافرنسيين على استلام هذه المصلحة فورا ، وتعليق الاستلام على الاتفاق مع لبنان ، لا يمكن الاعتماد عليه ، لان الافرنسيين لا يدعون الحكومة اللبنانية تعقد معنا اتفاقا .

وكان الاستاذ الخوري صريحا في جوابه وهو انهم لم يستطيعوا الحصول على اكثر من ذلك ، وانهم كانوا بين قبول النصوص كما هي او الرجوع الى سورية بدون تفاهم . واضاف بان المعاهدة لا تخلو

من بعض المحاسن ، وانها على كل حال خطوة يمكن الانتقال منها الى ما هو احسن في المستقبل .

والحقيقة ان خطـة الكتلويين كانت تماثل الخطة التي انتهجها الرئيس بورقيبه عندما عقد مع الافرنسيين اول اتفاق لا يختلف كثيرا عن روح المعاهدة السورية ـ الافرنسية ، فقد قبل ان تبقى قاعدة بنزرت البحرية تحت تصرف الافرنسيين ، وتنازل عن مطالب عديدة رغبة في استلام زمام الامور وتثبيت قواعد الحكم الوطني ، ثم العمل على الغاء امتيازات الاستعمار رويدا رويدا.

وهذه السياسة تتطلب لنجاحها توفر ظـروف دولية تساعـد الدول الصغيرة في مطالبها ، وبدون تلك العوامل الخارجية فاني لا اكون مغاليا اذا قلت ان الامل في انسحاب فرانسا كليـا من سورية ولبنان كان كالسراب،لو دام الهدوء في العالم ولم تقع الحرب العالمية، التي كان من نتائجها فشل فرانسا وقبولهـا الهدنة مع جيش هتلر وخضوعها له طول الحرب .

اما حركة ديغول ، فهي وان كانت مدعومة من قبـل الحلفاء في اثناء الحرب لاسباب تتصل بابقاء حركة المقاومة ضد النازية ، فانها لم تعد بعد انتهاء الحرب يراعى خاطرهـا ، حتى انهـا لم تدع الى الاشتراك في المؤتمرات التي عقدها روزفلت وتشرشل وستالين في طهران ويالتا وبوتسدام وغيرها من البلدان . فتصوروا لو انفرانسا انتصرت منذ بدء الحرب على المانيا وارغمتها على القاء السلاح، فهل كان معقولا ان تصل سورية الى امانيها بالاستقلال التام والسيـادة المطلقة على اراضيها ، بدون معاهدة تبقي لفرانسا بعض الامتيازات؟

ومع ما اصاب فرانسا من التردي ، فقد ظـل تشرشل رئيس وزارة بريطانيا يطلب من السوريين ان يعقدوا معها معاهدة تبقي لها بعض المميزات . لكن الحـكم الوطني الذي استـلم دفة الامور منذ ١٩٤٣ ، وعلى راسه شكري القوتلي ، رفض اقتراح تشرشل ولـم يعترف بكتاب « لتلتون » الموجه الى الجنرال ديغول ، وفيه اعتراف لفرانسا بمركز خاص في سورية ولبنان .

والحقيقة التي لا شك فيها ان سياسة الولايات المتحدة الرامية الى ازالة الاستعمار الذي تمارسه غيرها من الدول في العالم ، هي التي ادت،بمعونة الانكليز،الى انزال العلم الافرنسي من سماء سورية ولبنان . وبالطبع لم تكن سياسة الولايات المتحـدة هـذه لوجه الله ومجردة من الغرض . فقد كانت ترمي الى ازاحـة غيرها والحلول

محلها ، لا بالاسلوب الاستعماري القديم ، لكن بمعاهدات تعقدها مع الدول التي وفرت لها الاستقلال ، فتكفل بذلك لها في كل بلد قواعد استراتيجية تطوق بها المحيط الشيوعي ، وحكومة محلية صديقة تتبع سياستها وتخضع لمشيئتها وتوجيهها . حتى اذا رفضت حكومة محلية ما الخضوع ، اثار عملاء الولايات المتحدة ضدها انقلابا عسكريا يتعهد منفذوه سلفا باتباع سياسة الموالاة لامريكا . وتتهم الولايات المتحدة الاتحاد السوفيتي بانه يسعى لخلق دول تابعة له ، سواء في اوروبا او في آسيا وافريقيا وامريكا ، وتقدم مثالا على ذلك جمهورية كوبا التي ثارت ضد النظام الذي خلقته واشنطن ، واعلنت ولاءها وصداقتها لروسيا . اما الدول التي تريد البقاء على الحياد فتصفها امريكا بالتبعية للاتحاد السوفيتي، مثل سورية عندما رفضت التوقيع على معاهدة الدفاع المشترك مع ممثلي واشنطن واضطرت لشراء الاسلحة وعقد اتفاقية اقتصادية مع موسكو ، بعد ان سدت في وجهها ابواب الدول الغربية كلها . وهكذا ظلت ايدي العملاء الاميركيين تلعب حتى نجحت في انقلابات عديدة ، سواء في سورية او غيرها .

سقوط الليرة السورية يكشف احدى مساوىء المعاهدة

كانت عودة الوفد السوري من باريز في حزيران . ولم تمض فترة طويلة حتى اعلنت الحكومة الافرنسية تخفيض سعر الفرنك ، فتبعته الليرة السورية. واصبحت الليرة التركية الذهبية تساوي ٧٥٠ قرشا سوريا بعد ان كانت ثابتة على ٥٥٠ قرشا. واضطربت اسواق سورية المالية واصيبت شؤوننا الاقتصادية بضربة قاسية — ذكرتها بالتفصيل في القسم الخاص بالشؤون المالية والاقتصادية من مذكراتي — وانكشفت بذلك احدى مساوىء المعاهدة الافرنسية — السورية، « معجزة القرن العشرين » ! وقد سعيت اذ ذاك لازالة الاضرار الناجمة بابقاء قيمة الليرة السورية كما كانت قبل تخفيض الفرنك ، على ان تتحمل الخزينتان السورية واللبنانية الفرق بين المعدل السابق والمعدل الجديد . وقد وافقت حكومتا عطا الايوبي واميل اده على اقتراحي ، غير ان المفوضية الافرنسية رفضت رفضا باتا هذا الاقتراح لانه يتعارض مع احد بنود المعاهدة الجديدة ويحرم فرانسا من الفوائد الاقتصادية التي تجنيها من تجارتها مع سورية.

وفي شهر كانون الاول جرت الانتخابات النيابية ففاز مرشحو الكتلة فوزا ساحقا . وكان اول ما عملوه هو اجبار محمد علي العابد

على الاستقالة ، فنزل المشار اليه عند مشيئتهم ، فانتخب هاشم الاتاسي محله . وتالفت الوزارة برئاسة جميل مردم ، من سعد الله الجابري وشكري القوتلي والدكتور كيالي . واستقبلت البلاد العهد الجديد بالهتاف والارتياح، ووضعت آمالها كلها في عنق الذين استلموا الحكم . ولم يشذ عن هذا الاجماع الا القلة من الزعماء الكتلويين الذين صعب عليهم اقصاؤهم عن الوزارة ، فراحوا يكيدون ويدسون السموم في الخفاء .

ليس لي ان اذكر سجل الحوادث التي جرت في هذا العهد ، فتلك هي مهمة المؤرخ . ولست الا رجل اشتغل في خدمة بلاده، نيفا وخمسة وثلاثين عاما ، واراد تقديم بيان الى مواطنيه عما قام به من الخدمات . هذا مع اضطراره الى ربط العهود ، بعضها ببعض، لان كلا منها يتاثر بما سبقه. وعلى ذلك اراني مضطرا ان لا امر على عهد لم اشترك فيه مرور الكرام ، بدون تدوين حوادثه الهامة على الاقل، حتى يتسنى للقارىء ان يتابع احداث سورية ، فلا يكون امام انظاره صحائف خالية خاوية .

سياسة الكتلويين الحزبية الضيقة قادت البلاد الى الاسوأ

اتبعت الحكومة الجديدة سياسة الحزبية الضيقة ولم تفتح صدرها لغير المنتسبين اليها . فلما قام عبد الرحمن الشهبندر بجمع الناس حوله واعلان نواقص المعاهدة ، عادت الى ذهن الكتلويين ذكريات خلافاتهم في القاهرة ايام الثورة السورية ، فبدأوا بمناوأة الشهبندر ومطاردته، حتى وصل بهم الامر الى فرض الاقامة الجبرية عليه في بلودان ومنع الناس من دخول الدار التي كان يسكنها .

ثم عكفت الكتلة الوطنية على تاليف منظمة شبه عسكرية دعتها باسم « القمصان الحديدية » ظنا منها انها بهذه الوسيلة تستطيع الاعتماد عليها بدلا عن الجيش الذي كان ولا يزال تحت امرة الافرنسيين .

اما المعاهدة ، فقد اسرعت الحكومة الى تقديمها الى مجلس النواب وراحت تكيل لها المدح والاطراء . وسار النواب على نفس الخطة ، فلم يبق حرف من النصوص لم ينل نصيبه من المديح والثناء، حتى كاد يظن من يسمع تلك الخطب بان سورية حصلت على الاستقلال التام ، وان الانتداب قد انتهى . واتضح خطأ هذا الاتجاه الذي لم يقصد به في الاصل سوى دعم مركز الكتلة ، عندما بدأت ترد من فرانسا اخبار غير مطمئنة، خلاصتها ان العسكريين يعترضون على المعاهدة ويطلبون تعديل بعض نصوصها ، وان اصحاب الاتجاه

الاستعماري كذلك ينادون بتعديل بعض احكامها حفظا لاغراض الانتداب بالتدخل في كل شيء .

ومع ان مجلس النواب السوري اسرع الى اقرار المعاهدة ، فان الحكومة الافرنسية لم تعرضها على البرلمان الافرنسي خشية رفضها .

ومن جهة ثانية ، قدمت الجمهورية التركية مذكرة الى باريز تقول فيها بانها قبلت النظام المشترك الخاص في لواء الاسكندرونه، وذلك حينما كان الانتداب سائدا في سورية. ولكنها لا تقبل باستمرار ذلك النظام بعد ان تخلت فرانسا عن مسؤولياتها بموجب المعاهدة الافرنسية ـ السورية ، وطلبت الحاق اللواء بتركيا. ثم راحت تهدد وتتوعد .

وتجاه المماطلة البادية من الافرنسيين بتقديم المعاهدة الى البرلمان ، لم يكن من الحكومة السورية الا ان اوفدت رئيسها مردم، ووزير الخارجية الجابري ، الى باريز بقصد الاستطلاع . فبقيا مدة في باريز ، دون ان يحصلا على وعد قاطع .

وفي اواخر ١٩٣٨ ، ظهرت نوايا الافرنسيين علانية ، اذ انهم اوعزوا للموالين لهم من الاشوريين بالعصيان في محافظة الجزيرة. فقامت تلك العشائر باعمال استفزازية ضد الحكومة حتى كادت ذات مرة تلقي القبض على المحافظ السيد حيدر مردم بك ، ابن عم رئيس الوزارة . وكذلك كان الامر ، وانما على سوية ادنى في محافظتي اللاذقية وجبل الدروز . فقد طورد المحافظان احسان الجابري ونسيب البكري واضطرا للعودة لدمشق . وساءت الاحوال في جميع الانحاء . وفي الفترة نفسها قامت مظاهرات الاتراك في محافظة الاسكندرونة مطالبة بالالتحاق بتركيا ، واتفق الافرنسيون مع الحكومة التركية على اجراء استفتاء في تلك المحافظة . وحمي الوطيس بين الفريق المنتمي للاتراك من جهة ، والفريق الذي يطالب بابقاء الحال كما هو ، وهو مؤلف من العناصر العربية المسلمة والمسيحية ومن الارمن الذين كانت تركيا ابعدتهم الى اللواء في اثناء الحرب العالمية الاولى .

وبذلت الجهود سخية ، غير ان المندوب الافرنسي هناك كان يعمل لصالح الاتراك . وانتهت عمليات الاستفتاء ، فحاز الاتراك على اربعين بالمئة من الاصوات ، وتقاسم الاصوات الباقية السوريون والارمن . ومع ان المنطق كان يقضي باعتبار الاكثرية

تريد بقاء الحال ، فان الاتراك ادعوا بانهم حصلوا على اصوات تفوق عدديا اصوات كل فريق من العرب والارمن . واستمرت المفاوضات بين الاتراك والافرنسيين ، فثارت مشاعر السوريين في جميع المدن السورية . وتظاهر القوم وطالبوا بالتمسك بلواء الاسكندرونة، وبتنفيذ احكام المعاهدة السورية ـ الافرنسية . وبدأ العراك داخل الكتلة نفسها . وعقدت اجتماعات عديدة في مصيف جميل مردم بقدسيا قرب الهامة ، ظلت طيّ الكتمان ولم يبد من نتائجها سوى ادخال لطفي الحفار وفائز الخوري على الوزارة . وكان قد استقال منها شكري القوتلي احتجاجا على توقيع رئيس الوزارة مردم على تجديد اتفاقية البنك السوري ، خلال وكالته عن وزير المالية ، حين كان القوتلي مسافرا الى الحج .

ومن النكات التي تثبت الفوضى التي كانت سائدة على المجتمعين في قدسيا وعدم اتفاقهم،يروى ان عفيف الصلح كان يطلبه من الحاضرين قطع الحديث كلما دخل الخادم ليقدم القهوة او الماء حتى لا يطلع على الابحاث. فتضايق الاستاذ فارس الخوري وقال له : « يا عفيف بك نحن بين بعضنا لا نفهم على بعضنا ، فكيف يستطيع الخادم ان يفهم شيئا مما نقوله ؟ »

وبدات الامور تسير من سيىء الى اسوأ . وكادت تفلت الدفة من يد الحكومة ، فقرر رئيس الوزارة ان يسافر مرة ثانية الى باريز ليقوم بالمحاولة الاخيرة ، بينه وبين اركان الحكومة . وكانت حكومة بلوم الاشتراكية قد تركت الحكم وجاءت محلها حكومة برئاسة دالاديه ، المعروف عنه انه من المسايرين لآراء اركان الجيش الافرنسي .

وجرت الابحاث في مطلع ١٩٣٩ واستمرت الى ان راى مردم ان لا مجال للتمسك بنصوص المعاهدة كما هي ، فاضطر لقبول تعيين مستشارين افرنسيين ، احدهما في وزارة الداخلية ، وللنزول عند راي الاركان ببعض النقاط كبقاء الجيش مدة خمس سنوات . ووقع على ملاحق تتضمن هذه التعديلات وعاد لدمشق ، ظانا ان الحكومة والمجلس سينظران الى الامور بعين الحكمة وعلى ضوء الواقع والامكانيات . لكن ظنه خاب منذ الاجتماع الاول الذي عقدته الحكومة . فقد رفضت الملاحق وتقرر عدم نشرها . اما في الجلسة التي عقدها مجلس النواب للنظر في سياسة الحكومة العامة ، فقد طلب رئيس المجلس فارس الخوري من رئيس الحكومة الادلاء ببيان

عن اعماله في باريز واطلاع النواب على الملاحق .

فلم يشأ جميل مردم اطلاع المجلس عليها ، وكانت اجوبته مصبوغة بالتسويف والمماطلة . فما كان من الرئيس الخوري الا ان اعلن ان المجلس لا يستطيع ازاء موقف الحكومة الا ان يبدي رفضه كل تعديل للمعاهدة ، فايدته الاكثرية بالتصفيق .

ويقال ان سبب موقف الاستاذ الخوري العدائي نحو الحكومة يرجع الى انه اراد ان يذهب الى فرنسا في اواخر ١٩٣٨ ليسند جميل مردم الموجود هنالك في مساعيه للتصديق على المعاهدة . الا ان هذا الاخير لم يرتح لهذا التدخل الذي قد يؤدي الى عرقلة تفاهمه مع الافرنسيين ، فطلب من الحكومة الافرنسية سرا ان لا تمنح سمة دخول للاستاذ الخوري . ولم يعلم احد بالامر ، طبعـا ، وسافر الخوري بقطار الشرق السريع الى باريز . وودعته في رياق . فلما وصل الى استانبول وجلس في محطة سيركجي ينتظر موعـد قيام القطار باتجاه اوروبا ، جاءه السفير الافرنسي وابلغه ، بعد التحية والاكرام ، ان حكومته ترجوه صرف النظر عن المجيء الى باريز . فلما اصر الخوري على السفر اضطر السفير لمكاشفته بانه لا يستطيع اجتياز الحدود الافرنسية ، اذ ان الاوامر اعطيت للمخافر بعدم السماح له بدخول الاراضي الافرنسية .فرضخ عندئذ الاستاذ وتوجه الى فندق بيرا بالاس وهو قانع بان جميل مردم هو الذي سعى لمنعه من الوصول الى باريز . وحقد عليه حقدا اسود ، وانتقم منه عندما عاد مردم بك الى دمشق حاملا الملاحق . فجرى في المجلس ما ذكرناه من رفض تلك النصوص بدون الاطلاع عليها .

انقسام الكتلويين بصدد المعاهدة واستبدال مردم بالجابري

وانقسمت الكتلة الى قسمين ، قسم يساند مردم بالتساهل مع الافرنسيين وابقاء ما يمكن ابقاءه من نصوص المعاهدة والاستمرار في الحكم ، والقسم الآخر يرى رفض الملاحق وتخيير الافرنسيين بين الاستمرار بالتفاهم النزيه وبين الانسحاب من الحكم والعودة الى المعارضة . وكان الاعضاء القائلون بهذا الراي اكثر من مساندي رأي رئيس الوزراء ، مما ادى الى قيام مظاهرات عدائية له وضد سياسته . فتولت زمام الامن السلطة الافرنسية واوقفت الكثير من البارزين في الكتلة ، العاملين في تهيئة تلك المظاهرات ، ونفتهم الى النبك . فافلت الامر من بين يدي جميل مردم ، فلم يسعه سوى تقديم استقالته ، خاصة ان رئيس الجمهورية هاشم الاتاسي انحاز الى الفريق المخاصم لرئيس الوزراء وراح يؤنبه ويؤنب سعدالله

الجابري على تصرفات الحكومة التي اوصلت الحالة الى هذا الدرك.

وتولى الحفار ، احد البارزين في الكتلة ، تأليـــف حكومة تسعى ، كآخر محاولة ، لرتق الخرق واعادة الصلات الحسنة مع ممثلي الانتداب واشترك بالوزارة نسيب البكري وفائز الخوري وسليم جنبرت وغيرهم .

ولم يكن الرئيس الجديد حائزا على المهارة السياسة التي كان يتميز بها سلفه . حتى انه ، بسبب جهله اللغة الافرنسية ، كان مضطرا لمن يترجم احاديثه مع ممثلي الانتداب ، فيفقد بذلك مفعول الاتصال المباشر . وظل لطفي الحفار على الرغم من نيته الطيبة في الخروج من المأزق ، يتخبط بين متطرفي الكتلة وعمال الانتداب ، حتى فرغ صبره . فاضطر تحت ضغط حزبه لتقديم استقالته ، بعد ان قررت الكتلة عـــدم التعاون مع اية وزارة لا تضمن تنفيذ المعاهدة بنصوصها الاصلية .

صحيح ان المعاهدة لم تكن في نظري ونظر اكثرية المفكرين الحياديين شيئا يبكى عليه . لكنها كانت اصلح ، على كل حال ، مما ستكون عليه عندما تنضم اليها الملاحق المشؤومة .

وكنت طيلة هذه الفترة في اوروبا لا اتلقى من الاخبار سوى المقتضب الذي تنشره صحف فرنسا ، او المتـــاخر اسبـــوعا الذي اطالعه في صحف دمشق . وكنت على وشك العودة الى سورية ، عندما بلغني خبر استقالة الحفار وتعثر تأليف حكومة جديدة .

وكان رئيس الجمهورية ، يبذل جهده لاقناع رفاقه الكتلويين بتأليف حكومة تسعى للمرة الاخيرة لحفظ مصالح سورية . لكن قرار الكتلة كان صلبا لا يسمح لاحد اعضائها ، لا بتأليف وزارة جديدة ، ولا بالاشتراك بأية وزارة ، قبل الحصـــول على عدول الافرنسيين عن الملاحق وتصديق المعاهدة بنصوصها الاصلية . لكن من يستطيع البحث مع الافرنسيين على هذه الاسس غير حكومة منبثقة من المجلس وحائزة على ثقته ؟ ولعل اعضاء الكتلة ، بعد ان تفـرق شملهم في اواخر عهد وزارة مردم بك ، وانسحب منهم من انسحب ، شعروا انهم اضاعوا الثقة التي كانت البلاد تمنحهم اياها بسبب فشلهم في الادارة وتسببهم — على قول البعض — في تصلب الافرنسيين بداعي حماية المسيحيين . ولذلك كان الانسحاب الى صف المعارضة اهون كثيرا من الاستمرار في الحكم وادعى لاستعادة

ثقة الجماهير مجددا ، فكان موقفهم السلبي ناشئا عن هذه الاعتبارات وعما يمكن ان يضاف اليها من الحسد والغيرة بين الاعضاء ، وتذمر بعضهم من عدم اشراكهم بالوزارة او نيلهم ما كانوا يصبون اليه من منافع . ولا ينكر ان اية حكومة تبقى اكثر من سنتين على راس العمل ، لا بد من ان ترتكب بعض الاخطاء المقصودة او العفوية . ولم يتعود الشعب السوري ، في عهد تتجلى فيه الحرية بكل معانيها ، ان يتقبل بقاء حكومة ما اكثر من ستة شهور ، فكيف اذا طالت هذه المدة الى سنتين وشهرين ؟ هذا اذا تركنا جانبا القول المشهور بأن العرب يتفقون في التخريب ويختلفون في الانشاء . ذلك ان الانشاء يتطلب قيادة ماهرة ، وخططا مرسومة سلفا ، وتعاونا كليا بين العاملين ، وانصياعا لامر القائد . في حين ان التخريب لا يحتاج الى كل هذا ، بل يكفي ان يتناول كل عامل معولا ويضرب به ناحية من البناء لكي ينهار .

اما في السياسة ، فالمعارضة تتطلب ايضا قيادة حكيمة ، وتوجيها صحيحا وفق برامج مدروسة ، واخلاصا وتفانيا لدى العاملين . ونحن في سورية وفي كثير من البلاد العربية برعنا في المقاومة السلبية ومناهضة كل محتل وكل حكم مستبد . ولا ادعي بأن براعة الكتلويين هي التي اوصلتنا الى نيل استقلالنا ، فما كان ذلك ليكفي لو لم تشاندنا في نيل امانينا بريطانيا والولايات المتحدة ، كل منها لغرض خاص بها طبعا . لكن لولا الكتلة الوطنية والتفاف الشعب حولها لمن كانت تلك الدول تعهد امانة الاستقلال والقيام بتاليف حكومة وطنية تستلم المسؤوليات ؟ ولو اننا استطعنا ان نعالج قضايانا بمهارة ومقدرة ، ولو لم تعاجلنا قضية فلسطين ولم يمض على استلامنا الحكم اكثر من ثلاث سنين ، ولو بقي التضامن بين العاملين كما كان في اوائل عهد المقاومة التي تولتها الكتلة الوطنية ، ولو لم تتغير سياسة امريكا نحونا بعد ان قاومنا سياستها الصهيونية وخططها الستراتيجية في الشرق العربي ، لكنا الان اسعد شعب يتمتع بما حبا المولى ارض بلاده من خيرات ونعم . لكن ، يا للاسف ، لم تات الايام كما كنا نرجو ، فظلت بلادنا منذ ١٩٤٨ ترتفع وتهبط كالسفينة فوق الامواج .

عدت من اوروبا في نهاية آذار ١٩٣٩ بقطار الشرق السريع . ولما وصلنا الى استانبول ، قرانا في صحفها نبأ تكليف السيد نصوح البخاري بتاليف الوزارة . ووصلت الى دمشق ، فاتصل بي فورا

يطلب مني قبول احدى الوزارات ، فقبلت بعد تردد . ويجد القارىء في مذكراتي السياسية بحثا مستفيضا للحوادث التالية ، فلنرجع اليها لوصل الماضي بالحاضر .

سفري مع زوجتي الى استنبول ومشاهداتي فيها

والان لنرجع قليلا الى الوراء لمتابعة مذكراتي الخاصة ، فاذكر ان والدتي رحمها الله ما كانت تسمح لي بالسفر الى اوروبا خوفا علي من محيطها ومما هو مشهور عن باريس خاصة من التحلل الخلقي . وسايرت والدتي ولم ابرح دمشق الا في شهر ايلول ١٩٣٤ ، حين ابحرت ومعي زوجتي على باخرة رومانية لقضاء شهر في ربوع استنبول التي كانت ذكرى سفري اليها في ١٩١٢ ما تزال مسيطرة علي خيالي . وكانت الباخرة ، على الرغم من صغرها ، على غاية من النظافة والاناقة . وكانت هي الباخرة ذاتها التي سافرنا عليها في ١٩١٢ من الاسكندرية الى استنبول . وعندما وصلنا الى بيره ، المرفأ اليوناني المعروف ، نزلنا الى اليابسة وتوجهنا بالسيارة الى اثينا حيث زرنا معالمها التاريخية كالاكروبول .. لست من عشاق العادات القديمة ، لذلك لم اجد في هذه الزيارة ما يبهجني. وفي المساء عدنا الى الباخرة التي اقلعت بنا واوصلتنا ظهر اليوم الثالث الى استنبول ، فاثارت مناظر مدخل هذه المدينة البديع ذكريات زيارتي الاولى ، ووجدت بذلك متعة لا تطالها متعة .

كان فندق بيره بالاس اشهر فندق حتى يوم نزولنا فيه ، لكنه بدا لي كعجوز تتغنى بشبابها السالف ومباهجها الزائلة . فعلى الرغم من فخامة ابهائه واتساع غرفه وعلو سقوفها بشكل خاص ، لم يكن فيه من اسباب الراحة والترف ما هو موجود الان في الفنادق حديثة العهد . فالاسرة كانت من النحاس الاصفر تعلوها «الناموسيات»، والمقاعد كانت كالعجائز اللواتي ضممن في احضانهن العديد من الاطفال والشباب في ماضيهن البراق . اما السلم ، فكان خشبيا تترنح درجاته تحت ثقل الصاعدين فتسمع لها صوتا كأنين المتقدم في السن وهو يحمل اثقالا لا قدرة له على حملها . وكان ثمة مصعد يرجع تاريخ صنعه الى خمسين سنة خلت . فكنت اخاف من استعماله واتحمل مشقة الصعود على السلم .

وكان صاحب الفندق من اسرة مخيش اللبنانية ، تعرفت اليه في بار الفندق حيث كان يجلس من الصباح حتى المساء ويده لا تخلو من كأس وسكي ، دون ان تنتابه اعراض السكر . وظل على هذه الحال حتى انقضى اجله ودفن في استنبول .

وسارعت بعد استراحة قصيرة الى السير في شارع « بك اوغلو » . ووقفت طويلا امام مدخل مدرسة « غلطة سراي » اطيل النظر خلال قضبان بابه الحديدية الى ساحته الواسعة ، حيث كنا نلعب ونمرح ، والى غرفة البواب التي كنت اجلس فيها منتظرا الخادم الذي كان يرسله والدي لمرافقتي الى البيت .

وكثيرا ما سعيت للعثور على الدارين اللتين سكنا فيهما ، الاولى في « اورطة كوي » ، والثانية في « شيشلي » ، لكنني لم اجد لهما اثرا ، فلربما هدمتا وقام محلهما بناء جديد . وكنا نركب البواخر الصغيرة التي تتنقل في البوسفور مارة بكل حي من الاحياء المؤلفة من دور خشبية تلاطم الامواج اساساتها وسط قصور فخمة تسمى « يالي » كان اثرياء الاتراك والروم يقضون فصل الصيف فيها الى جانب قصور بعض السفارات . وكانت ثمة فنادق منها « سامار بالاس » و « طوقاتليان » وهما من الدرجة الاولى ، يرتادهما كبار الوزراء والموظفين واعضاء السلك السياسي الاجنبي واثرياء البلد ووجهاؤها . ولم يكن الاختلاط بين النساء والسيدات معروفا ، حتى ان السيدات لم يكن يخرجن خارج دورهن الا برؤوس مغطاة بعصبة من الحرير او التول .

ولم يبهر نظري في حياتي اكثر من مشاهدة المجوهرات المنوعة والالبسة المزركشة والاواني الذهبية المزخرفة بالماس والياقوت والسيوف والخناجر الذهبية المرصعة بانواع المجوهرات في قصر « سراي بروني » . وكان هذا القصر مقر السلاطين حتى منتصف القرن الثامن عشر، وهو يطل على مضيق الاستانة من فوق هضبة عالية تمكن المرء من مشاهدة البلد القديمة والجديدة والمضيق واكبر القرى المصطفة على شاطئيه وعلى الجزر وبحر مرمره . وهو مقسم الى قسمين متلاصقين ، الاول مخصص لزوجات السلاطين واولادهم وبناتهم وجواريهم ومحظياتهم ، والثاني مقر السلطان ومركز الحكومة المركزية .

ومهما حاول الانسان احصاء ما يحتويه هذا القصر من كنوز، فانه يبوء بالفشل . ولعل اكثرها قيمة ذاتية وتاريخية هو عرش احد ملوك الفرس . فهو ذو قواعد ثخينة مرصعة بالماس والياقوت واللؤلؤ . اما طراريحه ومخداته فهي من المخمل الاحمر الذي تكاد لا تراه من كثرة ما ثبت عليه من الاحجار الكريمة . وثمة عرش آخر يقل عنه زخرفة ، الا ان فيه زمردة بحجم البيضة معلقة

بسلسلة ذهبية مدلاة من وسط السقف بحيث تلامس راس السلطان . وعلى الجدران اطباق من الصيني الملون المذهب ، تختلف الوانها باختلاف الغرف . وفي وسط القاعات الفسيحة موائد مغطاة بالزجاج ، مليئة بادوات الطعام الذهبية المرصعة بالياقوت والماس . اما السيوف الذهبية المرصعة ، فلا يقل عددها عن المئة . وثمة قاعات تمثل فيها السلاطين بالشمع وعليهم الاثواب المتعددة الالوان ، المزركشة بخيوط الذهب والفضة ، يتوسطها خنجر الى جانبه سيف مرصع بأنواع الاحجار الكريمة . اما التيجان ، فهي طاقيات من الفرو والمخمل تحمل في وسطها حجرا كريما من الياقوت او الزبرجد ، وقد سورت باللؤلؤ الثمين الذي لا تقل حباته عن حبة الفول . وثمة خزائن تحوي العجائب مما صنعته ايدي الاخصائيين في المجوهرات والنقش ، واخرى تحوي الاوسمة المحلاة بالماس وغيره ، وهي التي كان يهديها الملوك الاجانب للسلاطين الى جانب هداياهم النفيسة .

ولا يستطيع انسان ان ينكر ما يعتريه من اعجاب بما هو محفوظ في ذلك القصر من تحف لا تقدر بثمن . وقد قال لي احد الادلاء ان ما نشاهده هو جزء مما كان محفوظا في هذا القصر وفي قصر ييلدز وطولمه باغجه . فالباقي نهب اثر الانقلاب العثماني في ١٩٠٨ .

وزرت متاحف وقصورا عديدة في اوروبا وآسيا ، فلم اجد فيها ما شاهدته في هذا القصر من مجوهرات . ففي لندن رايت التيجان والاسلحة والاوسمة البريطانية ، وهي غنية بالماس ، وخاصة بالماسة الكبيرة ذات ٣٠٠ قيراط التي تعلو التاج الملكي ، غير ان التحف المعروضة في استنبول تزيدها عددا وتنوعا وجذبا للانظار . وانطبعت في مخيلتي هذه الصور كما انطبعت من بعد صور اللوحات الزيتية المحفوظة في متحف اللوفر في باريز ، ومتحف البرادو في مدريد ، وهي آيات في الفن رسمها كبار الرسامين العالميين كرافائل ، وليوناردو دي فينشي ، وموريللو ، وتيسيان ، وفووا ، وآنغر ، ودافيد ، وفراغونار ، ورنوار ، وغيرهم من العباقرة .

وفي روما ونابولي وفيينا وبرلين ولندن وباريز وموسكو ولينينغراد متاحف عظيمة تحوي من اللوحات النفيسة ما لا يستطيع الانسان المرور بها مرور الكرام ، وربما اتيت على ذكرها في حينه .

وتمتاز جزيرة « بيوك آطه » عن الجزر القريبة منها باتساعها، وبغابات الصنوبر التي تكسو اديمها ، وبما يفـوح في جوها من روائح تلك الاشجار .

شركة الشيمنتو توفـدني الـى اوروبا لدراسة عروض توسيع المعمل

وقد مللت البقـاء في فندق بـيره بالاس ، فانتقلت الى فندق في ناحية « فنار باغجه » ، وهو فندق قديم مبني من الخشب لا يعتبر من الدرجة الاولى . لكن ميزته كانت في نظري وقوعه على الشاطىء وقربه من دار خالتي واولادها . فكنا نتنزه سوية ونقضي الايام والليالي برفقتهم . وكـان برنامجي البقاء في استنبول خمسة عشر يوما آخر ثم العودة الى دمشق ، الا ان برقية وردتني ذات يوم من ادارة شركة الشمينتو تعلمني فيها انها قررت توسيع المعمل وايفاد وفد الى اوروبا لدراسة العروض محليـا ، وان الادارة اختارتني مع السيدين امين دياب ويوسف بوس لعضويـة هذا الوفد . وبعد اسبوع وصل الزميلان المشار اليهما وبقيا في فندقي يومين حتى تداركنا بطاقات السفر بالقطار الى براغ .

وتركنا الفندق واتجهنا نحو محطة « سيركجي » ليلا وانتظرنا موعد سفـر القطار ، واذ بأحد الموظفين يأتي صوبنا ويسألنا اذا كان معنا عملات اجنبية . فاجبناه بالايجاب وابرزنا له جوازاتنا التي اشر عليها مقدار مّا كنا نحمله حين دخولنا تركيا . واعلنا عن ان الموجود معنا الآن هو طبعا اقل من تلك المبالغ ، فراح الموظف يقلب صفحات الجوازات ثم قال انكم لم تحصلوا على اذن بالخروج ومعكم هذه النقود . فاستغربنا ان يكون ثمة حاجة لذلك ، كما ان احدا لم يخبرنا لا عند الدخول ولا في الفندق عن ضرورة الحصول على اذن خاص . وبينما نحن في اخذ ورد مع الموظف ، تجمع حولنا عدد من الناس واخذ كل واحد يبدي رايا . ثم جاء رئيس القطار وسألنا اذا انتهينا مع الموظف فقلنا كلا . فاخذ احدنا جانبا وقال له هامسا : « ارضوا المامور بمكافاة مالية وهو يتسامح معكم . » غير ان الجمع الذي احاط بنا جعل قضيتنا معروفة بحيث لم يعد الموظف قادرا على الرجوع عن طلبه . وعنـد ذاك جاءنا رئيس القطار وقال ان موعد قيام القطار قد حان وهو لا يستطيع التأخر، لا سيما ان لا فائدة من مساومة الموظف بعد ان تكاثر القوم حولنا. ثم نصحنا بتسجيل تأخرنا عن موعد السفر حتـى لا تسقط قيمة بطاقات السفـر ، ففعلنا . وعـدنا الى استنبول ونـزلنا في فندق متواضع قرب بيره بالاس وقضينـا يومـين اضافيين اتممنا فيهما

المعاملات اللازمـــة وبـــارحنا اسـتنبول بقطار الشـــرق السريع الى بـــراغ .

كـــان السفر في القطارات ذوات الاســـرة وغرف الطعام ابهج انواع السفر ، سواء من حيث مشاهدة مناظر البلاد التي يمر بها القطار ، او من حيث ان ركوبها اكثر سلامة من ركوب البواخر .

واخذ القطار ينساب تارة في سهول مسطحة ، وتارة وسط غابات كثيفة يكاد الضوء لا يتخلل اشجارها . وبدأنا نشعر بتغير في المساكن الفردية والقرى والمدن كلما تغلغلنا الى الامام . فبلاد البلقان لا فرق بينها وبين بلادنا او بلاد الاناضول ، بعكس اوروبا الحقيقية التي تبدأ منذ الساعة التي يعبر فيها القطار بلاد المجر . فهناك تزداد معالم الرقي والتقدم كلما سرنا شمالا ، اذ تأخذ مناظر البلدان تتغير . فبدلا عن مآذن المساجد وابراج الكنائس ، ترى المداخن تشير بعلوها وبالدخان الذي يتصاعد منهـــا الى كون الصناعة ، وهي دليل التقدم الاقتصادي ، قد اثبتت وجودها . وقررنا ان ننزل في بلدة « برتو » من الجمهورية التشكوسلوفاكية ، لانها كانت مركز احدى الشركات التي تصنع الآلات التي نحن في طلبها . وفي طريقنا اليها مررنا قرب سهل « واغرام » التاريخي الذي انتصر فيه نابليون على جيش النمسا .